١٩١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

سرشناسه : گرجی، منیر، ۱۳۰۹ -
عنوان قراردادی : نگرش قرآن بر حضور زن در تاریخ انبیاء. عربی.
عنوان و نام پدیدآور : الرؤیة القرآنیة لدورالمراة في عهد الانبياء /منير گرجی؛ تحریر زهراء امی؛ ترجمه عبدالغنی البستانی.
شخصات نشر : تهران: انتشارات بین‌المللی الهدی، ۱۳۸۷.
مشخصات ظاهری : ۲۴۸ ص.
شابک : 978-964-439-331-0
وضعیت فهرست‌نویسی : فیپا
یادداشت : عربی.
موضوع : زنان در قرآن.
موضوع : زنان - - جنبه‌های مذهبی.
شناسه افزوده : امی، زهرا، ویراستار.
شناسه افزوده : بستانی، عبدالغنی، مترجم.
رده بندی کنگره : ۱۳۸۷ ۴۳۰۴۳گ ۹ ز/BP۱۰۴
رده‌بندی دیویی : ۲۹۷/۱۵۹
شماره کتابشناسی ملی : ۱۲۲۵۸۹۸

موسسة الهدیٰ للنشر والوزیع
ص.ب. ۴۳۶۳ ـ ۱۴۱۵۵
نلفون: ۸۸۸۹۷۶۶۱ فاکس: ۸۸۸۹۵۶۵۴
www.alhoda.ir Email: alhoda@icro.ir

موسسة الدراسات النسوية
نلفون. ۲۲۰۵۰۶۹۴-۰۲۱-۹۸+
فاکس: ۲۲۰۴۵۲۸۹-۰۲۱-۹۸+
www.iwsr.org Email: info@iwsr.org

الكتاب: الرؤية القرآنية لِدوُرِ المرأة في عهد الأنبياء
المؤلف: منير گرجي
المترجم: عبدالغنى آلبستاني
طبع باهتمام: منير آمدى قمي
الناشر: موسسة الهدیٰ للنشر والتوزيع الدولي
سنة الطبع: الطبعة الأولیٰ، ١٤٢٩ هـ.ق. ١٣٨٧ هـ.ش.
عدد النسخ: ٣٠٠٠ نسخة
شابک: ٩٧٨ـ٩٦٤ـ٤٣٩ـ٣٣١ـ٠

فهرس المحتويات

الفصل الثالث
المرأة والخيانة

الفصل الرابع
المرأة والحبّ

الفصل الخامس

المرأة والأُمومة

الفصل السادس

كياسة المرأة

الفصل السابع

المرأة المختارة

الفصل الثامن

المرأة الكفوءة

الفصل التاسع

المرأة والاستقلال الفكري

الفصل العاشر

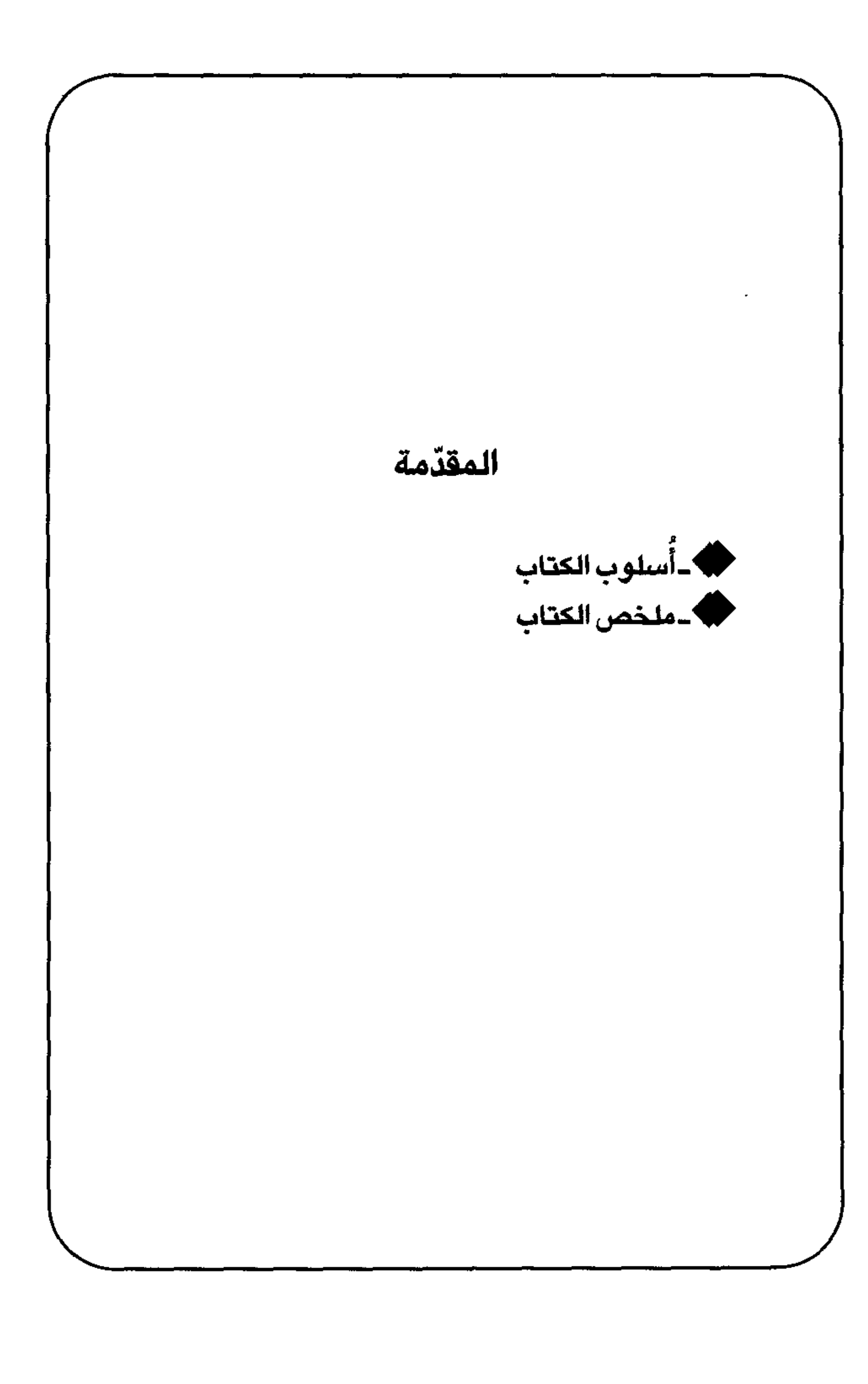
المرأة والتآمر

الفصل الحادي عشر

المرأة وتصدّيها للسنن الجاهلية

الفصل الثاني عشر

المرأة مرآة الحق



المقدّمة

- أُسلوب الكتاب
- ملخص الكتاب

المقدّمة

علىٰ الرغم من سعي المفكّرين والمنظّرين في عصرنا الحاضر ـ عصر ماوراء الحداثة ـ للوصول إلىٰ رؤىً ونظريات متقنة وثابتة لإقناع العقل البشري وإنقاذه من التيه والضياع ومن أجل الوصول إلىٰ الحقيقة، هذه المفردة التي اختُلف في تعريفها، فنعتها بعض بأنّها نسبية، وآخرون بأنّها مطلقة، واعتقد بعض آخر باستحالة نيلها وعدم حصرها في تعريف معيّن؛ ممّا زادها إبهاماً وتعقيداً...

أقول: علىٰ الرغم من ذلك لم يبقَ التخبّط والتيه مقتصرين علىٰ عالم التنظير فحسب بل انسحبا إلىٰ الحياة الاجتماعية والفردية أيضاً، وألقيا ظلالهما علىٰ أمور كالعدالة الاجتماعية والاعتماد على النفس والاستقرار النفسي وحتىٰ شملت الأخلاق الفردية والاجتماعية للمجتمع البشري المعاصر.

وهكذا لم يتمكّن هذا المجتمع ـ علىٰ الرغم من تطوّره في مجال العلوم الطبيعية ـ من الوصول إلىٰ رؤية أو علم يقيني في المجال المعرفي.

وفي خضّم هذا التخبّط في ظلام دامس من الجهل والحيرة وفي دهاليز الأفكار البشرية الحديثة، فإن التمسّك بعروة الأديان الإلـهية والأخذ بالنصوص الدينية وخاصةً القرآن الكريم يُضيء للسراة مصابيح متلألِئة ملهمة ترشدهم إلىٰ شاطئ المعارف الصادقة. قال الرسول الأكرمﷺ: «القرآن هدىً من الضلالة

وتبيانٌ من العمىٰ واستقالة من العثرة ونور من الظلمة وضياء من الأحزان وعصمة من الهلكة ورشد من الغواية وبيان من الفتن...»[١].

ودراسات المرأة تعدّ واحدة من القضايا المعرفية في دائرة الدراسات الإنسانية. وقد عرض القرآن الكريم نموذجين علىٰ طرفي نقيض للمرأة بملامحها السلبية والإيجابية، وذلك في مواضع عديدة ومصاديق مختلفة لتشكل بمجموعها مثالاً متناسقاً وكاملاً للجنسين الذكر والأُنثىٰ، بل ذهب إلىٰ أبعد من ذلك إذ قدّم للبشرية جمعاء نموذجين متباينين، ففي الوقت الذي اعتبر امرأة فرعون قدوة لكلّ من آمن باللّه ووصل إلىٰ مرحلة اليقين[٢]، اعتبر امرأتي نوح ولوط[٣] مثالين للكفر والإعراض عن الحقّ والحقيقة.

ولو ألقينا نظرة شمولية وجامعة علىٰ الآيات التي تحدّثت عن النساء اللائي عاصرن الأنبياء وكان لهنّ دور في تاريخهم، لأمكننا أن نستخلص بوضوح رأي الإسلام في المرأة وقدراتها وطاقاتها، وهي تقدّم لنا في الوقت ذاته معياراً وميزاناً متقناً لفرز التصوّرات والرؤىٰ الصحيحة من السقيمة الراسخة في الثقافة الإسلامية المنظورة[٤] أو غير المنظورة منها.

وعلىٰ هذا فإنّنا سنتناول الآيات بالبحث وندرسها للوصول إلىٰ أمرين:

١ ـ الحصول علىٰ نموذج واقعي للمرأة يخلّصها من الضياع وشراك الجهل المطبق في عالمنا المعاصر.

٢ ـ استخلاص معيار وملاك عملي لفرز وتقييم الأفكار والرؤىٰ الصحيحة من السقيمة الراسخة في الثقافة الإسلامية بشأن المرأة.

---

(٢) بحار الأنوار ٨٩/٢٦.

(٢) التحريم ٦٦/١١.

(٣) التحريم ٦٦/١٠.

(٤) المنظورة: التي يُرجىٰ منها خيراً. المعجم العربي الحديث (لاروس) / ١١٦٤.

١ ـ أسلوب الكتاب

نلفت انتباه قرّائنا الكرام إلىٰ بعض الأُمور المتّبعة في تأليف هذا الكتاب:

أ ـ ما جاء فيه هو حصيلة دراسة عن النساء اللآتي وردت أسماؤهن في القرآن الكريم، قامت بها الأُستاذة البارعة السيدة منير علي (گرجي) في مؤسسة الدراسات النسوية، وقد حرّرتها السيدة زهراء أُمّي وشرحتها ورتّبتها في ١٢ فصلاً، وتعتمد الدراسة علىٰ تقديم الشخصيات النسويّة حسب حضورهنّ علىٰ مديات التاريخ البشري سواءً كان لهن دور إيجابي أو سلبي في رقي القيم الإنسانية أو انحطاطها.

ب ـ تتناول الدراسة النصوص القرآنية أوّلاً ثمّ تحاول شرحها وتفسيرها والإشارة إلىٰ آراء بعض المفسّرين، واضعةً نصب عينيها الاعتماد على النصوص القرآنية كمصدر أساسي في الدراسة، وموكلةً الرجوع إلىٰ النصوص الحديثية والروائية بشكل مركّز إلىٰ زمن آخر لحاجته إلىٰ دراسة جامعة ومفصّلة. والأحاديث التي استشهدت بها عرضيّاً خلال البحث هي من باب الكلام يجرّ الكلام، أو من باب التيمّن والتبرّك، أو لأنّ الحديث كان يتطلّب ذلك نظراً لوجود حاجة خاصّة فيه.

ج ـ كلّ عنوان من العناوين التي جاءت في الكتاب يشكّل بحد ذاته كتاباً

مستقلاً في المستقبل إن شاء اللّه. حيث ستتضمّن دراسات تاريخية وجغرافية ونفسية واجتماعية ورؤىً علمية أُخرىٰ تتعلّق بالموضوع بالقَدَر الممكن.

د ـ بما أنّ البحث هو عن النساء في القرآن الكريم فقد حذفت الآيات والقصص الخارجة عن الموضوع أو ما لم تمتّ للبحث بصلة.

هـ ـ إنّ معظم أو كلّ الآيات التي تتحدّث عن النساء فيها تعرّض لرجال ذوي شخصيات فذّة أكثرهم من الأنبياء؛ ولذلك تحدّثنا عنها لابشكل مستقلّ بل بالمقدار الذي ارتبط بموضوع البحث فحسب، ولم نستطع تجاوزها لشدّة التصاقها بالموضوع. وعدم دراستنا لهذه الشخصيات بشكل مفصّل لا يعني تجاهلها أو إنكار شأنها بل هو من المستلزمات المنهجية.

و ـ إنّ ما دعانا لترجمة الكتاب إلىٰ اللغة العربية هو: إقامة مؤسسة الدراسات النسوية سنة ١٤٢٤هـ لثلاث دورات دولية للدراسات النسوية، وطلبت المشاركات فيها ترجمته إلىٰ العربية والإنكليزية لتعميم فائدته، بعد مطالعة محتواه النفيس وآراء المؤلفة الدقيقة.

مؤسّسة الدراسات النسوية

طهران

١٤٢٩ هـ ق

٢ ـ ملخّص الكتاب

حينما خلق اللّه برحمته الإنسان ونفخ فيه من روحه أودع فيه انجذاباً نحو مصدر الوجود ومبدئه، ولكن الشيطان الذي أقسم علىٰ إطفاء النور المنبثق من هذه العاطفة والانجذاب حرفه عن فطرته بأساليبه المضلّة ليدخله في ظلمات التيه والانحراف، وسيخفق في ذلك لو أتّبع الإنسان مصباحي الهداية الظاهري والباطني، أي الأنبياء والعقل؛ لأنّ هذين المصباحين أُنشئا للتصدّي لوساوس الشيطان وإبقاء فطرة الإنسان نقيةً شفافّة.

وقد قدّمت الأديان الإلـهية لا سيّما الإسلام الحنيف قدوات كثيرة ونماذج مشرقة من الشخصيات البشرية خاصّة النسويّة التي لم تستسلم للوساوس الشيطانية فحسب بل خرجت منتصرة من ذلك الصراع. كما أنّها قدّمت نماذج أُخرىٰ من النساء اللائي اخفقن في ذلك، من أجل مقارنة الفريقين.

هذا ممّا دعا مؤسسة الدراسات النسوية إلىٰ دراسة النماذج التي قدّمها القرآن الكريم، واكتشفت أنّ كلّ نموذج قرآني تناول بعداً معيّناً من شخصية المرأة وعرضه في لوحه فنّية للجميع؛ ليتبلور فيها الجانب القيمي البارز من وجودها.

كما اتّضح أنّ القرآن الكريم ينظر إلىٰ المرأة نظرة أسمىٰ من الحدود القبليّة

والفئوية ويعطيها طابعاً عالمياً، وكمثال على ذلك نجد أنّه يقدّم امـرأة فـرعون مثلاً للمرأة الصالحة لكلّ المؤمنين رجالاً ونساءً، ويشير إلىٰ امرأتي نوح ولوط علىٰ أنّهما مثال للمرأة الطالحة ونموذج لكلّ الكافرين.

من هذا المنطلق تمّت دراسة كلّ الآيات التي تتعرض لهذين الصـنفين مـن النساء بشكل مقارن، مع الأخذ بعين الاعتبار أُسلوب الخطاب وموقعية كلام كلّ منهنّ، ونشير هنا باختصار إلىٰ تلك النساء اللائي أشار إليهنّ القـرآن الكـريم بنحوٍ وآخر:

١ ـ بلقيس ملكة سبأ التي عاصرت النـبي سـليمان عليه السلام، وكـان لهـا لبـاقة سياسية مزجت بها الفطنة والكياسة مع القوّة في الحكم، وتمخّضت عن فرض سيطرتها علىٰ بلاد مترامية الأطراف بكلّ قـوّة واقـتدار؛ إلّا أنّ انشـغالها بآثـار الخليقة حال دون توجّهها للخالق وعبادته؛ ممّا آل بها إلىٰ السجود للشـمس، لكن شمول اللطف الإلـهي لها وضعها في طـريق الهـدايـة مـع سـليمان عليه السلام وأوصلها إلىٰ حقيقة العبودية للّه. ونستخلص ممّا ورد في حـقّها أنّـها كـانت تتمتّع بصفات حميدة كالشجاعة والقوّة وعدم التكبّر وتفتّح الذهن وعدم الجمود والتحجّر وصفات أُخرىٰ.

٢ ـ سارة زوجة النبي إبراهيم عليه السلام، وهي امرأة رافقت زوجها في كلّ مـرافـق الحياة، وتلقّت البشارة من الملائكة وجهاً لوجه، وتخلّصت من العقم مع زوجها، وأنجبت غلاماً صار نبياً وجعل اللّه في ذريته النبوّة وأنزل رحمته وبركاته علىٰ أهل بيته.

٣ ـ زليخا زوجة عزيز مصر، نعتها التاريخ بالعشق والجفاء، وعرّفها القـرآن الكريم بشغفها بيوسف وحسنه وكماله؛ لأنّها وجدت فيه صفاتاً تفوق الصفات البشرية وعلاقة بما وراء هذا العالم. وعلىٰ الرغم من أنّها لم تُـصِب فـي حـبّها ليوسف ولكنّها تعترف في نهاية المطاف بكلّ شجاعة بخطئها وتـذعن للـحقّ وتدعو له، وتقرُّ بنزاهة يوسف وتقصيرها بكلمات مليئة باللطف والاعتذار.

٤ ـ والدة النبي يوسف عليه السلام وهي امرأة صبورة تحمّلت فراق فلذّة كبدها لعدّة أعوام، وهي الزوجة الكفوء للنبي يعقوب عليه السلام وقد رُفعت هي كزوجها علىٰ العرش بأمرِ من ابنها يوسف عليه السلام.

٥ ـ أمّ وأُخت النبي موسىٰ عليه السلام وسائر النسوة اللائي رافقنه طول حياته وكُنّ السبب في درء الأخطار عنه، ورعينه بكلّ حنان ورأفة وأعددنه لتقبّل مسؤولية الرسالة الكبرىٰ.

٦ ـ القدّيسة مريم عليها السلام، وهي امرأة عشقت الحق، وصدّقت بكلمات ربّها، فاصطفاها وطهّرها واصطفاها علىٰ نساء العالمين، وكانت قانتة للّه طول حياتها بين سجود وركوع حتىٰ ذابت في الجمال الإلـهي، وكانت تُرزق من عند اللّه دون واسطة، وأصبحت هي وابنها آيةً للعالمين.

٧ ـ امرأة النبي زكريا عليه السلام، وهي امرأة عقيم من سلالة آل يعقوب وورثة قيمه، وقد شملتها العناية الإلـهية بسبب دعاء زوجها ووهبها اللّـه ذرّية صالحة، ووصفها القرآن الكريم بأسمىٰ صفة وصف بها زوجها وابنها.

٨ ـ فاطمة الزهراء عليها السلام، وهي مثال تامّ لكلّ الصفات الوجودية للإنسان الكامل المعصوم الطاهر، كان لها حضور في كلّ المواقف العصيبة في زمانها، وهي ذرّية رسول اللّه صلى الله عليه وآله وحلقة الوصل الوحيدة بين أبيها والأئمة المعصومين عليهم السلام.

وإلىٰ جانب هذه الشخصيات النسوية السامية نتناول بالبحث نماذج سلبية أيضاً أشار إليها القرآن الكريم، وهي:

١ ـ امرأتي نوح ولوط عليهما السلام قد تشرّفتا بالزواج بنبيين، ولكنّهما لم تهتديا بهديهما، فحسب بل خانتاهما وشكّلتا سداً في طريق نبوّة زوجيهما، وحاولتا إطفاء نور الحق؛ ممّا أدّىٰ بهما إلىٰ السقوط في حضيض العذاب الدنيوي واللعنة الإلـهيّة، وسجّل التاريخ اسميهما في عداد الكافرين والخائنين.

٢ ـ امرأة من زوجات النبي محمّد المصطفى صلى الله عليه وآله خاتم الأنبياء أفشت سرّاً أسرّها به الرسول وتآمرت عليه، ولم تذعن لهداية زوجها وتذكرته إيّاها وحاولت

أن تلتمس مفرّاً بدلاً من التوبة والاستغفار؛ ولذلك ذكرها القرآن الكريم بالسوء والعتاب؛ لأنّها تحمل لقب زوجة رسول اللّهﷺ، كما أشار القرآن إلىٰ شـريكتها في الذنب بشكل رمزي، وهي أيضاً لم تحمل من الصفات الحميدة سوى كونها زوجة للرسول.

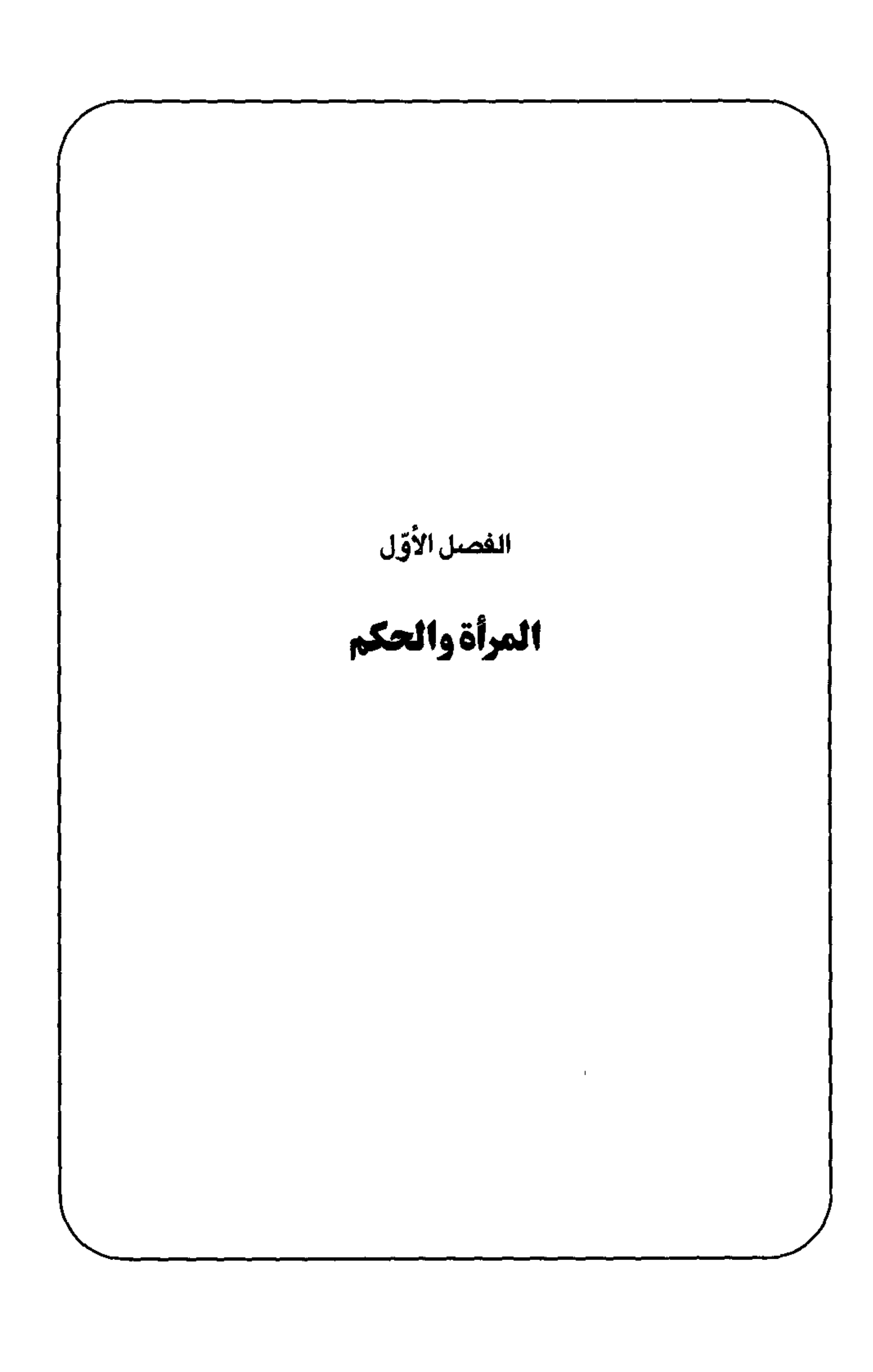
٣ ـ امرأة أبي لهب، وهي امرأة مستقلّة ولكنّها جاهلية عنيدة لجوجة ذات أُفق فكري ضيّق، وحمّالة للحطبّ، معادية للحقّ.

٤ ـ زينب بنت جحش، امرأة مسلمة ولكنّها مغرورة حادة الخُلُق لم يذكرها القرآن الكريم بسوء ولكن أشار إليها؛ لأنّها كانت السبب في نسخ وإبطال سُـنّةٍ من السنن الجاهلية، وقد تزوّجها الرسولﷺ بأمرٍ من اللّه لدحر تـلك السـنّة السيّئة، وكانت هي الأداة لتنفيذ ذلك الأمر.

ختاماً نشكر كلّ الذين ساهموا في إنجاز هذا المشروع وخاصّة الدكتور السيد إبراهيم آبادي مسؤول مكتب التخطيط الاجتماعي والدراسات الثقافية في وزارة الدراسات والتقنية، وندعو جميع المفكّرين وذوي الخـبرات لتـزويدنا بـوجهات نظرهم البنّاءة في الكتاب وموضوعه.

الرؤية القرآنية
لِدوْرِ المرأة في عهد الأنبياءِ

- الفصل الأوّل: المرأة والحكم
- الفصل الثاني: المرأة ونزول الرحمة والبركات الإلهية
- الفصل الثالث: المرأة والخيانة
- الفصل الرابع: المرأة والحب
- الفصل الخامس: المرأة والأُمومة
- الفصل السادس: كياسة المرأة
- الفصل السابع: المرأة المختارة
- الفصل الثامن: المرأة الكفوءة
- الفصل التاسع: المرأة والاستقلال الفكري
- الفصل العاشر: المرأة والتآمر
- الفصل الحادي عشر: المرأة وتصدّيها للسنن الجاهلية
- الفصل الثاني عشر: المرأة مرآة الحقّ



الفصل الأوّل

المرأة والحكم

المرأة والحكم

لا شكّ أنّ الحكم وسياسة المدن تعدّ من الأُمور الضرورية لكلّ مجتمع بشري، فقد جعل اللّه الإنسان اجتماعياً بالفطرة وألهمه حبّ التجمّع مع أبناء جنسه للحياة في مجتمعات يتوقّف وجودها على توفّر مكان معيّن وتقاليد وسنن وقوانين خاصّة بذلك المجتمع، وحاكم يسوسه ويتولّىٰ زعامته.

فاحتلت سياسة المدن حيّزاً في اهتمامات المفكّرين على مرّ العصور، ودخلت في جملة الأُصول التي تناولتها بحوث الحكمة العملية، ووضع لها كبار الفلاسفة قواعد وأُسساً تستند إليها.

وترىٰ الأُديان السماوية أنّ الحكم السليم المنضوي تحت راية التعاليم الإلهية عامل مهمّ في استقرار المجتمع وانسجامه؛ ولذلك لم تكتفِ بتشريع القوانين فحسب بل اشترطت في الحاكم مواصفات دقيقة و أوجبت طاعته.

ويمكن مطالعة مثال ذلك في النموذج الذي تعرضه سورة النمل للحكومة الإلهية، ويتجسّد بشخصية سليمان ووراثته لداود عليه السلام ويكشف عن بعض الجوانب من تبوّئه ذلك الموقع الفريد بين أنبياء اللّه بنحو خاصّ والبشر بنحو عامّ؛ إذ عُلّم منطق الطير وأُوتي من كلّ شيء[1] بحيث كان له الإشراف والولاية

(١) النمل ٢٧/١٦.

علىٰ الطبيعة والحيوانات، ممّا أمكنهُ التحدّث إليهم واستيعاب كلامهم وفهم نواياهم وتفهيم مقاصده إيّاهم، وله السيطرة علىٰ كلّ إمكانيات ومستلزمات الارتقاء لتنفيذ الأوامر الإلهية، كما اتّسعت رقعة حكمه وسيطرته لتشمل كلّ الموجودات: الجن والإنس والحيوانات والقوىٰ الطبيعية.

وتتداعىٰ إلىٰ الذهن من هذا النموذج القرآني حكومة الموعود الإلهي الذي سيحكم بحكم اللّه في يومٍ يرث فيه الصالحون هذه الأرض وهو ما أنبأتنا به سورة الأنبياء في قوله تعالىٰ: **﴿وَلَقَدْ كَتَبنا في الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكرِ أنّ الأرضَ يَرِثُها عِبَادِي الصّالِحُونَ ﴾**[١].

بعد ذلك تستعرض سورة النمل القيم والقدرات الذاتية الكامنة في الإنسان، وتجسّدها هنا شخصية بلقيس، فتعرض حكمها بمحاذاة حكومة سليمان التامة الشاملة؛ ممّا يبعث على التأمل؛ إذ إنّ الحكم والتدبير من صفات اللّه البارزة ـ **﴿ثُمَّ استَوَىٰ علىٰ العَرشِ يُدَبِّرُ الأمرَ ﴾**[٢] ـ التي يجب أن يكون لها ظهور في الإنسان باعتباره خليفة للّه، وظهور هذه الصفة الإلهية في بلقيس يعكس أبعاد دورها وأهمّيته.

بعد هذه المقدّمة الوجيزه ندعوك قارئنا الكريم لنغور قليلاً في بحر القرآن المتلاطم.

غياب أحد موظّفي الحكومة

﴿وتَفَقَّدَ الطّيرَ[٣] **فَقَالَ مَالِي لَا أرَىٰ الهُدهُدَ أم كَانَ مِنَ الغائِبِينَ ﴾**[٤].

تعتبر الدقّة والمراقبة والتفقّد والإشراف المستمرّ من مستلزمات الحكم في مُلكٍ واسع مترامي الأطراف؛ نظراً للمسؤولية الخطيرة الملقاة علىٰ عاتق من

(١) الأنبياء ٢١/١٠٥.

(٢) يونس ١٠/٣.

(٣) أي: وتفقّد سليمان الطير ولما رأى الهدهد غائباً فقال...

(٤) النمل ٢٧/٢٠.

بيده مقاليد الحكم، وسليمان عليه السلام باعتباره نبيّاً احتلّ هذا الموقع وكان لابدّ له من الاطّلاع والإشراف بشكل كامل ومستمرّ علىٰ ما يجري في نطاق ملكه؛ إذ إنّ حكماً تسوده القوّة والنظام لابدّ له من مراقبة كلّ ما يجري في جميع المناطق التي تخضع له صغيرة كانت أو كبيرة، ولا سيما رصد حركة أعضاء الحكومة وأياديها علىٰ المستويات كافّة حتىٰ العاديّة منها، كما لابدّ من تفقّد وزيارة القوّات العسكرية والمراكز المدنية بشكل مستمر.

وعندما كان سليمان عليه السلام يتفقّد قوّاته ذات مرّة افتقد أحد الطيور وهو الهدهد، ولمّا كان سليمان حاكماً إلهياً يتمتّع بسجايا إنسانية إلهيّة، لم يتسرّع في إصدار الحكم على أحدٍ من رعاياه؛ لأنّه ليس من شأنه ولا شأن رعيته؛ ولذلك ألقى اللوم على نفسه في بادئ الأمر فقال : **﴿مَالِيَ لَا أَرَىٰ الْهُدْهُدَ﴾**؟ وبعد ذلك طرح الاحتمال الثاني وهو الغياب دون استئذان فقال: **﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾**؛ لأنّه لم يحضر في محلّ خدمتهِ المنتسب إليها. وعندما تأكد من عدم حضوره بعد سؤاله عنه وعدم تلقّيه أي جواب، توعّده قائلاً: **﴿لأُعَذِّبَنَّه عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحنَّه أو لَيَأْتِيَنّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾**[1].

هذا النوع من التصريح يدلّ علىٰ أنّ كلّ عناصر هذا النظام أو الحكم المتقن والمتماسك لها دور معيّن ومؤثّر فيه ولم تكن عاطلة او مُهملة، بل تقوم بدور خاصّ إلىٰ جانب سيرها الحثيث نحو الكمال، ولها مكانة يُكمّل بعضها بعضاً؛ ولذلك فإن غياب الهدهد دون سبب قد يعرقل حركة المجموعة كلّها، وهذا الخلل يشكّل خطراً علىالنظام في حدّ ذاته، ولابدّ من وضع حَدٍ للحيلولة دون السقوط في أيّ خطرٍ محتمل؛ ولذلك يتوسّل بالتهديد أو التعذيب لمن يسبب ذلك؛ لأنّ سليمان عليه السلام باعتباره مصدر النظم والمسيّر لهذا النظام المتقن المنسجم كان عليه أن يتّخذ موقفاً حازماً تجاه أيّ تساهل وتماهل من تضييع وقت أو لهوٍ خاصّة عند أداء المهمّات.

---

(١) النمل ٢٧/٢١.

حرّية التعبير عن الرأي

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ[١] بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾[٢].

هذا ما قاله الهدهد بعد غيبة قصيرة بلباقة موضّحاً سبب غيبته ومعبّراً عن ذلك بأنّه أحاط[٣] بما لم يحط به، وهذا التفصيل في البيان أراد منه الفات نظر النبيّ إلىٰ عدة أُمور منها: أنّه على الرغم من اتّساع رقعة نفوذ سليمان وقدرته وما منحه اللّه من أسباب واختيارات هناك أخبار وعلوم وأُمور وحــوادث فــي عــالم الوجود ظلّت غائبة عن علمه، وبيان الهدهد هذا يعتبر نوعاً من الإشعار والتنبيه لسليمان وذكرى له بأنّه بالإمكان أن يعلم موجود صغير أُموراً لايـعلمها أعـلم إنسان في عصره حتىٰ وإن كان ذلك الشخص سليمان عليه السلام مع كل ما يملك من علم واسع ونبوّة؛ لكيلا يصيبه الغرور الذي هو آفة يُبتلىٰ بها العلماء عامّة؛ ولكي يبدو في نظره كل هذا العلم والحكمة التي يتمتّع بها أمراً صغيراً غير ذي قدر؛ ذلك لأنّ جميع ما يملك الإنسان هو من فيض اللّه عليه وليس ملكاً مستقلّاً له، وإلّا يصبح الإنسان مغروراً ومتّكئاً على ذاته؛ لأنّ اللّه سبحانه يسلب منه هـذا الفيض ويعطيه شخصاً آخر إن شاء[٤].

وهذه الفيوضات تعطى لكلّ شخص بمقدار معيّن حتى الأنبياء فهم درجات، وهذه الدرجات لها دخل في كيفية إدراكهم وتلقّيهم لنداءات السماء (أي أنــواع الإلهام والوحي)، ولها دخل أيضاً بمقدار العلم الذي يؤتونه، عدا النبي الكــريم محمد صلى الله عليه وآله الذي هو كلمته التامّة، عُرج به الىٰ السماء وأُعطي علم ما كــان ومــا يكون، أمّا سائر الأنبياء عليهم السلام الذين لم يبلغوا هذه الدرجة من العطاء فلا يحيطون بكثير من العلوم. وقد أشرنا إلىٰ نموذج من ذلك بالنسبة إلى سليمان عليه السلام وفــي

---

(١) سبأ عاصمة اليمن فيذلك الوقت. انظر تفسير الميزان ١٥/٥٤٩.

(٢) النمل ٢٧/٢١.

(٣) كلمة «أحاط» تشير إلىٰ العلم الكامل والشامل بالشيء، فلعل سليمان عليه السلام كان يعلم بوجود حكومة فــي سبأ ولكن لم يحط بكلّ تفصيلاتها من نوع الحكم والدين والآداب والسنن وحكم امرأة لهم.

(٤) تلخيص تفسير نمونه ١٥/٤٣٣، والكشاف ٣/١٤٣.

آيه أُخرىٰ أيضاً نجد هذا المعنىٰ حيث يقول سبحانه:

﴿حَتّىٰ إذا أَتَوا عَلَىٰ وادِ النّملِ قَالَتْ نَملَةٌ يَا أَيها النّملُ ادخُلُوا مَسَاكِنَكُم لَا يَحطِمَنّكُمْ سُلَيمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[١]، وهنا يتلقّىٰ سليمان ﷺ الدرس والعبرة من كلام تلك النملة؛ لأنّه يدرك أهمّية هذه المواقف والمواعظ وإن كانت من نملة، فهو نبي اللّه ؛ ولذلك نراه يستدرك الموقف قائلاً:

﴿رَبِّ أوزِعني أنْ أشكُرَ نِعْمَتَك الّتي أنْعَمْتَ عَليَّ وَعلَىٰ وَالِديَّ وأنْ أعْـمَلَ صَـالِحاً تَرضَاهُ وَأَدخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادكَ الصّالحينَ﴾[٢]. نستنتج من قول سليمان ﷺ هذا بعد لقائه النملة بوضوح أنّ كلامها كان نوعاً من الموعظة والذكرى ارادت به أن تنبّه سليمان لئلّا يصيبه الغرور من كثرة إمكاناته وقدراته، ويخرج عن صراط الهداية وأن يتذكّر بأنّ كلّ مالديه هو من اللّه. وما كان كلام سليمان واستدراكـه للموقف إلّا تعبيراً عن انتباهه وشكره للّه علىٰ هذه الإفاضة والذكرىٰ.

ولعلّنا نصل الىٰ نتيجة ظريفة أُخرىٰ من خلال إمعان النظر في كلام هـذين المخلوقين العاديين الصغيرين (الهُدهد والنملة) في حكومة سليمان، ألا وهو وجود حرّية التعبير وبيان الحقيقة وصراحة اللهجة في أجوبتهم وحديثهم مع سليمان ﷺ دون أيّ تملّق والتواء وخوف؛ ممّا يدلّ على نظام حكم متقن وقويّ يمارسه نبي اللّه وخليفته في هذه الأرض كوليّ وحاكم على الخلق، نظام بعيد كلّ البعد عن جميع أنواع الاستبداد والاستكبار والاستخفاف بالناس وتخويفهم واستغلال جهلهم، ممّا يرسم للأجيال القادمة أُفقاً رحيباً يسمح لكلّ مخلوق أن يُعبّر عن رأيه بحرّية تامّة حتّى وإن كان كلامه موهناً وبعيداً عن المـنطق، كـما قالت النملة في آخر كلامها: **﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾** حيث يستلهم سليمان ﷺ من هذا التعبير أيضاً حكمة ودرساً جديداً؛ لأنّه رسولٌ لرَبّ كريم سمح للشيطان أن

---

(١) النمل ٢٧/١٨.

(٢) النمل ٢٧/١٩، وتفسير كنز الدقائق ٩ / ٥٥١.

يطلب ما يريد بعد فسقه وعدم امتثاله لأمره وذلك عوضاً عن عبادته له[١]؛ لأنّ التخويف والتضييق ليس من أخلاق اللّه وأوليائه، فهم يتمتّعون بقوىً ونفوذٍ في الكلمة ولا يخشون الظالمين.

ويستمرّ الهدهد قائلاً: **﴿إنّي وَجَدتُ امرَأةً تَملِكُهُمْ وأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾**[٢] ففي هذه الآية المشتملة علىٰ ثلاث جمل متّصلة يبيّن الهدهد معالم هذه المدينة بوضوح. والألفاظ التي استُخدمت في الآية لها دلالات جميلة هي:

أولاً: تبيّن هذه الآيه أنّ امرأةً هي التي تُمسك بمقاليد الحكم في هذا البلد.

وإذا أمعنا النظر في الألفاظ نجد أنّ الهدهد الذي جاء بهذا النبأ يريد الإخبار عن أمر قاطع دون أيّ ترديد، ولم يستخدم ألفاظاً تشير إلىٰ تعجّبه ودهشته من هذا الأمر، لفظ «نبأ» يدلّ على وجود خبر مهمّ وذي فائدة كبيرة[٣]، كما أنّ هذه الألفاظ لها دلالاتها في السياق[٤]، فقد عبّر عن سيطرتها على كرسي الحكم بالمُلك وقال: **﴿تَملِكُهُم﴾**، وهذا اللفظ يدل علىٰ نفوذ كلمة السلطان في هذا البلد[٥] بين الناس. ونستنتج من ذلك أنّ هذه المرأة كانت تتمتّع بسلطان ونفوذ عظيمين، وتسيطر سيطرة تامّة علىٰ كلّ مرافق الحياة جملة وتفصيلاً، وأنّ الناس كانوا يثقون بكفاءتها وتدبيرها للأُمور وصدق نواياها، فمنحوها ثقتهم واعتمادهم وأطاعوا أوامرها.

ونظراً لموقع مدينة سبأ الجغرافي بل اليمن برمتّه في ذلك العهد وفي تلك الظروف فإن بسط السيطرة التامّة وتملّك قلوب الناس وتسيير أُمور البلد يستلزم شموخاً في الذات و سلامة في النفس تهيمن علىٰ الحاكم هيمنةً تطرد

---

(١) كما جاء في الأعراف ٧/١٤ ـ ١٥. **﴿قَالَ أنظِرنِي إلى يَومِ يُبْعَثُونَ * قَال إنّكَ مِنَ المُنظَرِينَ﴾**.

(٢) النمل ٢٧/٢٣.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن/٥٠٠.

(٤) بسعى بعض المفسّرين الىٰ إشعار القارئ بأنّ الهدهد كان متعجباً مں هذا الأمر، ولكن يبدو أنّ سعبهم غير مجدٍ. تفسير نمونه ١٥/٤٤٧.

(٥) مفردات ألفاظ القرآن/٤٩١.

عنه صفة الاستبداد بالرأي والركون الىٰ الذات بحيث تمكّنه من بسط سيطرته علىٰ الناس والنفوذ في أعماق نفوسهم بحيث يعكس حكماً ذا صلابة وقوّة.

ثانياً: ويشير الهدهد إلىٰ نوع الحكم وكيفيته بعد أن أشار الىٰ أنّ الحاكم هو امرأة فيقول: ﴿**أُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيءٍ**﴾ وهذا التعبير استخدمه القرآن لسليمان عليه السلام في الآية ١٦ من هذه السورة؛ ممّا يدلّ علىٰ أن قوّة هذه المرأة من الناحية العقلية والإدراكية يبلغ درجة راقية من الفهم والدراية بحيث يستخدم القرآن نفس الألفاظ التي أطلقها علىٰ سليمان عليه السلام، كما يدلّ علىٰ نوع من التشابه والتقارن بين حكمها وحكم سليمان عليه السلام، ومن البديهيات والمسلمات أنّ شخصية ضيّقة الأُفق وضعيفة النفس لا يمكن أن تقاس بنبّي من الأنبياء مالم تبلغ درجة من السمو ولو بشكل أضعف.[1]

---

(١) «إيتاء كل شيء» جاء فيالقرآن الكريم في ثلاثة مواضع: اثنين منها: ﴿**أوتينا مِن كُلّ شَيء**﴾ و ﴿**أُوتِيتْ مِن كُلّ شَيء**﴾ في الموضوع الذي أشرنا إليه آنفاً، والثالث: ﴿**آتَينَاهُ مِن كُلّ شَيءٍ سَبباً**﴾ وهو عن ذي القرنين في سورة الكهف، وإذا اردنا مقارنة مصاديق هذه العبارات الثلاث لابدّ من الرجوع إلىٰ الألفاظ فـ ﴿**كل شيء**﴾ يدل على العموم، وهو ما يعبّر عنه بالكلّ في مقابل الخصوص الذي يعبّر عنه بـالبعض أو الجـزء، وقـد يجيء الكلّ للخصوص بقرينة تقوم مقام الاستثناء كقولك: لزيد في كل شيء يد. انظر الفروق اللـغوية ١١٦/.

إذن إيتاء كلّ شيء في هذه المواضع الثلاثة لها مشتركات وممبّزات ففي قول سليمان عليه السلام: ﴿**أوتِيَنا مِنْ كُلّ شَيء**﴾ بما أنّ القائل نبي من الأنبياء فقوله يدل على حيازة البعدين: المادي والمعنوي، أي مِن كلّ شيء ماديّ، وأيضاً من العقل والعلم والحكم والنبوّة.

وفي الموضع الثاني أي: ﴿**وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيء سَبَباً**﴾ وهو إشارة إلىٰ ذي القرنين، فإنّ وجود لفظ ﴿**سَبَباً**﴾ هو قرينة وتخصيص يراد منه الوسيلة حسب رأي العلّامة الطباطبائي في تفسيره الميزان، والمراد منه هو إعطاء الوسيلة والسبب لكلّ شيء يحتاجه الناس للوصول إلى مقاصدهم المهمّة من قـبيل العـقل والعلم والدين والقوة الجسمية وكثرة المال والجيش وسعة الملك وحسن التدبير و غيره. يُراجع تفسير الميزان ١٣/ ٦١١.

واذا سلّمنا بأنّ السبب هو العلّة فان إيتاء سبب كلّ شيء يعني إعطاء علم الأسباب والعـلل فـي الأُمـور الدنيوية وفي كلّ المجالات؛ ولذلك يمكن القول بأنّ ذا القرنين كان يعلم أسباب الأُمور الدنيوية فـي كـلّ المجالات، وكان بإمكانه القيام بأيّ شي عن طريق معرفته بأسباب الأشـياء بشكـل قـطعي دون أيّ شكّ وترديد أو تجربة للأُمور عن طريق الخطأ والصواب، بحيث يصل إلىٰ إنجازها بسرعة وإتـقانٍ واطـمئنان وعلم.

←

← إذن يمكن القول بأنّ مجموعة من العلوم هي معرفة الأسباب والمسبّبات، وهنا لبس المراد من ﴿آتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ الأمور المادية والدنيوية فقط، بل تشمل العلوم الخاصّة أيضاً؛ إذ إنّ حواره مع الناس في الآيات التالية يشير بوضوح إلىٰ ذلك، ففي قوله في سورة الكهف ١٨/ ٩٤-٩٥: ﴿قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً * قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾. يبين حواره هذا مع مجموعة من الناس ومطالبتهم إيّاه بجعل سدّ يمنع اعتداء يأجوج ومأحوج عليهم، فبقول الناس نجعل لك خرجاً، أي إذا تحتاج إلىٰ أموال نحن مستعدّون لتقديمها إليك، ويجيبهم ذو القرنين بالقول: ﴿ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ وهو إشارة إلى أمور تتعدّىٰ البعد المادي وهو علم الأسباب بحيث نمكّن من بناء سدّ لهم من الحديد والنحاس يمنع يأجوج ومأجوج من خرقه أو عبوره.

أمّا قول الهدهد بشأن بلقيس: ﴿أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فيدلّ على إتيان بلقيس كلّ شيء تحتاجه في حكمها ـ لأنّ الحديث يدور حول الحكم قبل هذه العبارة وبعدها ـ وهو يشمل الثروات المادية والتقنية والعلوم الانسانية التي تحتاجها لإدارة البلد وتسيبس الأمور ورتقها وفتقها؛ لأنّ إدارة البلدان تستلزم وجود قدرة عقلية مدبّرة ودراية وسياسة، والقرينة علىٰ ذلك هو احتبار سليمان عليه السلام إيّاها؛ لكي يعرف مدى تدبيرها وسياستها.

إذن ﴿أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني أنها أُوتيت من كُلّ شيء حتى القوىٰ العقليّة أيضاً، ولكن سجودهم للشمس يعتبر نقصاً من ناحية العبادة والهداية، وهذا أمر يستثنىٰ من هذه القوىٰ، وهو النقص الوحيد في هذه الحكومة؛ ولذلك نجد أنّ الهدهد يشير الىٰ هذا النقص العبادي لا الاعتقادي.

والقرينة الثانية على أنّ المراد من ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ لا يشمل الأُمور المادية فقط بل هو أعمّ من ذلك، قول بلقيس نفسها في بلاط سليمان: ﴿أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها﴾ النمل ٢٧/ ٤٢، أي إننا أوتينا هذه العلوم قبل هذا الاختيار، وبما أنها لم تنسب ذلك لنفسها بل قالت: أُوتينا، اي من قبل الله تعالىٰ، فإنّ شركها يبدو أقلّ درجةً وأضعف منزلةً.

وبذلك يتّضح أن بلقيس كانت تملك ـ إضافة إلىٰ ثرواتها المادية وسعة رقعة الحكم والنمو والتقدّم الصناعي بقرينة ﴿وَلَها عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ ـ العقل والسياسة وكلّ مؤهّلات الحكم ونوعاً من المعرفة بوجود الخالق والنبي المرسل من قِبَله و... ولكن إذا أردنا أن نأخذ العبارتين: ﴿أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ و﴿أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ بمعنىً واحد فهذا لايصحّ؛ لأنّ بلقيس لم تملك كُلّ ما ملكه سليمان عليه السلام بدليل قوله لسفيرها: ﴿فَما آتانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمّا آتاكُمْ﴾، فهي ليست بمنزلة نبي ومع ذلك فما أُوتيت لم يكن أمراً يسيراً وهيّنا، ولعلّ الله سبحانه بسبب اتّساع رقعة حكومتها ونفوذها أعطى كلّ هذه القدرة والإمكانيات لسليمان عليه السلام لو سلّمنا بأن معجزة كلّ نبيّ تتناسب مع زمانه والظروف المحيطة به، علىٰ الرغم من أن معجزات الأنبياء تظل تحتفظ بقدرة إعجازها في كلّ الأزمنة.

وهنا لابدّ من الإشارة إلىٰ بعض التفاسير في هذا المجال. قال العلّامة الطباطبائي في الميزان ١٥/ ٥٤٣ عند تفسيره لعبارة: ﴿أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾: المقصود من ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ هو كلّ شيء لو أُعطي للإنسان يُمكنه أن يتنعّم به، وليس المراد كلّ شيء بصورة عامّة، إذن ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ في هذه الآية فيه قيد ألا وهو النعم كالقدرة والملك والحكم (القضاء بين الناس) وسائر النعم المادية والمعنوية.

←

ثالثاً: يشير الهدهد إلىٰ عرش بلقيس: ﴿وَلَها عَرشٌ عَظِيم﴾ فالعرش يدل علىٰ شيئين:

الأول: الكرسي الذي يجلس ويتّكئ عليه الملوك وهو ظاهر الأمر.

الثاني: العرش، هو إشارة إلىٰ مقرّ الحكم ومركز القدرة، والجبروت التي تعدّ من مستلزمات الحكم، وفي رأي العلامة الطباطبائي أنّ العرش هو تعبير مجازي يراد به المقام أو المركز الذي يتصدّر الأُمور في الحكم[١].

والخلاصة: أنّ الهدهد أراد من لفظ «العرش العظيم» الإشارة إلىٰ أنّ هذه المرأة التي تحكمهم لها نفوذ وقدرة واسعة وسيطرة تامّة علىٰ هذا البلد، إضافة إلىٰ أنّ العرش الذي أدهش الهدهد مع أنّه رأى من قبل عظمة سليمان ﷺ يدل علىٰ تقدّم العلوم والصناعات في سبأ حينذاك.

الشمس آية من آيات الخالق

﴿وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أعمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾[٢].

بعد أن أشار الهدهد الىٰ مظاهر الحكم في سبأ وطبيعتها أراد أن يسلّط

← وأمّا في تفسيره لعبارة: ﴿أوتيتْ مِنْ كُلِّ شَيء﴾ فيقول في الميزان ١٥/٥٥٠: هذه العبارة تدلّ على وسعة رقعة حكومتها وعظمة سلطانها، وهذه قرينة بنفسها تدلّ على أنّ المراد من ﴿كُلّ شَيء﴾ في الآية هو كلّ شيء تحتاجه في سلطانها العظيم هذا، من قبيل: الحزم والاحتياط والعزم الراسخ والقوّة والجلال وسعة الأرض والماء والخزائن الغنيه والمليئة والجيش والجند الأقوياء والرعيّة المطيعة لأوامرها، ولكن القرآن أشار الىٰ عرشها العظيم فقط.

وجاء في الميزان ١٥/١٥٢ وتفسير نمونه ١٥/٤١٩: أنّ العرش هو المحلّ الذي تتجمّع فيه كلّ مقاليد أُمور الحكم وزمامها؛ لأنّ الأوامر تصدر منه.

وجاء أيضاً ﴿أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيء﴾ يراد به شمول كلّ الوسائل المادية والمعنوية التي تحتاج إليها الحكومة بعد تشكيلها، أي الحكومة الإلـهية.

أمّا التفاسير الأُخرىٰ فهي أيضاً تتّفق في الرأي مع ما أوردناه في هذه المقدّمة.

(١) الميزان ١٥/٥٥٣.

(٢) النمل ٢٧/٢٤.

الضوء بدرايته وذكائه علىٰ نقاط الضعف والنقص هناك، فيشير إلىٰ عبادتهم للشمس: ﴿**وَجَدْتُّها وَقَومَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ**﴾، ونستنتج أنّ الهدهد قدّم لسليمان تقريراً موضوعياً صادقاً دون أي تحريف أو تشويه للحقائق، فقد بين بدقّة نقاط الضعف والعيوب الىٰ جانب نقاط القوّة والحُسن كلّ في محلّه، فلم تمنع العيوب والنواقص من غضّ الطرف عن نقاط القوّة والحُسن، بل أكثر من ذلك فهو في بادئ الأمر يتعرّض إلىٰ النقاط الإيجابية ومن ثم يعرّج علىٰ النقاط السلبية، وهذه النظرة تنبع من وجهة نظر إيجابية إلى الكون والوجود، وترىٰ الجمال والحُسن أوّلاً، وتعتبر العيوب والنواقص أُموراً عرضيّة وثانوية.

هذا من جانب، ومن جانب آخر: أنّ الهدهد لم يقل بأنّهم عبدة للشمس؛ لأنّه رأىٰ سجودهم لها فقط، ولم يَر دليلاً بإصدار حكم الانحراف عقائدياً عليهم بسرعة، بل رآه نقصاً في العبادة وشركاً ظاهرياً، وعليه أن يكون أميناً وصادقاً في تقريره؛ لأنّه يعتبر أحد عمّال حكومة إلـهية، فقد نسب السجود للشمس إلى بلقيس أولاً: ﴿**وَجدتُّها**﴾ ومن ثمّ لقومها، وهذا الترتيب ينم عن أنّ بلقيس كانت تتمتع باستقلال ذاتي في عقيدتها وتصرّفاتها، بل أكثر من ذلك: فهي من خلال فرض حكمها علىٰ قومها أثّرت في نشر معتقداتها بينهم.

ثمّ ويصرّح الهدهد في الآيتين التي تليها بوجهة نظره إلى الكون والعالم ويُعرب عن أسفه لانحرافهم[1]:

---

(١) لابأس هنا بالإشارة الىٰ أنّ الآية الكريمة ٣٨ من سورة الانعام.﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**﴾ فيها تصريح بأنّ الحيوانات لها عوالم تشبه عالمنا أيضاً، وهي أُمم وأجيال متعاقبة يأتي الواحد تلو الآخر، وينقرض جيل ليحلّ جيل جديد محلّه ونصحبه تفاعلات وحوادث مختلفة، وهي مجموعات متداخلة ومتماكسة لها نظامها الخاصّ بها، وكلها سائرة في حركة دؤوبة الى خالق الوجود، مثلها مثل سائر الموجودات التي تسير نحو هذا الهدف: ﴿**ألا إلى اللّهِ تَصِيرُ الأُمُور**﴾ الشورى ٤٢/٥٣؛ ولهذا نجد الهدهد يحكي بحسرة وتأسّف عن انحراف ذلك المجتمع، ولم يكن هذا لسان حاله فقط بل هو لسان حال كل الموجودات التي سخّرها اللّه للبشر، فهي في نفس الوقت الذي سُخّرت لهم، نسير نحو الكمال في حركة دؤوبة، ولكن الإنسان تارة يضلّ عن طريق الصواب ويسقط في الحضيض، ولو كانت لهُ أُذن صاغية لسمع حسرة تلك الموجودات وأسفها عليه.

﴿أَلَّا يَسجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخرِجُ الخَبءَ في السّماواتِ وَالأَرضِ وَيَعلَمُ مَا تُخفُونَ وَمَا تُعلِنُونَ﴾[١].

والخبء في اللغة: ما خُفي في غيره، ومخبوء بمعنى مخفي في غيره لا يدركه ولا يراه الآخرون[٢]. وما ورد في الآية علىٰ لسان الهدهد يراد به أنّ اللّه تعالىٰ يُخرج كلّ شيء وكلّ القوىٰ والطاقات والذخائر الموجودة في كلّ ذرّة من عالم الوجود، والجميع في حركة وليست هناك ذرّة صامتة وساكنة، وهنا يفتح اللّه سبحانه باباً أمام الإنسان علىٰ لسان الهدهد، هو: أنّ كلّ ذرّة في عالم الوجود ـ الذي هو مرآة التجلّيات الربّانية ـ هي درس وعبرة للإنسان، واللّه هو الذي أوجد الكائنات من العدم ومنحها الحياة وسيّرها وسوّاها، ولو فتح الانسان بصره وبصيرته فسيرى في كلّ ذرّة من الكون عبراً ودروساً تدعوه إلىٰ اللّه: **﴿اللّهُ لا إلَهَ إلّا هُوَ رَبُّ العَرشِ العَظِيمِ﴾**[٣].

نستلهم من هذه الآية ما يلي:

١ ـ إنّ كلّ الأُمور تنتهي إلىٰ اللّه سبحانه؛ لأنّه ربّ العرش العظيم وهو المدبّر لأُمور الكون بأسره؛ إذ إنّ العرش كما قلنا هو مركز القرار ومصدر الأُمور.

٢ ـ صحيح أنّ عرش بلقيس كان عظيماً ولكن عظمته لا تعتبر شيئاً قياساً بعرش اللّه الذي هو مركز تدبير أُمور الكون كلّه، وعرش بلقيس الذي وصف بالعظمة يفقد اعتباره فيما إذا نسي صاحب العرش ربّ الكون وسجد لغيره.

٣ ـ يرىٰ الهدهد أنّ الموقع مهما كان عظيماً لو لم يشرق عليه نور الهداية ولم يكن خاضعاً للّه تبارك وتعالىٰ فإنّه زائل لا محالة، وهذه القاعدة عامّة لا تختص بالحكم فقط فأي عمل لا يكتب له البقاء والخلود ما لم يكن خاضعاً لأحكام اللّه وقضائه: **﴿كلُّ شَيءٍ هَالِكٌ إلّا وَجْهَهُ﴾**[٤].

---

(١) النمل ٢٧/٢٥.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم/١٤١، وتفسير كنز الدقائق ٩/٥٥٦.

(٣) النمل ٢٧/٢٦.

(٤) القصص ٢٨/٨٨.

بعد انتهاء سليمان ﷺ من استجواب الهدهد عن سبب غيبته قال: ﴿**سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَم كُنتَ مِنَ الكَاذِبِينَ**﴾(١) فهو باعتباره حاكماً لنظام منسجم كان عليه أن يتأكّد من صحّة خبر الهدهد ويدقّق فيه، ومن ثمّ يتّخذ القرار المناسب بشأنــه. ونستنتج من هذا التصرّف أنّ إخبار عامل من عمال النـظام بـنبأ لايسـتوجب تصديقهبسرعة وقبول ادّعائه وتأييده دون تحقيق وتفحّص، بل يجب أن يُنظر في الأمر بدقّة ويخضَع للاختبار. وهكذا يتسنّىٰ للـقادة الحـيلولةُ دون اتّـخاذ قرارات خاطئة وعجولة والخروجُ بسلام من تآمر المتآمرين وأراجيف المرجفين.

وهذه سياسة ناجحة وحكيمة لا تخدم الحكومات المادية والبشرية فحسب بل تستخدم في الحكومات الإلـهية والحَقّة أيضاً: ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ**﴾(٢). ولعـلّ المـغزىٰ مـن الفـتن والاختبارات الإلـهية هو فصل الصادقين عن الكاذبين وكشف نواياهم وإن كان اللّه سبحانه وتعالىٰ محيطاً بكلّ شيء وعالماً بعلمه المـطلق ولا يـحتاج الىٰ اختبار أحد.

وسليمان ﷺ اتّخذ هذا الأُسلوب واتّبع هذه الطريقة؛ لأنّه نبيّ حقاً، ومن أجل أن تتّضح وتتجلّىٰ الحقيقة له وللجميع ممّن يحيط به.

رسالة سليمان ﷺ الىٰ بلقيس

﴿**إذْهَبْ بِكِتابِي هَذَا فأَلقِهِ إلَيهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذا يَرجِعُون**﴾(٣).

وهكذا تُستأنف مُهمّة الهدهد الجديدة، إذ يأمره سليمان ﷺ بحمل رسالة الىٰ تلك الديار ويلقيها اليهم، ثمّ ينصرف لينظر ماذا سيفعلون بها؟

ويتغيّر أُسلوب الآيات التي تلي هذه الآية من النقل القصصي السردي إلىٰ

---

(١) النمل ٢٧/٢٧.
(٢) العنكبوت ٢٩/٣.
(٣) النمل ٢٧/٢٨.

أُسلوب الخطاب والتقرير المباشر لما يجري من أحداث في القصّة المذكورة، حيث: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّها المَلأُ إِنّي أُلقِيَ إِليّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾[١]؛ لأنّ بلقيس هي التي استلمت الرسالة أوّلاً، وثانياً أنّ الرسالة التي وصلت إليها كانت عن طريق غير رسمي ومغاير للإعراف الدبلوماسية السائدة حين ذاك، ومن أجل ذلك نراها تُعلن عنها بهذه الطريقة: ﴿إِنّي أُلقِيَ إِلَيّ﴾، فالذي أتىٰ بالرسالة والذي أرسلها كلاهما مجهولان؛ لأن بلقيس لم تكتشف أنّ طائراً هو الذي جاء بالرسالة، أو لعلّها عبّرت بهذا التعبير للتّقليل من أهمّية الموضوع أو حامل الرسالة، وعلىٰ الرغم من ذلك فإنّها لم تهمل الموضوع بل دعت إلىٰ عقد اجتماع عامّ ودعت الملأ[٢] للحضور والبحث في مفاد الرسالة.

وهنا نود لفت الانتباه الىٰ ملاحظة مهمّة وهي أنّ اهتمام بلقيس ـ باعتبارها ملكة تمسك بيدها مقاليد الحكم ـ برسالة أُلقيت إليها بشكل غامض وفي قصرٍ مشيّد، ودعوتها لعقد اجتماع استشاري، وإعلانها عن تلقّي هذه الرسالة، كلّ ذلك له مدلوله الخاصّ، وهو جدير بمقارنته مع دقّة سليمان ﷺ كنبي من أنبياء اللّه واهتمامه البالغ بغيبة احد أفراده العاديين وهو الهدهد، فكما أنّ غياب الهدهد يترك أثره السلبي على النظام ويُخل بالنظم مما جعل سليمان ﷺ يوليه اهتماماً خاصّاً، فإنّ بلقيس أعارت أيضاً اهتماماً بالغاً برسالة أُلقيت إليها بشكل غير متعارف.

هذا التوضيح الذي قدّمناه يبدد الشبهة التي أثارها القول الذاهب إلىٰ أنّ اهتمام بلقيس البالغ بالرسالة ناشئ من الإثارة التي تلقّتها بلقيس من الهدهد لحمله الرسالة بهذا الشكل غير المألوف؛ وذلك لو صَحّ هذا القول لكان مدعاةً

---

(١) النمل ٢٧/٢٩.

(٢) الملأ: الجماعة، وجماعة الأشراف، حيث قال الطبرسي: الملأ بمعنى جماعة الأشراف الذين هيبتهم تثلج الصدور.

وقال الراغب في مفرداته: هم الجماعة المتّفقون في الرأي، واتّفق في وجه تمسيتهم مع الطبرسي. انظر قاموس القرآن ٦/ ٢٧١.

للتصريح بحمل الهدهد للرسالة، ولما دعاها الىٰ استخدام صيغة المجهول في تعبيرها: ﴿**أُلقِـي إلـيّ**﴾ كما أشار الىٰ ذلك المرحوم سيد قطب في تفسيره حيث اعتقد بأنّ تعبير ملكة سبأ بـ﴿**أُلقِي إليّ**﴾ وإخبار رجال البلاط عن الرسالة يـدلّ علىٰ أنّها لم تكن تعلم مَن الذي ألقىٰ بالرسالة، وكيف تمَّ ذلك(١)؟

ويمكننا أن نصل إلىٰ نقاط دقيقة أُخرىٰ لو أمعنّا النظر في هذه الآيات:

أوّلاً: إنّ رسالة سليمان ﷺ كانت موجّهة الىٰ جميع القوم، ولكن بلقيس تلقّت الرسالة وكأنّها هي المقصودة في الخطاب، وهذا التلقّي يشير الىٰ أنّ بلقيس لم تنظر باستخفاف إلى موقعها ولم تعتبره لعباً أو لهواً، بـل اعـتبرته مسـؤولية اجتماعية خطيرة ملقاةً علىٰ عاتقها وهي المسؤولة الأُولىٰ عـمّا يـجري فـي بلادها التي تحكمها؛ ولذلك رأت من واجبها التحقيق والإجابة عن الرسالة التي أُلقيت إليها، ويجب عليها اتّخاذ القرار وهذا من شأنها لا غير.

ثانياً: ختمت بلقيس كلامها بالتعبير بـ﴿**كِتابٌ كَريمٌ**﴾، ووصف الكتاب بالكريم له دلالته الخاصّة؛ لأنّ الرسالة في حدّ ذاتها ليست لها كرامـة، ومـن يـضفي الكرامة على الكتاب هو شخصية صاحب الرسالة أو محتواها. وعـند إطـلاقها صفة الكريم على رسالة لايعرف المخاطبون مغزاها ولا مرسلها فقد أرادت بذلك أن تثير اهتمام مخاطبيها بالرسالة وتهيّئ الأرضية اللازمة في أذهانهم لتـلقّي مغزىٰ الرسالة ومحتواها باهتمام ودقّةٍ عـالية؛ لئـلّا يـنظروا إليـها بسـطحية وهامشيّة ويصدروا حكمهم وقرارهم دون تريّث، ولعـلّها كـانت تـريد أن تـهيّئ الأرضية المناسبة لقبول دعوة سليمان ﷺ واعتناق دينه إذا ثبتت نبوّته.

وعقّبت بلقيس بالقول: ﴿**إنّه مِنْ سُلَيمانَ وأنّه بِسْمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحِيمِ**﴾ وبهذا التعبير صرّحت عن سبب وصفها للرسالة بالكرامة، وأفصحت بذلك عن عقيدتها بوضوح، ممّا يدعو القارئ لأن يكتشف بجلاء أنّ بلقيس وقومها كانوا متلبّسين بشرك في العبادة فقط وليس فيالعقيدة، وذلك يستفاد مـن وصـفها الكـتاب

---

(١) في ظلال القرآن ٦ / ١٤٥.

بالكريم لسببين: الأوّل أنّه من سليمان ﷺ، والثاني أنّه يبدأ باسم اللّه، وأنّه كريم لهذين السببين فقط لا غير، وبقيّة الرسالة ليس فيها شيء يروق لها؛ لأنّ فيها طلباً للتسليم في كلّ الأحوال، وهذا طلب صعب وثقيل على كلّ حاكم، لولا ما فيه من أدلّة دامغة.

وهذا يدلّ علىٰ أنّ بلقيس كانت تعرف سليمان ﷺ وتحترم عقائِده أوّلاً، وأنّها لم تعبد الشمس من باب الأُلوهية، وإنّما تعتبر الشمس مظهراً من مظاهر اللّه، وتعتقد بأنّ اللّه هو منشئ وخالق كلّ الوجود، وكانت تُقرُّ بذلك؛ لأنّ الناس في العصور الغابرة كانوا يعتبرون الشمس أو النيّر الأعظم موجوداً فيّاضاً يقضي بنوره وحرارته علىٰ الظلمة والشرّ وينشر النور والطُهر، بحيث يمكن لمس هذا الرأي بشكل واضح في كتب القدماء كالشاعر جلال الدين الرومي المعروف بـ«مولوي» الذي كان مسلماً ملتزماً وطوى مراحل في العرفان، فهو أيضاً يعبّر عن الشمس بهذا التعبير ويذكرها في استعاراته وتشبيهاته بتعبيرات جميلة وسامية، فهي موجود ليس له وجه ولاخلف؛ لأنّه نور كلّه، وكلّ الناس في تلك العهود القديمة، حتىٰ الذين كانوا يسجدون للشمس، كانوا يُقرّون بربوبية اللّه، وأنّه ربّ الأرباب، وأنّه هو خالق كلّ هذه المظاهر (كالشمس) وبارئها، وذلك خلافاً لما وصل إليه العلم الآن من أنّ الشمس ليست إلّا كُرة وجدت نتيجة سلسلة من الانفجارات والإشعاعات والتفاعلات الذرّيّة.

ثمّ يقول سليمان ﷺ في رسالته إلىٰ بلقيس **﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾**(١). نستشف من المقدّمة التي صاغتها بلقيس أنّ هذه الجملة القصيرة الآنفة الذكر لم تكن نصّ الرسالة بل إنّ بلقيس لخّصت الرسالة لرجالها في البلاط وكشفت لهم عن مضمونها(٢). كما أنّ التاريخ لم ينقل نصّ رسالة سليمان ﷺ أيضاً. وهذا الرأي لايستند فقط إلىٰ تركيب الكلام وسياقه بل،

(١) النمل ٢٧/٣١.
(٢) هكذا جاء في تفسير الميزان ١٥.

إنّ القرائن الموجودة في الآيات الشريفة تشير إلىٰ ذلك بوضوح؛ لأنّه لابدّ في مقدّمة الرسالة بعد ذكر اسم الله تبارك وتعالىٰ أن تبدأ بمثل هذه العبارة: «من سليمان عبد اللّه ونبيّه إلىٰ بلقيس ملكة سبأ». ولولا ذلك لما اكتشفت بلقيس دون أن تتحدّث مع حامل الرسالة أنّها من سليمان.

هذا من جانب ومن جانب آخر: أنّ الأنبياء لايطلبون التسليم من أحد دون بيان رسالتهم وتبليغ أهدافهم ودعوتهم إلىٰ الحقّ بالتي هي أحسن لا بالقهر والغلبة؛ لأنّ الحكماء فضلاً عن الأنبياء الذين هم قدوتهم، لايكلّفون بلا بيان(١) فهو أمرٌ قبيح ولايصدر عنهم قط(٢).

وكذلك من خلال إمعان النظر في كلام بلقيس في هذه الآيات يظهر مدى تلخيص بلقيس للكلام، وهذه الجملة تحتفظ بنفس الأُسلوب، ومن هنا فإنّ مدى شموخ رسالة سليمان إلىٰ بلقيس هو لاضوائها على منطق قوي وأدلّة دامغة ولكن بلقيس في مقام الفعل كان عليها أن تتدرّج في بيان مضمونها لمشاوريها، فهي لم تستخدم الكلمات الصريحة في بيانها؛ ولذلك استمرّت في كلامها من خلال ما تعكسه الآيات الآتية:

بلقيس ومشاورة رجال البلاط

﴿قَالَتْ يَا أيّها الملأُ أَفْتُوني في أمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أمْراً حَتّىٰ تَشْهَدونِ ﴾(٣).

يظهر من هذه الآية مدىٰ اهتمام بلقيس بالاستشارة والشورىٰ، مما يدلّل علىٰ خصوصية في شخصيتها السياسية والاجتماعية؛ لأنّ مشاركة الناس في القرارات والأُمور الحكوميّة والسياسية يدلّ علىٰ صحّة وسلامة الحكم، وأنّه من أرقىٰ أنواعه وأساليبه، وقد أوصىٰ اللّه سبحانه نبيّه الكريم وأمره بذلك حيث قال

---

(١) التكليف بلا بيان هو الطلب من الآخرين بالالتزام بفعلٍ والعمل به دون توضيح ذلك وبيانه.

(٢) بامكان القارئ الكريم للاطّلاع على موضوع الحسن والقُبح العقليين مراجعة كتاب أُصول الفقه المجلد ١، الجزء ٢/ ٢٣٥ ـ ٢١٣، أنيس الموحدين /٩٧.

(٣) النمل ٢٧/ ٣٢.

: ﴿وَشَاوِرْهُم في الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللّهِ﴾[١].

وتجدر الإشارة إلىٰ انّ هذا الأمر لا يراد به الاستشارة في شؤون النبوّة كما هو معلوم وكما تصرّح الآية الشريفة: ﴿وَمَا كَانَ لِمؤمنٍ وَلاَ مُؤمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللّه وَرَسُولُهُ أمراً أن يَكُونَ لَهُمْ الخِيَرَةُ مِن أَمْرِهِمْ﴾[٢]، فالمراد من الاستشارة في الآية والتي أمر اللّه تعالىٰ نبيّه بها هو المشورة في الأُمور السياسيّة والحكوميّة، حيث إنّنا نعلم بجلاء أنّ حاجة الناس بالرجوع إلىٰ الحكومة يؤدّي إلىٰ التفرّد بالرأي ومن ثمّ الاستبداد به في الغالب؛ ولذلك فإنّ الطريق الوحيد للخلاص من هذه المحنة هو الرجوع إلىٰ الشورىٰ[٣] في إدارة الحكم. فالاستشارة والشورىٰ هي استخلاص الرأي الصواب من بين الآراء المطروحة.

والحكم المبني علىٰ الشورىٰ والذي يحظىٰ بتعدّد الآراء والأفكار وكثرتها وتشارك فيه العقول البشريّة، يتمخّض بحكومة بعيدة عن الاستبداد والاستئثار بالذات، سائرة علىٰ طريق الهدىٰ والرشد، مستنيرة بأصوب الآراء وأحسن الأفكار.

وهذه الميزة لا تضفي نتائجها الإيجابية على شؤون الحكم فقط، بل إنّها مجدية في العلاقات الاجتماعية والقرارات الفرديّة الخاصّة أيضاً، وهي من صفات المؤمنين في قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَأَمرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[٤]، وفي وصية الإمام موسىٰ بن جعفر عليه السلام لهشام بن الحكم[٥] حيث قال ما مضمونه بأنّ اللّه تبارك وتعالىٰ بشّر ذوي العقل والفهم (أُولي الألباب) في كتابه بالقول : ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الّذِينَ هَدَاهُمُ اللّهُ وَأُولَئِكَ هُم أُولُو الأَلْبَابِ﴾[٦]. كما رُوي عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «ما من رجل يشاور أحداً إلاّ

(١) آل عمران ٣/١٥٩.
(٢) الأحزاب ٣٣/٣٦.
(٣) الشور والشورىٰ تعني المشورة مع الآخرين لاستطلاع رأيهم كما جاء في كتب اللغة.
(٤) الشورىٰ ٤٢/٣٨.
(٥) بحار الأنوار ١ / ١٣٢.
(٦) الزمر ٣٩/١٨.

هُدي إلىٰ الرشد»[١].

نستفيد ممّا ذكرنا أنّ الذي يسلك هذا الطريق في تمشية أُمور حياته الخاصّة، وأهمّ من ذلك: تسيير أُمور الحكم، ويتمسّك بأصل الشورىٰ والمشورة، يكون حكمه بعيداً عن الاستبداد بالرأي والاستئثار بالذات، ويعدّ من ذوي الفهم والحجىٰ، ومن عباد اللّه المخلصين الذين بشّرهم اللّه تعالىٰ وهم من المهتدين دون شك.

نعود إلىٰ بلقيس لنجدها تقول : **﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً[٢] أَمْراً حَتَّىٰ تَشْهَدُون﴾** فهي لم تستبدّ برأيها في مرحلة اتّخاذ القرار بل حتّىٰ في مرحلة التنفيذ أيضاً، وقد سلكت أفضل طريق في نظام حكمها، فلم يعلّمها أحدٌ ذلك ولم تكتسبه من تعاليم الأنبياء بل اكتسبته بفطرتها السليمة. ومن الواضح أنّ الذي يسلك الطريق الفطري ويسير علىٰ هديه يتمتّع بقيم سامية؛ لأنّ القرآن الكريم يصرّح بذلك في قوله: **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾**[٣].

وكان جواب رجال البلاط الذين استشارتهم هو : **﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾**[٤] فهم بهذا الجواب اتّخذوا موقفاً يظهرون فيه قوّتهم واستعدادهم لتبديد القلق الذي يساور الملكة؛ لأنّهم لم يحظوا بتلك الدقّة التي كانت لدى بلقيس، ولم يدركوا مغزىٰ الكرامة التي وصفت بها الرسالة الملقاة إليها، بل استشفّوا من مضمونها نوعاً من الاستعلاء والتفوّق الظاهري.

وهذا يدلّ علىٰ أنّهم لم يكونوا بمستوىٰ إدراك مغزىٰ كلام ملكتهم ودقّة نظرها وإن عُدّوا من رجال بلاطها، فهم وفقاً للأُصول المتّبعة للحكم تصوّروا أنّ

---

(١) تفسير كنز الدقائق ١١ / ٥٣٢ عن مجمع البيان ٥ / ٣٣.

(٢) القطع أي الجزم في اتّخاذ القرار والبت في الأمر. انظر تفسير الميزان ١٥ / ٥٥٧، وكنز الدقائق ٩ / ٥٥٨.

(٣) التين ٩٥/٤.

(٤) النمل ٢٧/٣٣.

كلّ من يدعوهم إلىٰ التسليم يجب الوقوف أمامه ومحاربته وإيقافه عند حدّه؛ ولذلك أشاروا في جوابهم المقتضب هذا إلىٰ مسألتين مهمّتين علىٰ المستوىٰ الحربي هما: صلابة القوّات التي تحت إمرتهم، وقوّة الاستعدادات والمهارات التي يتمتّعون بها.

وإلىٰ جانب ذلك أو كلوا الأمر إليها في اتّخاذ القرار النهائي؛ لأنّها كانت تحتلّ موقعاً فكرياً سامياً من بينهم وقالوا لها: **﴿وَالأَمْرُ إِلَيكِ**[1] **فَانْظُرِي**[2] **مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾**. هذا البيان الصريح المطعّم بالاحترام المتقابل من كلا الطرفين المسؤول والرعية التي تنضوي تحت حكمه، يعتبر رمز البقاء لكلّ نظام قوي منسجم.

وعند ذلك أفصحت بلقيس عن رأيها و **﴿قَالَتْ إِنَّ المُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾**[3].

لقد أدركت بلقيس أنّ رجال بلاطها لم يستوعبوا كرامة الرسالة التي وصفتها لهم، ليس ذلك فحسب بل إنّهم كانوا غاضبين من فحواها، معتبرين سليمان واحداً من أُولئك الملوك الذين يجب التصدّي لهم والوقوف أمامهم بقوةٍ، وكان عليها أن تخدش هذا الاستنتاج أوّلاً، ثمّ تكسب ثقتهم بطريقٍ صائب نابع من تفكير صحيح متقن؛ ولذلك نجدها تستدلّ لهم وتقول: لو اعتبرنا سليمان واحداً من الملوك التوسّعيين الذين يحاربون من أجل حطام الدنيا، فإنّ اتّخاذ قرار الحرب ضدّه والتصدّي له ليس من الحكمة؛ لأنّ الملوك عبر التاريخ لو أشعلوا نار الحرب وفتحوا أرضاً عاثوا فيها فساداً وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة. وبهذا أعربت عن رأيها المدعوم بالعقل والتأمّل والحلم والحكمة في اتّخاذ قرار صائب حصيف يُسفر عن نتائج قيّمة مثمرة.

---

(١) أي في اتّخاذ القرار النهائي.

(٢) أي فانظري في الأمر ثم افصحي عن رأيك الصائب وقولي لنا:

(٣) النمل ٢٧/٣٤.

هدايا بلقيس لسليمان

﴿وإنّي مُرسِلَةٌ إلَيهِمْ بِهَدِيّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ ﴾(١).

إنّ الهيئة الاستشارية لبلقيس كانت قد رسمت لسليمان ﷺ في ذهنها شخصيّتين متناقضتين وتعاملت معه بشكّ وريبة، فهو إمّا أن يكون ملكاً غازياً معتدياً إذا أراد أن يفتح بلداً لايتورّع عن ارتكاب أيّة جريمة من أجل الوصول إلىٰ أهدافه ومآربه. وإمّا أن يكون نبيّاً مرسلاً من قبل اللّه تبارك وتعالى، وبما أنّه اختار لفظ الجلالة في رسالته فهو يدلّ علىٰ اعتقاده بالخالق؛ ولذا فإنّه يجب أن يخضع للاختبار لكي يتسنّىٰ لهم كشف شخصيّته الواقعية، والطريق الوحيد لإجراء هذا الاختبار هو إرسال هدايا نفيسة إليه، فإذا كان من الملوك التوسّعيين فسيفرح بها عادةً ليشبع رغبته في جمع مزيد من الأموال، وقد أثبتت التجارب أنّ مثل هؤلاء الملوك ينصرفون عن الاستمرار في الحروب وفتح البلدان بهذه الطريقة ويميلون إلىٰ السلم في نهاية المطاف؛ وإذا كان رسولاً من اللّه وما عنونه في رسالته إليهم أمراً اعتقادياً، فإنّ هذه الأموال والهدايا المادية لن تثنيه عن عزمه، ويجب معرفة أُسلوبه وطريقته عن كثب دون اتّخاذ أيّ قرار عجول وغير مدروس، كما يجب اختباره من اجل الوصول إلىٰ الحقيقة.

ولا شك أنّ الحقيقة كانت جليّة واضحة لبلقيس نفسها في الرسالة، ولكنّ الذي حثّها علىٰ إرسال الهدايا هو كشف الحقيقة لشعبها وأبناء وطنها؛ لكي تكون هي سهيمة أيضاً في هدايتهم إلىٰ طريق الحقّ، كما يظهر ذلك في الآيات اللاحقة بأنّها كانت مطّلعة على موقعه ومسلّمة له.

﴿فَلَمّا جَاءَ سُلَيمَانَ قَالَ أتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتانِي اللّهُ خَيرٌ مِمّا آتاكُم بَلْ أنتُم بِهَدِيَّتِكُم تَفْرَحُونَ ﴾(٢). وصل رسول بلقيس إلىٰ سليمان وقدّم له الهدايا، وبما أنّ رسالة الأنبياء هي إنقاذ البشريّة وهدايتهم فإنّ حطام الدنيا وزينتها لايساوي شيئاً

(١) النمل ٢٧/٣٥.
(٢) النمل ٢٧/٣٦.

عندهم ولاتغرّهم الدنيا بما فيها؛ ولذلك نجد سليمان ﷺ يقول مخاطباً ومعاتباً رسول بلقيس: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ[١] فَمَا آتَانِيَ[٢] اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُم[٣] بَلْ أَنْتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾.

وسياق الآية ومضمونها يشيران بوضوح إلىٰ أنّ جواب سليمان كان ردّاً علىٰ تصوّراتهم، وقد بيّن لهم أنّ عدم العلو الذي طلبه منهم والتسليم لم يكونا من أجل التوسّع أو الاستبداد و الغلبة، بل من أجل هدايتهم وإنقاذهم من الضلال.

ثم يعقّب قائلاً: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[٤]. يريد سليمان بهذا الجواب والرسالة إلى بلقيس وقومها أن يقول: يبدو أنّكم لستم راغبين بالتسليم للحقّ، فيا أيّها الرسول ارجع إليهم واعلم أنّه ستأتيكم جنود لاقبل لكم بها. كان يريد أن يهدّدهم، ولكن ليس التهديد بالقتل بل بالإخراج من القصور وترك كل ما يُعلّق الناس بالدنيا من زينةٍ وأموال ادّخروها وغير ذلك، فيلقى باللائمة عليهم لخلودهم إلىٰ الأرض وترجيح حطام الدنيا علىٰ سلوك طريق الحقّ.

حضور بالقيس في بلاط سليمان ﷺ

وهنا يسأل سليمان ﷺ مَن حوله: ﴿يَا أَيُّها المَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾[٥].

يظهر من هذه الآية أنّ سليمان لم يقصد من خطابه السابق لرسول بلقيس إلّا التهديد، وكأنّه يعلم بأنّ بلقيس امرأة كيّسة وخبيرة وسوف تأتي بنفسها إليه لتسمع كلامه، فإن وجدته نبيّاً إلـهيّاً أسلمت له، إنّها ستأتي لتكتشف شخصية

---

(١) أي أنا في غنىً عن مالكم.

(٢) أي النبوّة وسائر النعم.

(٣) أي لعلّكم تصوّرتم أنّ ما جئتموني به هدية قيّمة، ولكنّها لا تساوي شيئاً عندي.

(٤) النمل ٢٧/٣٧.

(٥) النمل ٢٧/٣٨.

سليمان عن كثب وتعرفه أكثر من قبل. وبما أنّ سليمان استظهر فيها الذكاء والفطنة فأراد أن يستعرض القوّة التي آتاه اللّه إياها لعلّها تؤمن برسالته وتصدّقه بنبوّته؛ ولذلك أراد من رجاله أن يأتوا بعرش هذه المرأة العظيم الذي يُعتبر مظهر قوّتها ورمز حكمها.

ومن الجدير بالذكر أنّ إنساناً عالماً تقيّاً يأتي بعرش بلقيس العظيم في أقلّ من طرفة عين لسليمان، وهو شخص عنده علم من الكتاب وليس صنفاً من العلوم الفكرية والمُكتسبة المكتوبة والمتداولة في المراكز الخاصّة، ولكن الأمر الوحيد الذي يبدو مكشوفاً لدينا بهذا الخصوص هو الارتباط المباشر لصاحب هذا العلم بإرادة اللّه تعالىٰ بحيث يمكّنه أن يفعل ما يريده، أي يقول: كن فيكون. وهذه الإرادة لا تحتاج إلىٰ زمن بل هي في نفس اللحظة: **﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾**[1]، وفي هذا الزمن اليسير تتبدّل الإرادة إلىٰ الفعل، فهو يشبه الزمن الذي يقع فيه أمر اللّه وتتحقّق إرادته حيث يقول عزّ من قائل: **﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾**[2].

وواضح أنّ صاحب العلم من الكتاب هو بشر عرف حقيقة الإيمان الذي منحه قدرة التصرف وتسخير الطبيعة، فهو حصل علىٰ علم من كتاب التكوين والوجود، ولم يحصل عليه عن طريق الاكتساب والتعلّم، بل عن طريق الوصول إلىٰ القيم الإنسانيّة السامية، أي العبوديّة الخالصة للّه تبارك وتعالىٰ، وعن هذا الطريق تطابقت إرادته مع إرادة خالقه، فارتقىٰ درجة تفوق كلّ المخلوقات وتخطّىٰ علىٰ كلّ الحجب المادية في عالم الوجود.

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾[3] بعد أن جيء بالعرش بهذه السرعة الفائقة والقدرة الخارقة إلىٰ بلاط سليمان ليكون معجزة

---

(١) النمل ٢٧/٤٠.

(٢) القمر ٥٤/٥٠.

(٣) النمل ٢٧/٤١.

في حدّ ذاتها علىٰ نبوّته أمام شخصيّة تتمتّع بالدقّة والفراسة، أمر سليمان أن ينكّروا العرش بشكل يُشتبه في أمره؛ لكي يختبر مدىٰ فراسة بلقيس ودرايتها وفطنتها، وهل هي من العقل والفطنة بنحو يُعتد به أم لا؟ لأنّ سليمان ﷺ كان يريد قبل لقائها ومحاورتها أن يعلم ذلك؛ كي يعرف كيف يتصرّف معها، وهل هي مستعدّة لتقبّل الحقّ والهداية أم لا هي علىٰ عكس ذلك؟

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾[1]. لمّا أعاد سليمان الهدايا إلىٰ بلقيس، اكتشف رجال البلاط في سبأ أنّ سليمان ليس له رغبة في مال الدنيا وحطامها؛ ولذلك قررت بلقيس أن تتوجّه إليه بنفسها دون إجبار؛ ولذلك عبّر القرآن عن ذلك بالقول: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ ولم يُقل: «فلما أتوا بها». وعلىٰ الرغم من تهديد سليمان لها فقد استوعبت رسالته وتهديده بذكاء؛ ولذلك قررت الذهاب إليه بنفسها لمعرفته أكثر فأكثر والتسليم به إذا تأكّدت من نبوّته من خلال كلامه وتصرّفاته.

وعندما دخلت بلقيس علىٰ سليمان مرّوها بعرشها العظيم وهو منكّر تماماً، وسألوها: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ بنحوٍ يستشفُّ منه إن هذا العرش هو عرش يشبه عرشها، ولكن بلقيس أجابت بفطنة ودراية وذكاء خارق: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾، أي علىٰ الرغم من كلّ التنكير الظاهري الذي طرأ عليه كأنّه هو؛ لأنّها كانت تعرفه بدقّة، فهي لم تستخدمه للترف واللهو بل كان كرسيها الذي ترتكز عليه أعمدة حكمها، وكانت تأمر وتنهىٰ وتحكم منه، ولكن بالرغم من ذلك كلّه لم تسمح لنفسها أن تقول بكل يقين وقطع؛ لأنّها تعلم أن الإنسان معرّض للخطأ أو السهو، ولعلّه من الخطأ أن يحكم الإنسان بعجلة ويتكلّم دون تريّث؛ ولذلك لم تقل: هذا مثلّه؛ لأنّه أيضاً من الخطأ إذا ظهر أنّه هو بعينه، ولم تقل: هو ذا عرشي؛ لأنّ هذا الكلام أيضاً خلاف للاحتياط التي هو شرط العقل كما يصفه ذوو العقل السليم؛ ولذلك استخدمت عبارة ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ لكي تنجو من هذا الاختبار.

---

(١) النمل ٢٧/٤٢.

ثمّ تعقّب وتقول: ﴿وأُوتِينَا العِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ وبهذه الطريقة تبيّن أنّها تعلم سبب هذا الاختبار؛ ولذلك تقول ما مضمونه: إذا لم تُجرَ هذه الاختبارات ولم يحدث هذا الإعجاز[١] فإنّني كنت أعلم بحقّانية سليمان عليه السلام؛ لأنني اختبرته بتلك الهدايا وأيقنت برسالته، وقد جئت الآن مسلّمة به وبعقائده وأفكاره.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾[٢]. وهذه الآية في القرآن الكريم جاءت في مقام التأييد والدفاع عن قول بلقيس بأنّ الذي كان يصدّها وقومها عن عبادة اللّه والسجود لغيره هو الشرك العبادي، وأنّ العادات والسنن الخاطئة كانت هي المانع من ظهور الدين الإلهي وحقيقة التسليم في تلك البلاد؛ ولذلك دخلوا في زمرة الكفّار مع أنّهم كانوا يعرفون الأنبياء والدين ويتمتّعون بالوعي والعلم، ولعلّهم كانوا يتّبعون أحد الأنبياء الإلهيين ولكن بتعاقب الزمن اغبرّت تلك العقائد بغبار الشرك.

كما أنّ القرآن الكريم في هذه الآية يريد الدفاع عن هذه المرأة؛ لكي يطرد أيّ شبهة قد تخطر على بال من يقرأ هذه القصّة، ويظنّ بأنّ بلقيس ادّعت ادّعاءً كاذباً؛ لأنّها كيف كانت تسلم لرب العالمين وهي تسجد للشمس؟ أجل، إنّها كانت مسلمة لله وهي صادقة في قولها، ولكن كانت مضطرّة إلى مماشاتهم في كفرهم في الظاهر وفي أنظار الرأي العامّ[٣].

إقرار بلقيس وتسليمها

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ

---

(١) المعجزة هي لمن لم يدرك ويستوعب كلام النبي، ولكن العالم الذي يشخّص الحقّ من الباطل والخطأ من الصواب لايحتاج إلى معجزة.

(٢) النمل ٢٧/٤٣.

(٣) تفسير الميزان ١٥ / ٥٦٩.

العَالَمِينَ ﴾[١].

وهكذا تعود بلقيس إلىٰ فطرتها وتمزّق حجب الكفر بشكل منطقي و تفضّل الإيمان والهداية علىٰ المظاهر الماديّة والطبيعية، فعندما دخلت القصر ورأته **﴿مُمَرَّدٌ مِن قَوَارِيرَ ﴾**[٢] وهو من مظاهر القدرة الربّانيّة التي آتاها نبيّه، قالت بعيداً عن كلّ غرور وكبر واعترفت بكل صفاء: **﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾**. وهي في الحقيقة عندما رأت هذا المظهر المادي الجميل اكتشفت جمالاً أسمىٰ وأتمّ، ألا وهو الجمال والكمال الإلـهي ولم تتمنّ حيازة هذه المظاهر فحسب، بل لم يدُر في خلدها أن تملّك قصراً مثله ولم تتمنّاه، واجتازت كلّ هذه الحجب ونظرت فيما هي عليه من سرّها وسريرتها، فوجدت نفسها عاجزة حقيرة أمام هذه العظمة، فتوصّلت إلىٰ عظمة اللّه وقدرته وانتابها الخجل من ذنبها وكفرها، وآل ذلك بها إلىٰ شموخ في الطبع يرتقي بها إلىٰ درجة شموخ الأنبياء، فقالت كلمات قالها آدم أبو البشر في أوّل يوم كُشفت له فيه الحقائق، وهي كلمات يردّدها الخلصاء من أعماقهم عندما تتجلّىٰ لهم الحقيقة: **﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾**[٣].

لقد ردّدت هذه المرأة كلمات ما أجملها عندما التقت بنبي اللّه وكلمة الحقّ ورأت مظهراً من عظمته، ردّدت هذه الكلمات التي هي بمستوى كلام المتّقين والعليين، وهم عقل محض: «ما العقل؟ قال ﷺ: ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان»[٤]، وما العقل إلّا الإقرار بالذنب وظلم النفس وصغر منزلتها، وهو ما أقرّت به بلقيس وكانت عقلاً محضاً في تلك الحال إذ قالت: **﴿أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾**، وبهذه الكلمات السامية الجميلة تخاطب ربّها وتسلم له مع سليمان ﷺ، كما أسلم السحرة عندما رأوا معجزة موسىٰ ووجدوها تختلف عن

(١) النمل ٢٧/٤٤.
(٢) أي مُملّس من الزجاج.
(٣) الأنبياء ٢١ / ٨٧.
(٤) بحار الأنوار ١ / ١١٦.

السحر ورموزه فقالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارونَ وَمُوسَىٰ﴾[١] وقد تجلّىٰ لهم الحقّ في موسى وهارون عليهما السلام، وبلقيس تجلّىٰ لها مظهر من مظاهر الربوبيّة في قلبها ولم تقل: ربّ سليمان، بل قالت: ﴿رَبِّ العَالَمِينَ﴾، واعتبرت سليمان رسولاً ووسيطاً ليس إلّا وهو أيضاً مسلم لله، وليس هناك فرق بين الداعي والمدعو، وهذا النبي أيضاً يجب ألّا يتمّنى العلو، بل كلاهما عبدان للّه ويجب أن يُسلما له.

من هنا يظهر أنّ هذا التسليم ليس باللسان فقط، ولا ينطبق علىٰ ما جاء في الآية الكريمة: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[٢]؛ لأنّ تسليمها كان نابعاً من القلب؛ ولأنّها اجتازت كلّ مراتب الإيمان والإسلام ووصلت إلىٰ آخر مرتبة من الإيمان ألا وهي التسليم المحض، وقد طوت في ليلة واحدة طريقاً يطويه الآخرون في مئة سنة[٣]، واجتازت في آنٍ واحد طريق السالكين، واحتلّت موقعاً تمنّاه يوسف عليه السلام وسأل اللّـه ذلك حيث قال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[٤]، أو وصلت إلىٰ ما أوصىٰ به إبراهيم ويعقوب بنيهم قُبيل موتهما حيث قالا: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[٥]، والدعاء الذي دعا به إبراهيم لنفسه ولابنه إسماعيل حيث قال: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَينِ لَكَ﴾[٦]، فإبراهيم عليه السلام علىٰ الرغم من طيّه لمراتب كثيرة ونيله لمقام أُولي العزم من الرسل يسأل اللّه تعالىٰ أن يجعله من المسلمين، وممّا لاشكّ فيه أنّه ليس المراد به الإسلام (التسليم) الظاهري اللفظي الذي وُصف به الأعراب.

وبلقيس أيضاً تقول: ﴿أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾، وإذا أمعنّا النظر في قول هذه المرأة وفي اعترافها بذنبها وحُسن توبتها سلّمنا بحقّانيّة قولها

(١) طه ٢٠/٧٠.
(٢) الحجرات ٤٩/١٤.
(٣) من الأمثال الفارسيّة.
(٤) يوسف ١٢/١٠١.
(٥) البقرة ٢/١٣٢.
(٦) البقرة ٢/١٢٨.

المعبّر عن شجاعتها وتقواها، وأنّها شعرت بـالذلّة والمسكـنة أمـام ذات اللّـه وقدسه، وعند ذلك أقرّت بظلمها لنفسها وأصبحت من المهتدين.

وما أحلىٰ هذه التوبة المثيرة للدهشة والعبرة معاً، وهي ممّا يفرح بـها الربّ جلّ وعلا، أكثر من فرحة جمّال وجد ناقته ومتاعه في ليلٍ دامس بعد فقدهما في صحراءٍ مقفرة(١).

إنّ عظمة بلقيس وشأنها لايمكن وصفه وما نقلناه لم ينتهِ، وهـو ليس كـلّ الحقيقة ولا جزءاً كاملاً منها؛ لأن استيعاب هـذه الشـخصية وإدراك مـنزلتها يحتاج إلىٰ دقّة كدقّة بلقيس وذكائها.

وعلى الرغم من ذلك نستنتج ممّا قلنا وباختصار: أنّ استيلاء بلقيس عـلى حكومة سبأ لم يكن من باب الصـدفة أو قـضاءً وقـدراً ولا مـثيراً للـعجب ولا مستبعداً عنها، بل العكس كان أمراً محسوباً قد وقع في محلّه؛ وبناءً علىٰ هـذا يتّضح أن رأي بعض العلماء والمختصّين بعدم انسجام روح المرأة وجسمها مع ظروف الحكم والقيادة هو رأي قابل للنقد والردّ والتمحيص.

فبشأن عدم انسجام جسم المرأة مع ظروف الحكم، إذا كان المراد الحكومات الحالية والخارجة عن حكم الإسلام، فإنّ مسؤولية رئيس الحكـومة فـي هـذه البلدان تتحدّد في إطار الإشراف واتّـخاذ القـرار فـقط، وهـذا الأمـر لايـتنافىٰ ولايخرج عن قدرة المرأة الجسمية؛ لأن الحاكم أيّاً كان لايتدخّل بصورة مباشرة في القضايا التنفيذية وإنّما يتولّىٰ مهمة التنسيق فقط، وإن لم يكن كذلك فكيف يقضي رؤساء الدول أيّاماً طويلة في سفرات ترفيهية أو غير ذلك ولا يـطرأ أي خلل على مسؤولياتهم في تلك الفترات؟ في حين أنّ كفاءة المسؤولين وعدمها أو رضا الناس وعدمه عن الحكومات قد يؤدي إلىٰ الاضطرابات والخلل في فترة

---

(١) الكافي ٤، الحديث ٨ ، وفيه: عن الباقر عليه‌السلام: إنّ اللّه يفرح لتوبة عبده أكثر من فرح رجل فقد ناقته ومتاعه في ليلٍ مظلم في الصحراء ثم وجدهما. فالله يفرح لتوبة عبده أكثر من فرح ذلك الرجل عندما يجد ناقته ومتاعه.

غيبتهم عن الحكم.

وإذا قلنا بأنّ مدّة الحمل عند النساء تعتبر عقبة جسمية للحكم فهذا مردود أيضاً؛ لأنّ الحمل يخضع للبرمجة وبالإمكان السيطرة عليه بسهولة، وكذلك يمكن وضع شروط سنّية وغيرها لمن تريد التصدّي لهذه المسؤولية، خاصّة أنّ تحديد النسل وتنظيم الأُسرة من القضايا المتداولة في عالمنا المعاصر، ولو حصل الحمل علىٰ الرغم من كلّ التدابير المذكورة فإنّ غيبة المرأة تعتبر إجازة مرضيّة وعلاجية، كما يتعرّض أيّ قائد أو حاكم لمرض طارئ.

وإذا كان المقصود من الحكم هو الحكومات الإسلامية الخاضعة لسيطرة وإشراف الولي الفقيه، فإنّ معرفة العلوم الإسلامية والتفقّه والاجتهاد ومن ثَمّ الإشراف واتّخاذ القرار لا يمنع جسم المرأة من الوصول إليها، ولا يُلحظ أيّ عدم انسجام بينهما.

إذن لا يحتاج التصدّي لرئاسة الحكومة سواء كانت إسلامية أو غيرها إلّا إلىٰ معرفة مجموعة من الفنون والعلوم والمعادلات السياسية الخاصّة، وكلّ هذه الأُمور لا تتطلب خصوصيات بدنيّة معينة لا تنسجم مع جسم المرأة وشكلها، ولولا هذا لم يسمح أحد للكهول من الرجال بالتصدّي لمسؤولية حكوميّة سواء كانت إسلاميّة أو غير إسلاميّة، ولكننا نجد كثيراً من الرجال الطاعنين في السن قد تصدّوا للحكم، ولم يحكموا إلّا مدّة وجيزة ووافاهم الأجل حين تصدّيهم.

ومع ذلك فإنّنا لا نشاهد تعارضاً منطقياً بين الحكم والروح النسوية، فلو أمعنا النظر في الآيات التي تتعرّض للصفات الحميدة والأمانة والتقوىٰ والإيمان في الإنسان، وكذلك لو تفحّصنا الآيات التي تشير إلىٰ خلق الإنسان والفروق والمشتركات بين المرأة والرجل وما يميّزهما لوجدنا أنّه لا توجد أيّة فروق في المسائل المعنوية و القوىٰ العقلية والفهم والدراية والإيمان والتقوىٰ بين الصنفين.

هذا ما يخصّ المجتمعات التي تخضع للحكم الإسلامي فضلاً عن

الحكومات الأُخرىٰ التي لا يشكل الحكم فيها إلّا معرفة مجموعة من العلاقات والمداهنات ونوعاً من التضليل والتآمر ليس إلّا.

كما أنّ دراسة العلوم السياسية في الجامعات لا يعتبر أمراً صعباً يتنافى مع روح المرأة وفهمها ودرايتها؛ حيث يمكن إحصاء نماذج بارزة ـ علىٰ طول التاريخ حتىٰ عصرنا الحالي ـ من النساء اللاتي مارسن الحكم و كان لهن منهج سياسي خاص ـ وإن كان فيه انحراف ـ وكنّ موفّقات في الطريق الذي اخترن ومؤمنات بصحّته في قرارة أنفسهن. ومن هذه النماذج: انديرا غاندي في عصرنا الحاضر، وأُم شاپور الثاني أحد الملوك الساسانيين حيث حكمت فارس لمدّة ستة عشر عاماً منذ حملها بشاپور حتىٰ بلوغه السن القانونية، وأنقذت البلاد من الأزمة التي أحاطت بها.

وتجدر الإشارة هنا إلىٰ القول القيم للمرحوم آية اللّه الميرزا محمّد حسن الشيرازي[1]: «الرئاسة (المرجعية) تحتاج إلىٰ مئة جزء: الأول العلم، والثاني العدالة، وثمانية وتسعين جزءاً منها الإدارة والتدبير»[2]. وقال أيضاً آية الله السيد محمّد الشيرازي في كتابه: «إنّ الإدارة كلّها اكتسابية منذ بدايتها وحتىٰ مراحل رشدها، ولكن اكتسابها يحتاج إلىٰ جدّية وسعي ومثابرة كثيرة وممارسة مستمرّة، ولولا ذلك لتوقّفت في مراحلها الابتدائية»[3]، وهذا الأمر الاكتسابي يحصل عليه من يمارسه أكثر، ولا ميزة في اكتسابه لنوع من البشر دون آخر؛ لأنّه ليس أمراً ذاتياً أو جبلّة تولد مع فئة وتُحرم منها فئة أُخرى، وبناءً عليه فالعائق الوحيد الذي حال دون تصدّي النساء للإدارة هو تقسيم الوظائف والأعمال، وبحث هذا الموضوع وبيانه يحتاج إلىٰ رسالة كاملة مستقلّة سوف تُدوّن إن شاء اللّه في القريب العاجل.

---

(١) صاحب فتوىٰ التنباك.

(٢) نقش مديريت در پيشرفت ملتها/ ١٥.

(٣) نقش مديريت در پيشرفت ملتها/ ١٩.

الفصل الثاني

المرأة ونزول الرحمة والبركات الإلـٰهية

المرأة ونزول الرحمة والبركات الإلـٰهية

منذ أن أقسم إبليس علىٰ إغواء بني آدم، شدّ العـزم عـلىٰ إخـفاء الحـقائق وإظهار الباطل بمظهر الحقّ، وسعىٰ أبناء قابيل ومن تتبّع نهجه وعـلىٰ امـتداد التاريخ البشري فوق الكرة الأرضية لأن يستروا الحقائق بنقاب الباطل ظانّين أن إخفاءها يحول دون انتشار نورها؛ لكيلا تقرّ بها العيون.

وهذا الإخفاء يأخذ تارةً طابعاً علنياً يصحبه العداء الظـاهري، وتـارةً يكـون بطريقة سريّة ومكرٍ خاصّ لا يكتشفه إلّا المتّقون الذين جعل اللّه لهم فرقاناً[1].

وإذا تصفّحنا ماضي البشريّة نجد رجالاً ونساءً عظّمهم التاريخ؛ لأنّهم نذروا أنفسهم لإظهار الحقّ، ولكـنّ ضـباب الأكـاذيب، أسـدل سـتاراً عـلىٰ صـدقهم وحقيقتهم وأخفاهما إلىٰ أمدٍ طويل.

هذا من جهة، ومن جهة أُخرىٰ فقد جرت سنّة اللّه علىٰ أن تـنجلي الغـبرة وتندحر مؤامرات المتآمرين والكائدين في نهاية الأمر، وتتجلّىٰ الحـقيقة كـلّها ويسطع نور الحقّ: **﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِم، وَاللّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَـوْ كَـرِهَ الكَافِرُونَ﴾**[2]؛ ولذلك فإنّ حقائق القرآن الكريم ساطعة مشرقة تزيل كلّ إبـهام وتشكيك، وتدمغ كلّ أنواع الباطل وأعداء الحقّ.

---

(١) الفرقان هو تمييز الحقّ من الباطل.

(٢) الصف ٦١/٨.

وقصة سارة زوجة النبي إبراهيم ﷺ واحدة من القصص القرآنية التي استُعرضت بكل جمال في سورتي: هود والذاريات. وسارة شخصية نسوية فذّة ذات مقام شامخ رافقت النبي إبراهيم طول رسالته وكانت له عوناً وزوجة. وقد تحدّث القرآن الكريم عنها ووصفها بأنّها كانت شاهدة على حضور الملائكة عند إبراهيم وحوارهم معه، وكان لها حديث معهم؛ ممّا يدلّ على اطّلاعها على أُمور غير عادية. وسوف نتعرّض لقصّتها في سورة هود.

الملائكة تبشّر إبراهيم

قال اللّه تبارك وتعالى : **﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إبْراهِيمَ بِالبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمّا رَأىٰ أيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إنّا أُرْسِلْنَا إلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشّرْنَاهَا بِإسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيلَتَى أألِدُ وَأنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إنّ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أتَعْجَبِينَ مِنْ أمْرِ اللّهِ رَحْمَةُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أهْلَ البَيْتِ إنّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾**[١].

نزل الملائكة علىٰ إبراهيم ــولم يرد في الأخبار عددهم وهو من الأسرار الإلهية ــ لأمرين، الأول: بشارة إبراهيم، والثاني: عذاب قوم لوط، فلم يعرفهم بادئ الأمر، وعندما امتنعوا عن الطعام أنكرهم في نفسه وخاف منهم، أمّا لماذا خاف منهم؟ وهل اعتبر عدم تناولهم للطعام نوعاً من العداء أو أمراً آخر؟ فهذا ممّا لا نريد الغور فيه.

وعلىٰ أيّة حال شعر من امتناعهم عن الأكل أنّهم أشخاص غامضون غير عاديين يجب الحذر منهم، وعندما رأى الضيوف ردود فعل إبراهيم ﷺ كشفوا عن هويتهم والمهمّة التي جاؤوا من أجلها، وكانت زوجة إبراهيم ﷺ حاضرة في المجلس واستمعت إلىٰ حوارهم، وسيطر عليها الخوف والهلع عندما سمعت نبأ

(١) هود ١١/٦٩-٧٣.

العذاب الذي سيحلّ بقوم لوط؛ لأنّها كانت علىٰ علم بالأوامر الالهية، وسماع هذا النبأ كان له وقع خاصّ في نفسها وهـزّة نـفسيّة أدّت بـها إلىٰ أن تـحيض[1]: ﴿فَضَحِكَتْ﴾ وعند ذلك بشّرها الملائكة بإنجابها لولد سُمّي إسحاق سيكون له ولد يُسمّىٰ يعقوب. وهذه البشارة لامرأة عجوز زوجها شيخ كبير أثارت دهشتها؛ ممّا أدّىٰ بها إلىٰ استبعاد ذلك والتـعجب مـنه قـائلة لهـم: ﴿أَأَلِدُ وَأَنَـا عَـجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً﴾.

جواب الملائكة على تعجّب سارة

وكان للملائكة جواب لسارة بعث فيها الاعتماد علىٰ نفسها.

إنّ هذه العبارات القرآنية الجميلة والكلام الإلهي الرفيع الحاكـي عـن تـلك اللحظات التاريخية المصيرية الحساسة، لها دلالات خاصّة تعبّر عن شأن تلك المرأة وشخصيّتها الفذّة وهي تلازم أحد أنبياء أُولي العزم ممّن كان يحمل رسالة لكلّ البشرية، وهو المؤسس للديانة الحنيفية التوحيدية الخالدة حتىٰ النهاية.

ودلالات العبارات القرآنية كالآتي:

١ ـ في البداية يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْراهِـيمَ بِـالبُشْرىٰ﴾ ولم يصرّح بنوع البشارة، إلّا أنّ القرينة في وسط الآيـة نـفسها: ﴿فَـبَشَّرْنَاهَا﴾ وكذلك في آية: ﴿فَلَمّا ذَهَبَ عَنْ إبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ البُشْـرَىٰ﴾[2] تظهر أنّه عبّر عن بشارة سارة ببشارة إبراهيم بولده إسحاق، والذي يؤيّد هذا الرأي ما ورد في سورتي الحجر والذاريات: ﴿نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾[3] و ﴿بَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَـلِيمٍ﴾[4] وهكذا يفصح القرآن الكريم عن نوع البشارة لإبراهيم.

والأمر الذي نريد أنّ نسلط الضوء عليه هنا هو: علىٰ الرغم مـن أنّ الآيـات

(١) تفسير الميزان ١٠ / ٤٩١، وبعض التفاسير استبعدت أنّ «ضحكت» بمعنى حاضت.
(٢) هود ١١ / ٧٤.
(٣) الحجر ٥٣/١٥.
(٤) الذاريات ٢٨/٥١.

الواردة في سورة هود تصرّح بالبشرىٰ لسارة امرأة إبراهيم: ﴿**فَبَشَّرْنَاهَا**﴾ إلّا أن الانسجام الذي يحكي عنه القرآن بين هذا الزوجين إلىٰ حدٍّ يعتبر بشارة زوجته بشارة له، سواء في أول آية: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْراهِيمَ بِالبُشْرَىٰ**﴾[1]، أو في نهاية آية: ﴿**فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ البُشْرَىٰ**﴾[2] حيث نسبت البشارة لابراهيم عليه السلام، أوْ في وسط آية: ﴿**فَبَشّرناها**﴾[3] الذي ينسبها إلى زوجته، وهذا ينمّ عن منزلة هذه المرأة وشأنها عند اللّه تعالى.

٢ ـ حضور سارة امرأة إبراهيم ـ﴿**وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ**﴾ ـ في اجتماعه مع رجال منكرون والسماح لها بالتحدّث إليهم بالرغم مما كانت تتمتّع به من عفّة وتقوىٰ يدلّ على قوّة شخصية هذه المرأة وثقة إبراهيم عليه السلام بها.

كما أنّ إبراهيم في موقعه الرائد لم يسمح لنفسه بأن يجعل زوجته التي تلازمه بعيدة عن الأحداث التي يخوضها، بل العكس أرادها أن تكون في قلب الأحداث وأمينة لسرّه.

وتعبير القرآن الكريم: ﴿**وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ**﴾ يثير الانتباه؛ لأنّ القرآن ليس كتاباً أُسطورياً ولا قصصياً يريد سرد الأحداث وجزئيات الأُمور دون حكمة وقصد، فتعبير ﴿**قَائِمَةٌ**﴾ يدلّ علىٰ حضور سارة مع إبراهيم على الصعيد الاجتماعي، ولا يجوز لنا أن نفسّر كلمة ﴿**قَائِمَةٌ**﴾ بالوقوف علىٰ الرجلين، فإنّ هذا التفسير يشير إلىٰ جانب واحد من الحقيقة، وهو نظرة ضيّقة تتنافى وأُسلوب القرآن، كما أنّه لا ينتج منها أيّة ثمرة عملية[4].

٣ ـ بالرغم من أنّ سِياق الآيات في قصّة إبراهيم ـوخاصّة في حديث إبراهيم وزوجته مع الملائكة ـ يعتمد علىٰ النقل الغيابي والسردي للأحداث، إلّا أنّ تغيير هذا السياق بشكل مفاجئ من كلام الملائكة المرسلين إلىٰ كلام اللّه جلّ وعلا

---

(١) هود ١١/٦٩.

(٢) هود ١١/٧٤.

(٣) هود ١١/٧١.

(٤) بما أنّ الآية. ﴿**قُمْ فَأَنذِرْ**﴾ في المدثر ٧٤/٢ وآية· ﴿**أَنْ تَقُومُوا لِلّهِ**﴾ في سبأ ٣٤/٤٦ ليس المقصود منهما الوقوف على الرجلين، فإن تعبير القرآن عن سارة· ﴿**وامْرَأَتُهُ واقفةٌ**﴾ لايدل على ذلك أيضاً.

في تعبيره: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا﴾ ـاي اللّه تعالىٰ ـ يستحقّ التأمّل والدقّة والتدبّر أكثر فأكثر.

٤ ـ أثارت بشارة الملائكة لزوجة إبراهيم العجبَ في نفسها بشدّة؛ لأنّ الإنجاب ليس معهوداً ولا متعارفاً في هذه السنّ بعد أن يأسا تماماً منه منذ مدّة طويلة، ولم يكن تعجبها من أمر اللّه سبحانه فهي واقفة وعالمة بقدرته اللامحدودة؛ ولذلك نجدها تقول: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيءٌ عَجِيبٌ﴾؛ لأنّ الإنجاب في هذه السنّ مع عجزها وشيخوخة بعلها أمر مثير للعجب وغير متوقّع. كما أنّ تعبيرها: ﴿يا وَيلَتَىٰ﴾ لعلّه يدلّ علىٰ الخجل والإحراج أمام الآخرين لإنجابها في هذا العمر، وهو أمر قد يكون غير مستساغ اجتماعياً.

وتستعرض آية أُخرى هذا التعجّب بشكل آخر حيث جاء فيها: ﴿فَأَقبَلَتِ امْرأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾[1]. ﴿فِي صَرَّةٍ﴾ قيل: في صيحة من الصرير. ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي: لطمت جبهتها أو وجهها فعل المتعجب من الحياء أو الخجل[2]، وقالت: كيف ألد وأنا عجوز عاقر؟!

وهذا التعجب كما يظهر لا ينمّ عن استبعادها لقدرة اللّه تبارك وتعالىٰ؛ لأنّ علمها بقدرته وإحاطته بجميع الكون والكائنات قد امتزج مع ذرّات وجودها ولامس روحها وقلبها، ولكن الذي أثار تعجّبها هو اجتيازها لمراحل الإنجاب والحمل، ولعلّ الإنجاب في أيّام العجز والشيخوخة يعتبر أمراً قبيحاً غير مستساغ عند البشر، وخاصّة كونها هي وزوجها يحتلّان موقعاً اجتماعياً رفيعاً، فهما من بيت النبوّة ويتصدّون لقيادة المجتمع.

نزول رحمة اللّه علىٰ أهل البيت

٥ ـ أمّا جواب الملائكة لسارة فقد كان بدرجة من الدقّة بحيث يعجز عن

---

(١) والذاريات ٥١/٢٩.

(٢) تفسير كنز الدقائق ١٢ / ٤٢٣.

إدراكه الآدميون، ففيه نوع من الاستفهام التنبيهي[١] ـ ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ ـ المبدّد للتعجّب والتشكيك الّذي طرحته، وخاصّة استخدامهم عبارة: ﴿أَمْرِ اللَّهِ﴾ حيث إنّ أمره كن فيكون، إذن لا داعي للتعجّب.

وبعد ذلك يشير الملائكة إلىٰ موقع أهل البيت ومنزلتهم عند اللّه، وأنّ رحمته وبركاته نازلة عليكم دائماً يا أهل بيتٍ تسلسلت فيكم النبوّة وأصبحتم موضع الرسالة، وأنّ اللّه حميد مجيد؛ لأنّ ذلك يستوجب حمد العباد لله على نعمته واللّه تعالىٰ أهلٌ للحمد والمجد.

وقد قال الملائكة أيضاً: ﴿قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾[٢]، فالإشارة إلىٰ صفتي الحكمة والعلم الإلهي إشارةٌ إلىٰ لطف اللّه وإرادته لكي يعلموا أنّ الإنجاب في هذه الظروف وإن كان غير مستساغ اجتماعياً إلّا أنّ الحكمة الإلـهية وعلم اللّه بالأُمور يستبطن مصلحة أكبر ويبدّد كلّ صنوف التعجّب و الاستغراب.

واستخدام صيغة الجمع في القرآن الكريم لهذا النبي المقرّب وزوجته المكرّمة سارة، ومخاطبته بأنّهم هم أهل البيت الذي شملتهم الرحمة والبركات الإلـهية وتخصيص الخطاب بهما، وأنّهما مبدأ هذه السلسلة النبوية المباركة، يزيل كلّ الشكوك والشوائب التي ينسبها الأعداء لهذه المرأة المكرمة ونشأتها وتربيتها وعفّتها.

أولاد إبراهيم الصالحون

تجدر الإشارة إلىٰ ملاحظة جميلة أُخرىٰ في حياة إبراهيم، وهي تعدّد بشاراته، ففي سورة الصافات[٣] نواجه بشارة أُخرى لإبراهيم غير الذي ذكرناها

---

(١) معنى الاستفهام هنا هو التنبيه. انظر مجمع البيان المجلد ٣، الجزء ٥ / ١٨٠.

(٢) الذاريات ٥١/ ٣٠.

(٣) الصافات ٣٧/ ٩٩ـ١١٣.

آنفاً، حيث جاء في هذه السورة: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[١] ممّا يظهر أنّ إبراهيم كان عازماً على الهجرة والسفر للتجرّد للعبادة على هدىٰ اللّه.

ومع الأخذ بنظر الاعتبار ما جاء في سورة إبراهيم عليه السلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾[٢] يظهر أنّ إبراهيم عليه السلام كان قد بلغ من العمر سن الكبر ولم يُرزق ولد يرافقه في حياته ويسير على دربه في المستقبل؛ ولذلك رفع يديه بالدعاء متضرّعاً إلىٰ اللّه بالقول: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٣]، ويقصد منها قرينة البشارة التي جاءته ـ ولداً صالحاً ـ استناداً إلى من صلبه، وعندئذٍ تأتي البشارة بالغلام الحليم، وهو من وضع مع أبيه قواعد بيت اللّه الحرام. ويبدو من القرائن أنّ اسمه كان «إسماعيل».

وبعد آيات قليلة من السورة نفسها[٤] يتلقّىٰ إبراهيم بشارةً أُخرىٰ بولد اسمه «إسحاق» وهو من الصالحين أيضاً.

والإشارة الأُولىٰ تتصدّرها فاء التفريع الدّالة على قرب موعد استجابة دعاء إبراهيم، والثانية خالية من ذلك وليست فيها دلالة علىٰ قرب أو بعد موعد تحقّقها، إلّا أنّ هناك قرينة أُخرىٰ ملحوظة في جميع الآيات التي وردت عن أولاد إبراهيم، وهي ذكر إسحاق بعد إسماعيل، وهذا يدلّ علىٰ أنّ ولادة إسحاق كانت بعد ولادة أخيه، وتؤيّده الروايات الواردة في هذا الخصوص.

العلاقة بين الزوجات

إنّ إنجاب الولد الأول في حدّ ذاته يعتبر علامة على استعداد الأُمّ لإنجاب المولود الثاني؛ ولذلك فإنّ تلقّي البشارة بالمولود الثاني بصورة مفاجئة واستغراب إبراهيم عليه السلام وزوجته ودهشتهما يدلّ علىٰ أنّ إبراهيم عليه السلام كان له

---

(١) الصافات ٣٧/٩٩.
(٢) إبراهيم ١٤/٣٩.
(٣) الصافات ٣٧/١٠٠.
(٤) الصافات ٣٧/١١٢.

زوجتان، وعلىٰ أنّه بقي حتىٰ سن الكبر دون أولاد بالرغم من الزواج الثاني، إمّا لعقم كلا الزوجتين أو عجزه هو عن الإنجاب؛ ولذلك فإنّ تصوّر حالة الحسد بين الزوجتين لا نجد له مبرراً في هذه الأُسرة، لاسيما وأنّ القرآن الكريم يولي اهتماماً خاصاً ببيوت الوحي، ويميط اللثام عن أي تخلّف لأيّ عضو لم يهتدِ بهديهم؛ ولذلك فإن السكوت وعدم المساس بهذه الأُسرة يُعتبر في حد ذاته مؤيّداً لما ذكرناه آنفاً.

فالقرآن الكريم أشار بشكل واضح وعلني إلى خيانة زوجة نوح وتخلّف ولده، وكذلك امرأة لوط وحسد أولاد يعقوب ليوسف بحيث لم يبق أي شك في صراحة القرآن ورصده لكلّ خلل وعيب. في الوقت الذي لم نلحظ فيه أية إشارة أو قرينة بشكل صريح أو مضمر[1] لحضور الزوجة الثانية، وأنّها كانت عرضة لحسد الزوجة الأُولىٰ، وأنّ هجرتها وإسكانها بوادٍ غير ذي زرع في مكة جاء نتيجة ذلك الحسد[2].

ومن جانب آخر فإنّ شمول الرحمة الإلهية لأهل بيت إبراهيم عليه السلام يتعارض مع احتمال وجود الحسد بين زوجاته؛ إذ استناداً إلى آية: **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَحمَتِي﴾**[3]، ورواية الإمام الصادق عليه السلام: «أساس الكفر ثلاث: الحرص والكبر والحسد»[4] نستنتج أنّ الحسد يورث الكفر، والكافر يائس من رحمة اللّه، إذن لو كانت زوجة إبراهيم حسودةً لما شملتها وزوجها الرحمة الإلهية علىٰ حد سواء.

وهنا ننهي هذا الموضوع الذي تناولناه بشيء من الاختصار علىٰ أمل أن

---

(١) لعل إبراهيم عليه السلام كان يقصد من كلمة **﴿ذُرِّيتِي﴾** ـ في الآية ٣٧ من سورة إبراهيم: **﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسكَنتُ مِن ذُرِّيَتِي بِوَادٍ غَيرِ ذِي زَرعٍ﴾** ـ زوجته أيضاً، ولكن المعلوم من الذرية هم الأولاد كما قال الراغب في مفرداته: الأصل في الذرية الأولاد الصغار وإن كان يُطلق على الصغار والكبار نادراً. انظر مفردات ألفاظ القرآن / ١٧٨.

(٢) عدم إشارة القرآن إلى هاجر لعله يكمن في حضورها العيني والتاريخي بشكل واضح، واتفاق جميع الأديان بعد إبراهيم عليه السلام علىٰ ذلك، ودفنها في المسجد الحرام، وتقليد كلّ حركاتها وتصرّفاتها في أعمال الحج، يدلّ على حضورها في قصة إبراهيم عليه السلام وخلودها.

(٣) العنكبوت ٢٩/٢٣.

(٤) الذنوب الكبيرة ٢ / ٢٩٨ نقلاً عن وسائل الشيعة، الباب ٥٤، كتاب الجهاد.

نكون قد وُفّقنا في تنزيه ساحة هذه المرأة القدسية.

الفصل الثالث

المرأة والخيانة

المرأة والخيانة

خُلق الإنسان ذا إرادة واستقلال، وليس بوسع أحد أياً كان أن يـغيّر إرادتـه أو يثنيه عن عزمه إلّا اللّه القادر على كلّ شيء. وإذا ما سلك طريقاً اعتقده صحيحاً و انتهجه في تفكيره فلا أحد يتمكّن من صدّه عمّا انتهجه، ولا المجتمع قـادر على التأثير فيه، إلّا أن يساوره الشكّ ويـصيبه التـرديد، وعـند ذلك يـمكن أن تتغلغل أفكار أُخرى فيه وتغيّره.

هذه الحقيقة مشتركة لدى كلّ البشر منذ أن سكنوا الكرة الأرضية، ولا فرق بين الجنسين في الاستقلال الذاتي؛ ولذلك نجد القرآن الكريم يحمّل كلّ نفس عملها في قوله عزّ من قائل : **﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾**[١] سواء كان شراً أو خيراً، فكلّ إنسان مسؤول عن عمله: **﴿لَها مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾**[٢]. وعلى هذا الأساس فأي ذريعة أو عذر لا تُقبل من الكفار يوم الحساب: **﴿يَا أَيُّـها الّـذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا اليَومَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**[٣].

وكما أنّ الإنسان مستقلّ في اختيار حياة ملتوية منحرفة، فهو مستقلّ أيضاً

---

(١) المدّثر ٣٨/٧٤.

(٢) البقرة ٢٨٦/٢.

(٣) التحريم ٧/٦٦.

في اختيار الخير وانتهاج طريق البر دون الاتّكال على الآخرين سواء كان رجلاً أو أنثى. يقول تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾[١]، فالرجال والنساء خلقوا على حدّ سواء من حيث الاستقلال النفسي دون أيّ تعلّق في إرادة شخص بآخر من الكرامات والخبائث النفسية، وكلّ منهم مستقلّ في اتّخاذ القرار وفي العمل، فكما أن امرأة كآسية عاشت في بؤرة الباطل وكانت زوجة لفرعون الطاغية إلّا أنّها لمست الحقيقة وتمسّكت بها، ففي مقابلها امرأة لوط التي عاشت في بيت النبوّة ومركز الصلاح والخير إلّا أنها خانت وعاشت بدناءة دون أن يجبرها أحد على ذلك أو يحول دون عودتها إلى الصواب.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هاتين المرأتين لتكونا مثالين بارزين على استقلال الإرادة الإنسانية وعدم التأثّر بالبيئة والمجتمع، سواء كانت البيئة بيئة حق أو باطل حيث قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾[٢].

والقرآن الكريم ضرب هذين المثالين للكفر رجلاً كان أو امرأة لتثبيت الحقائق الآتية:

أولاً : إنّ الحضور الظاهري والعيش في مركز النبوّة الإلهية وبيت النبوّة بالذات دون أن يصحبه اعتقاد وإيمان قلبي لا يشفع لأيّ كان من عذاب اللّه.

ثانياً : إنّ الذي يختاره الإنسان لنفسه ويعقد الإيمان به هو الذي يجرّه إلى النار أو يُدخله الجنّة.

ثالثاً : لا فرق بقدر أُنملة بين الرجل والمرأة في التمسّك بالعقيدة وتثبيت الإرادة وتحكيم العقل.

---

(١) النساء ٤/ ٣٢.

(٢) التحريم ٦٦/ ١٠. جاء في تفسير الميزان أنّ استخدام كلمتي ﴿قِيلَ﴾ و ﴿الدَّاخِلِينَ﴾ من أجل الحطّ من منزلة هاتين المرأتين وكلّ الكافرين.

فالقرآن الكريم عرّف هاتين الشخصيّتين مثالاً للكفّار رجالاً ونساءً، فهما امرأتان كانتا زوجتين لنبيين صالحين عاشتا إلىٰ جوارهما وقربهما، وسمعتا دعوتهما الخالصة للّه، إلّا أنّهما لم تستوعبا حقيقة العبودية فحسب بل خانتاهما. فالهداية النبوية كانت نعمة لهما وأمانة في عنقيهما، إلّا أنّهما جحدتا النعمة وخانتا الأمانة الإلهية؛ ممّا أدىٰ بهما إلىٰ السقوط في الحضيض دون أن يتمكّن أحد من إنقاذهما، وكان مصيرهما النار تدخلانها مع الداخلين، وتكونان فيها من الخالدين.

هذا المثال البارز يحدوا بكلّ إنسان إلى تتبّع جميع الآيات التي تتحدّث عن مصير امرأتي نوح ولوط، وما جاء عن حياة قومهما ومصيرهما.

بدعة قوم لوط

كان لوط ﷺ من أنبياء اللّه الصالحين المعاصرين لنبي اللّه إبراهيم ﷺ، وانتهج قوم لوط ﷺ عصياناً لنبيهم طريقاً منحرفاً يخالف الفطرة البشرية، فهم أوّل قوم بدّلوا نعمة اللّه نقمة عظيمة ودائمة علىٰ أنفسهم؛ نتيجة لتفريطهم وإنحرافهم.

لقد جعل اللّه سبحانه وتعالىٰ البشر جنسين مختلفين، وأودع في كلّ جنس ميلاً للآخر من أجل الانجذاب إليه، ومن ثَم بقاء النسل وتكاثره. وهذا الميل والانجذاب يحقّق لذّة تكاد ترقىٰ إلى مستوى لذّة العبادة، وهي في حدّ ذاتها رغبة مشروعة فيما إذا استخدمت بطريقة فطرية صحيحة، وأمّا إذا انحرفت هذه الرغبة عن مسيرها الفطري الصحيح، عجزت عن تحقيق الهدف الصالح المرجوّ منها، وانقلبت إلىٰ وسيلة تلويثٍ للنفس وانحطاط للمجتمع.

وقوم لوط هم أوّل قوم في تاريخ البشرية ابتدعوا العلاقة اللامشروعة بين الرجل والرجل: ﴿وَلُوطاً إِذ قَالَ لِقَومِهِ أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ

العَالَمِينَ ﴾[١]. وتعرّض القرآن الكريم إلىٰ قوم لوط في مواضع كثيرة؛ من أجل اجتثاث هذه الظاهرة القبيحة من المجتمعات البشرية وذمّها، كما أشار في ثماني مواضع[٢] إلىٰ امرأة لوط وشمولها بالعذاب الإلهي دون أن تنجو منه.

وهنا نستعرض بعض هذه الآيات من أجل ان نكتشف سبب تصدّي القرآن الكريم لهذه المرأة ومواجهتها.

ضيوف ضاق بهم لوط ذرعاً

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾[٣].

بعد أن عجز لوط ﷺ عن إرشاد قومه وتقويم انحرافهم، رأى مجموعة من الشباب يتوجّهون إليه فحسبهم ضيوفاً يقصدون بيته، فاستقبلهم باضطراب وخوف وانقباض، وساءه مجيئهم خوفاً عليهم من أن يقصدهم قومه المنحرفون، فيعجز عن الدفاع عنهم وينجّيهم من شرّهم[٤]، وقال: **﴿هَـذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾**[٥] من شدّة البلاء المحفوف به؛ وذلك لأنّ قوم لوط كانوا متمرّسين في الانحراف غارقين في الفحشاء، وهو لا قوّة له في أن يصرفهم عن المساس بهؤلاء الشباب.

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللّهَ وَلَاتُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾[٦]. حينما سمع قوم لوط بنبأ ورود الضيوف، هرعوا بسرعة ودون تأخير إلىٰ بيته، ممّا أدّىٰ

---

(١) الأعراف ٧/ ٨٠.

(٢) هي: الأعراف ٧ / ١٨٣، والحجر ١٥/ ٦٠، والصافات ٣٧/ ١٣٥، وهود ١١/ ٨١، والشعراء ٢٦/ ١٧١، والنمل ٢٧/ ٥٧، والعنكبوت ٢٩/ ٣٢، والتحريم ٦٦/ ١٠.

(٣) هود ١١/ ٧٧.

(٤) جاء شبيه لهذا المضمون في الآية ٣٣ من سورة العنكبوت.

(٥) عصيب بمعنىٰ عسير، أو مأخوذ من العصبة أي العقدة، والمراد به يوم معقّد ومعقود بالبلاء لا يمكن الخلاص منه.

(٦) هود ١١/ ٧٨.

إلىٰ اضطرابه لتحقّق ما كان يخشاه من قومه على ضيوفه وسوء نيّتهم؛ ولمّا كان لوط يقبّح هذا العمل الشنيع وطالما سعىٰ في إرشادهم ونهيهم عنه؛ ولعلّه كان يرجو أن يجد بصيص أمل في بعض رجالهم؛ ومن أجل أن يبدّد الخجل الذي ساوره من ضيوفه، ويدفع عن بيته أيّ شبهة، ويبرّر ساحته ويُعلن عن موقفه تجاه ممارساتهم المنحرفة، قال: ﴿يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾[١] لأن تتزوّجوهنّ.

وهنا تجدر الإشارة إلىٰ بعض النقاط في هذه الآية :

١ ـ كلمة ﴿يُهْرَعُونَ﴾ تدلّ علىٰ أنّ رؤساء قوم لوط كانوا أيضاً يمارسون هذا الانحراف، بل هم الذين يدعون إليه ويحرّضون الناس عليه، وهم الذين ترأسوا هذا الهجوم علىٰ بيت لوط؛ ولذلك فإنّ لوط عرض الزواج ببناته علىٰ هؤلاء، وليس المقصود ولا المعقول أن يتزوّج كلّ القوم بناته[٢].

٢ ـ تظهر هذه الآية مدىٰ رأفة وعطف النبي لوط علىٰ قومه وإيثاره بنفسه وأهله من أجل هدايتهم، فهو يعرض بناته الطاهرات البعيدات كلّ البعد عن الانحراف والتلوّث ـ مع نفورهنّ من هؤلاء القوم ـ علىٰ أسوأ الرجال وأكثرهم دناءة من أجل أن تعود الطهارة والسلامة إلىٰ المجتمع الذي يعيش فيه، وهذا يدلّ علىٰ مدىٰ تسليمه ورضاه برضا اللّه تعالى.

٣ ـ إنّ بنات لوط قد استوعبن الأوامر الإلهية والتعاليم الرسالية، وأسلمن أنفسهن للّه ولرسوله ـ وهذا يذكّرنا بطهارة مريمعليها السلام في قوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ

---

(١) المقصود من استخدام صيغة التفضيل ﴿أطهر﴾ أنّ البنات طاهرات لم يتلوّثن بشيء.
كما ذهب صاحب تفسير الميزان إلىٰ احتمال آخر وهو أنّ لوط عرض بناته عليهم لكي يشعرهم بأنّ الفطرة السليمة تدعو للزواج من النساء، والمقصود من ﴿هُنّ أطهرُ لكُمْ﴾ أي الزواج بهن أطهر لكُم، أي من النساء، وهذا هو طريق الفطرة البشرية الطاهرة. وذهب صاحب في ظلال القرآن أيضاً إلىٰ هذا الرأي. يُراجع تفسير الميزان الجزء ١٠، وتفسير في ظلال القرآن الجزء ٨.

(٢) جاء في تفسير البيان أنّ ﴿يُهْرَعُونَ﴾ جاءت بصيغة المجهول. ولعلّ المراد أنّ جماعة كانوا يدفعون القوم إلىٰ الهروع والتوجه إلى بيت لوط، وهذا أكثر انسجاماً مع ظاهر الآية.

اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ ـ[(١)] على الرغم من تفشّي الفحشاء والانحراف في ذلك المجتمع.

٤ ـ وجود نوع من التقابل والضدّية بين امرأة لوط وبـناتها، ووجـود حـرية فكرية واستقلال ذاتي في بيت لوط النبوي.

﴿**قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ** ﴾[(٢)]. وهذه الوقاحة تظهر بوضوح في جواب قوم لوط ومدىٰ انغماسهم في الرذيلة مقابل إشعار لوط عليه السلام لهم وهو يذكّرهم ويتّخذ ذلك الموقف الرجولي بـالاستئثار بـبناته حـفظاً للقيم، فهم يرفضون هذا العرض السخي ويُـصرّون عـلىٰ غـيّهم وانـحرافـهم ويقولون له: إنّك تعلم علم اليقين بعدم رغبتنا في بناتك، وليس لنا حقّ فيهن، وأنّك تعلم مانريد، فلا داعي لتكرار دعواتك السابقة وإطالة الحديث.

وهنا ندرك مدىٰ إحراج لوط في موقفه هذا بحيث يشعر بعدم الأمن حتىٰ في داره، وهو محروم حتىٰ من زوجة كفوءة لائقة تسانده وتقف إلىٰ جانبه، وما له إلّا ان يلجأ إلىٰ اللّه ويستجير به في هذه الحالة.

زوجة خائنة

﴿**قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَايَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّـه مُـصِيبُهَا مَـا أَصَـابَهُمْ إِنَّ مَـوْعِدَهُمُ الصُّـبْحُ أَلَـيسَ الصُّـبْحُ بِقَرِيبٍ** ﴾[(٣)].

وفي ذلك الموقف الحسّاس كشف الرسل عن سرّهم وأعلنوا عـن هـويّتهم وهم يُطمئنونه بالقول: ﴿**يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ** ﴾ اتينا بهذه الهـيئة وإنّـهم ﴿**لَـنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ** ﴾ ولن يمسّوك بسوء ﴿**فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ** ﴾ بسرعة دون أيّ

(١) آل عمران ٣/٤٣.
(٢) هود ١١/٧٩.
(٣) هود ١١/٨١.

توقّف وتريّث ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ ويتوقّف لحظةً ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا﴾ من المصائب والعذاب ﴿مَا أَصَابَهُمْ﴾ وكن أنت آخر من يخرج، واتّبع أدبارهم؛ لكي تحثّهم علىٰ الخروج وتمنعهم من التوقّف أو الرجوع إلىٰ الخلف، وامضي حيث تؤمر[١].

يظهر من هذه الآيات أنّ امرأة لوط لم تهتدِ قط، بل كانت توافق القوم في عقيدتهم وتمدّ لهم العون للتمادي في انحرافهم، كما أنّ إطلاق صفة الخيانة عليها في آية أُخرى[٢] يلوّح بأنّها هي التي أخبرت القوم بوصول الضيوف إلىٰ بيت لوط، وأنّ القوم ما هرعوا إلىٰ داره وافتعلوا ذلك اليوم العصيب إلّا نتيجة إفشاء السرّ علىٰ يدها وخيانتها للوط.

هذا من جهة، ومن جهة أُخرىٰ فإنّ العذاب الذي نزل علىٰ قوم لوط وأفناهم بأسرهم يثير هذا التساؤل: إذا كان الرجال هم الذين مارسوا هذا الانحراف وأعرضوا عن النساء، لماذا شمل العذاب النساء أيضاً؟ وهذا يتعارض مع العدل الإلـهي لو قلنا بطهارة النساء وتسليط العذاب على الجميع دون تمييز، ممّا يجرّنا إلىٰ اكتشاف حقيقة أُخرىٰ تبدو واضحة، وهي أنّ سائر النساء كن يرتكبن الخطيئة كما خانت امرأة لوط بحيث كنّ يهيّئن الظروف للرجال ويشاركنهم في ممارسة وتحقق الانحراف، أو القول بأنّ انحراف الرجال وإعراضهم عن النساء أدّىٰ بهنّ أيضاً إلىٰ إنحراف تلك الرغبة الفطرية فيهنّ وتورّطهن في انحراف آخر، وما يؤكّد هذا المعنىٰ عدم تعرّض الآيات لذكر مصير الأطفال في العذاب الذي حلّ بالقوم، وهل نجوا من العذاب أو لا؟ فلو كان هناك أطفال لمّا حلّ بهم العذاب، كلّ هذا يدلّ علىٰ أنّ التناسل والإنجاب كانَ متوقّفاً عندهم.

وما أجمل القرآن الكريم حيث غضّ الطرف عن هذا الانحراف من أجل

---

(١) وذلك قوله تعالىٰ في الحجر ١٥/٦٥: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾.

(٢) التحريم ٦٦/١٠.

الحيلولة دون المساس بالستر الذي يمدّ ظلاله علىٰ حياء المرأة، وأودعــه فــي هالة من الصمت دون التطرّق إليه.

حقارة امرأة نوح

تطرّق القرآن الكريم إلىٰ امرأة نوح كما تطرّق إلىٰ امرأة لوط، وقد صرّح بذكرها فقط في قوله تعالى: **﴿ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً لِلّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحتَ عَبْدَينِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغنِيَا عَنهُمَا مِنَ اللّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النّارَ مَعَ الدّاخِلِينَ﴾**[1] وأشار إليها دون تصريح في قوله: **﴿إلّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾**[2]، **﴿وَأَهْلَكَ إلّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الّذِينَ ظَلَمُوا إنّهُم مُغْرَقُونَ﴾**[3].

وهذا التلويح الأبلغ من التصريح يريد منه القرآن الكريم إعلان احتقاره لهذه المرأة إلىٰ أبعد الحدود، فهي التي احتلّت موقعاً مركزياً في بيت الوحي، وعاشت إلىٰجنب نبي حليم صبور، ومع ذلك بــقيت غــريبة عــن التــعاليم الإلهــية ولم تستثمر كلّ المزايا التي كانت حولها، بل كفاها بؤساً ودنــاءةً أن يــطلق عــليها القرآن صفة الخيانة ويهملها دون ذكر اسمها.

ومن جانب آخر فإنّ التعرّض بهذا الشكل لزوجة نبي من أنبياء اللّه في القرآن الكريم يعتبر تحذيراً لزوجات رسول اللّهﷺ؛ لكي لا يغتررن بذلك ويعتبرن شرف الحضور في بيت الوحي شرفاً ذاتياً؛ ولئلّا يحكن في هذا الموقع مؤامرة يُكتب لها الخلود؛ وليعلمن بأنّ اللّه عذّب قوم نــوح بــالطوفان، وقــوم لوط أمــطرهم بالحجارة، وأنّ عذاب اللّه لا مفرّ منه.

تبيّن ممّا ذكرنا أنّه مثلما ساهم الرجال من قوم لوط فــي انــحراف قــومهم وسقوطهم في الرذيلة، ساهمت هاتين المرأتين أيضاً في ذلك الانــحراف، بــل

---

(١) التحريم ٦٦/١٠.

(٢) هود ١١/٤٠.

(٣) المؤمنون ٢٣/٢٧.

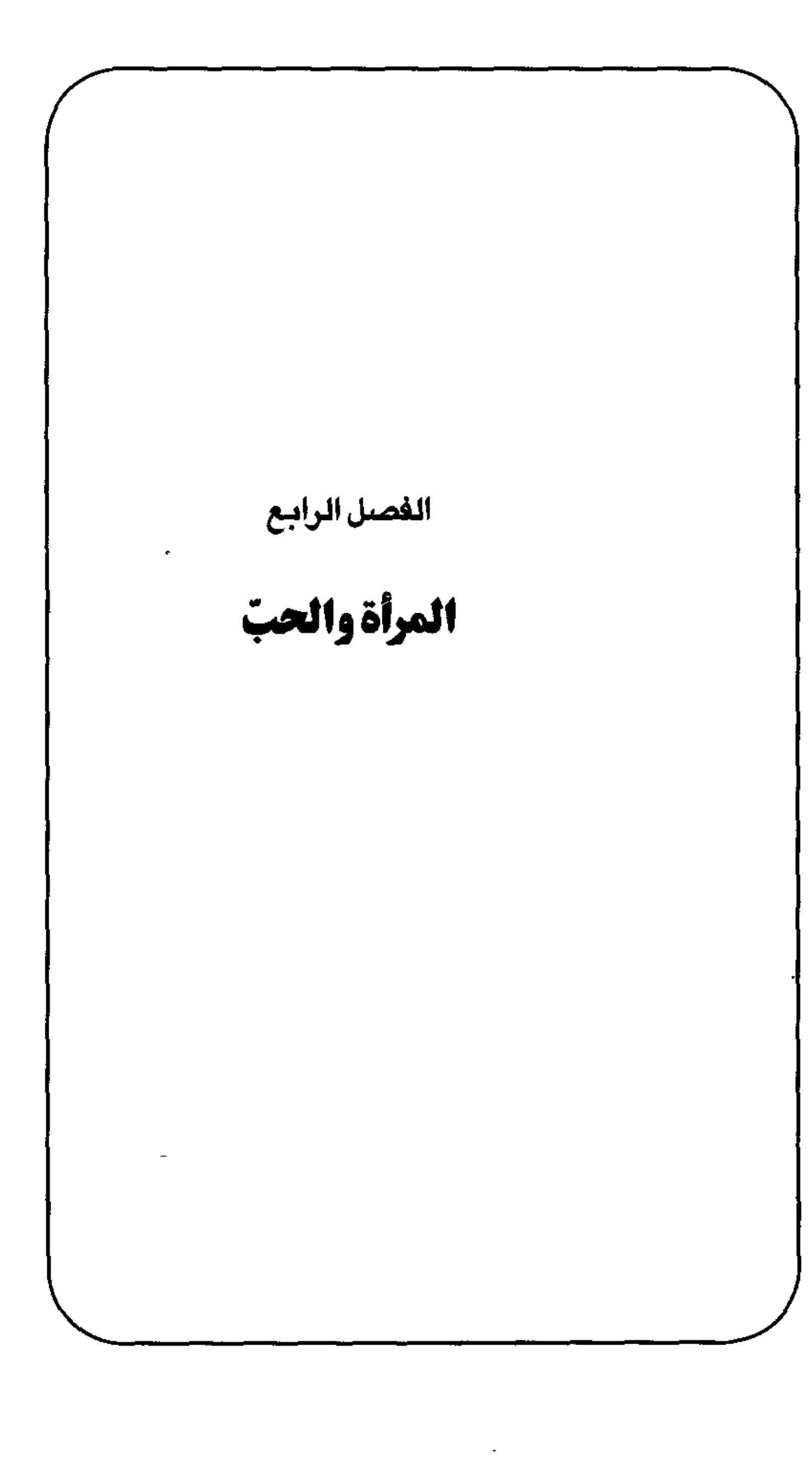
تمادينا أكثر فأكثر؛ إذ إنّ الملتصقّين بالأنبياء والقريبين منهم قادرون علىٰ تلويث ساحة الأنبياء المقدّسة أكثر من غيرهم، وبما أنّ الذهنيات الماديّة التي تحكم الجهّال تعتبر العلاقات الظاهرية هي الأصل؛ لذلك تتشبّث بالساقطين والملوّثين ممّن ينتسب إلىٰ هذه البيوت السامية، ومن هذا المنطلق فإنّ تعرّض القرآن الكريم لهاتين المرأتين، أي امرأة نوح ولوط، ووصفهما بالخيانة يعتبر أمراً في غاية الخطورة نستخلص منه بوضوح ما يلي:

إنّ الإنسان خُلق مستقلّاً في ذاته عمّن يحيط به ويدور حوله، وهو مستقلّ في تفكيره، وحريّة اتّخاذ القرار جزءٌ من فطرته وذاته التي لا تنفكّ عنه، ولو لم يكن يتمتّع الإنسان بهذه الحريّة والاستقلال لكانت كلّ الأوامر والنواهي والإنذار والتبشير والعتاب والعقاب والتشجيع وحتىٰ إرسال الأنبياء لغواً دون فائدة وجدوىً.

ولعل قائل يقول: إنّنا نرىٰ كثيراً من الناس يقلّدون ويتّبعون الآخرين حتىٰ في عقائدهم. والجواب هو أنّ هؤلاء يرون اجتياز سبيل الكمال عن طريق هذا التقليد والانقياد، وما من أحد يجبرهم علىٰ ذلك، بل هذا التقليد ناشئ من استقلالهم في الرأي ايضاً.

والمرأة أيضاً يشملها هذا القانون البشري العام وليست مستثناةً من ذلك، فمريم القدّيسة طوت مراحل السمو الروحي بإرادتها المستقلّة، وآسية زوجة فرعون شقّت طريقها السوي بإرادتها في معقل الكفر، وامرأة لوط ونوح اختارتا طريق الباطل في بيوت الوحي، ولم يكن للبيئة والتربية تأثير ذو بال علىٰ إرادتهما وقرارهما.

إذن الإكراه والإجبار بكلّ أنواعه يعتبر أمراً قبيحاً وذنباً لا يغتفر في مجال العقيدة؛ لأنّ حرية الاختيار أمرٌ ذاتي مجبول عليه الإنسان، وهو أمرٌ مقدّس مهما كان ذلك الاختيار حتىٰ وإن كان امراً شنيعاً ودنيئاً.



الفصل الرابع

المرأة والحبّ

المرأة والحبّ

جعل اللّه الحبّ والعاطفة في وجود المرأة فياضاً جيّاشاً أكثر من أيّ موجد آخر، نظراً للمسؤولية الخطيرة والوظيفة الخاصّة الملقاة علىٰ عاتقها في تربية البشر وتنشأة المجتمع إلّا أنّ هذا الحب والعواطف تحدّها حدود بحيث اذا ما هوىٰ بها يوماً ما في طريق خاطئ أمكنها أن تتراجع عنه وتسيطر عليه من خلال قواها العقلية وقدرة الشرع النافذة إذا ما تمسّكت بتعاليمه؛ ولذلك نراها كانت مصدراً لحوادث ووقائع جميلة وأُخرىٰ مُرّة علىٰ طول التاريخ، فهي مُرّة عندما ينحرف الإنسان عن مساره الفطري الصحيح، وجميلة عندما يعود إلىٰ نبعه الأصلي؛ خوفاً من التلوّث وحبّاً للطهر والنقاء، فيتراجع عن الخطأ ويعترف به بشجاعه ويتمسّك بالحقّ.

ومن بين النساء اللاتي سلكن طريق الباطل بسبب عدم وجود مرشد مناسب لهنّ هي زليخا على الرغم من أنّها بدأت بداية جميلة. هذه المرأة ذات شخصية فذّة، فقد تراجعت بكلّ شجاعة عن طريق الباطل نتيجةً لمواقف يوسف عليه السلام الصحيحة المدروسة، وأحكمت سيطرة عقلها علىٰ مشاعرها وعواطفها؛ ولذلك نجد القرآن الكريم يعبر عن قصّتها بأحسن القصص؛ نظراً لقصّتها المدهشة إلىٰ جانب أدب نبي زمانها في التعامل معها، حيث يقول عزّ من قائل:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾(١) ومعنىٰ ذلك أنّه لايجوز للنبي الأكرمﷺ أن يغفل عن هذه القصّة، بل يجب عليه أن يطلع عليها، وعلىٰ مصير يوسف عليه السلام والمراحل التي طواها والاستعدادات الكثيرة التي أظهرها لتقبّل مسؤولية رسالة النبوة الخطيرة.

ففي أوّل القصّة يستعرض القرآن مرحلة الطفولة حيث يأتيه أوّل نوع من الوحي عن طريق الرؤيا في المنام والإلهام إليه، تلك الرؤيا التي كانت تحمل له بشارة تصدّيه لمقام النبوّة ومعجزة تأويل الأحاديث وإدراك أسرار الوقائع والأحداث، وتضمنت قيماً خفية جعلته محبوباً عند يعقوب ومستأثراً علىٰ إخوته؛ ممّا أدّىٰ إلىٰ حسدهم له في هذه المرحلة وإلقائه في البئر؛ لكي ينساه أبوهم يعقوب، و يتضاعف حبه لهم بعد أن يخلو قلبه من حبّ يوسف وينساه.

وعندئذٍ تبدأ المرحلة الثانية من حياة يوسف حيث يتلقّىٰ فيها الوحي الإلهي أيضاً ولكن بشكل أكمل، لا عن طريق المنام وتأويل الرؤيا، بل بشكل عيني ملموس يطّلع من خلاله علىٰ سرّ كثير من الحوادث.

وتمرّ قافلة علىٰ البئر التي أُلقي يوسف فيها، وعندما أَلقوا دلوهم طلباً للماء يتعلّق يوسف به ليخرج وتشتريه القافلة بثمن بخس، وتنطلق لتواصل مسيرها نحو مصر(٢)، وعند وصولها يرتدي يوسف ملابس جميلة يهيّئها له من اشتراه، وكان ذا خَلق وخُلق جميلين ممّا حدا بمن حوله إلى الالتفات اليه وتكريمه وهو معروض للبيع بثمن غالٍ بحيث لم يتقدّم أحد لشرائه إلّا عزيز مصر، وهو وزير الملك الذي دخل حبّه في قلبه؛ ولما كان عقيماً استهواه جمال يوسف وكماله؛ ولذلك اشتراه وذهب به إلىٰ بيته وأعطاه لزوجته.

---

(١) يوسف ١٢/٣.

(٢) مصر تأتي بمعنى الحدّ الفاصل بين شيئين أو قطعتي أرض، وتسمىٰ المدينة أيضاً مصراً لأنّها محدودة. وذُكرت كلمة «مصر» في القرآن الكريم في خمس مواضع، أربعة منها يراد بها مصر فرعون، وهي كما يظهر عاصمة مصر الحالية: القاهرة، ولا يستبعد ان يكون المراد في الآية ٢١ و ٩٩ من سورة يوسف مطلق المدينة. يُراجع قاموس القرآن.

ووقتئذٍ تبدأ المرحلة الثالثة من حياة يوسف حيث تظهر فيها استعداداته الذاتية؛ ولكي نسلّط الأضواء علىٰ هذه المرحلة المهمّة لرفد القارئ الكريم بمعلومات أكثر عن حياة النبي يوسف عليه السلام والدور الذي قامت به زليخا، نعود ثانية لنستلهم من القرآن الكريم قصّة زليخا ودورها الحساس.

يوسف في بيت عزيز مصر

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاه مِن مِصْرَ لِامْرأَتِهِ أَكرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَو نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكَّنَا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[١].

هكذا ينضوي يوسف تحت رعاية امرأة عزيز مصر، وهذا ما تشير إليه ظواهر الأُمور، إلّا أنّ الرعاية الحقيقية بقيت كما قال له أبوه يعقوب عليه السلام من قبل وكما أشارت إليها الآية الكريمة: **﴿كَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾**[٢] حيث اجتباه ربّ الوجود واختاره ليرعاه بنفسه.

أجل، عزيز مصر هو الذي اشترىٰ يوسف عليه السلام وأصبح في ملكه، ولكنّه كان يعلم أن تربيته ورعايته يجب أن تلتزم بها امرأة تقوم مقام الأُمّ بعواطفها؛ ولذلك يخاطب زوجته قائلاً: **﴿أَكرِمِي مَثْوَاهُ ﴾**؛ لأنّه ليس شخصاً عادياً بل هو ذو قِيم وعليها أن تتولّى هي رعايته بنفسها، ولم يسلّمه لمن يتولّىٰ رعاية العبيد والغلمان في داره، وهذا ما لم يُعهد سابقاً: أن تتولىٰ ربّة البيت بموقعها ومكانتها رعاية أمر العبيد والغلمان؛ ممّا يدلّ علىٰ أنّ عزيز مصر لم ينظر إلىٰ يوسف نظرة الغلام والعبد، بل اكتشف في وجوده شموخاً خاصّاً؛ ولذلك لم يجد في أحد لياقة رعاية هذا الصبي إلّا امرأته، وهي الوحيدة التي يمكنها أن تستوعب مشاعر عزيز مصر بالنسبة لهذا الصبي، حيث قال لها أيضاً: **﴿عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَو نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾**.

---

(١) يوسف ١٢/٢١.

(٢) يوسف ١٢/٦.

انظروا إلىٰ أدب مخاطبة هذا الرجل لامرأته بدقّة، فهو لم ينسب هـذا الصـبي لنفسه فقط، بل يستخدم صيغة الجمع للمتكلّم وهي تُستخدم للمثنىٰ أيضاً، ويقصد بها نفسيهما: هو وزوجته.

يوسف في بداية مكنته

ومع بداية انضواء يوسف تحت رعاية هذه المرأة مباشرة يقول اللّه تـعالىٰ: ﴿**وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ**﴾[١] وهذا له دلالته الخاصّة؛ إذ لم ينسب القرآن الكريم هذه المكنة ليوسف في بيت أبيه النبي يعقوب عليه السلام أو في بيت آخر سواه، بل هذا البيت بالذات اعتبره موقعاً جيداً له، حتىٰ وإن كان في الظاهر له سلبياته علىٰ المستوىٰ المعنوي، إلّا أنّ هذا المكان أيضاً هو من اختيار اللّه، فكلّ شيء تابع لإرادة اللّه وحكمته، وهذا هو المقصود من القضاء والقدر الإلـهي.

ويستأنف القرآن الكريم القول: ﴿**وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ**﴾[٢]. وهـذا المقام العلمي اجتباه له اللّه أيضاً، وكانت بدايته في هذا البيت الذي لا تشـير معالمه الظاهرية إلىٰ أهليّته ليكون موقعاً مناسباً لتنشئةِ نبي من أنبياء اللّه، إلّا أنّه مهّد ليوسف أرضيّة ظهور القيم المعنوية إضافة إلىٰ تأويله للأحاديث.

ويشير العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان إلىٰ أنّ الواو في ﴿**وَلِنُعَلِّمَهُ**﴾ هي واو عطف علىٰ جمل مقدّرة أُخرىٰ، واللام في الكلمة نفسها هي للاستنتاج[٣]، وعلىٰ هذا فمعنىٰ الآية هو: أنّنا مكنّا يوسف بهذه الطريقة لكي يبلغ بها مقامات معنوية عديدة، ولنعلّمه تأويل الأحاديث.

إذن لم يكن هذا البيت منطلقاً لنشأة يوسف وتعلّمه أسرار الوقائع والأحداث والأحاديث فقط، بل شملته العناية الإلهية بمقامات أُخرىٰ لم تتطرّق إليها هذه

---

(١) يوسف ١٢/٢١.

(٢) يوسف ١٢/٢١. والمقصود بذلك أنّ اللّه علّمه تأويل الأحاديث، وهو أعمّ من تأويل أحاديث الرؤيا، بل يشمل كلّ الحوادث والوقائع سواء كانت تصوّرات ترد في الرؤيا أو اليقظة. تفسير الميزان، الجزء ١١.

(٣) تفسير الميزان، الجزء ١١.

الآية، واتّخذت منوقف الصمت تجاهها حيث قالت: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١].

يوسف ﷺ يؤتىٰ الحكم

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

وهكذا آتىٰ اللّه يوسف عندما بلغ أشده[٣] مقامين هما: العلم والحكم.

والمراد من الحكم في هذه الآية ـ كما قال الزمخشري ـ هو القضاء والحكم بين الناس بالعدل، أو العلم والعمل به واجتناب الجهل في العمل[٤]. وقال العلّامة المرحوم الأُستاذ الكبير الطباطبائي بأنّ الحكم الذي آتاه اللّه ليوسف هو حكم اللّه، والحكم بمعنىٰ الكلام الفصل وإعطاء كل أمرٍ حقّه، ويقال أيضاً: إنّ الحكم جاء بمعنىٰ رفع الشك والشبهة والترديد في الأُمور الخلافية[٥].

وأمّا المراد من العلم فهو إدراك الحقائق وكنه كلّ شيء وإحكامه وما يترتّب عليه[٦].

إذن هناك فرق بين العلم والحكم.

كما أنّ إتيانهما علىٰ شكل نكرة في الآية يستدعي التأمّل وقد تلقّاهما يوسف في بداية شبابه؛ ممّا جعلا هذه الفترة المدعومة بهاتين الخصلتين وسيلة للسير الحثيث نحو الكمال المعنوي لا التمتّع المادي.

وهنا نستنتج حقيقة أُخرىٰ، وهي أنّ تقوية الإرادة لها أثرٌ مباشر في التربية، وهي العامل الأساس، فبتقويتها ينحسر تأثير البيئة علىٰ الفرد، بل أكثر من

---

(١) يوسف ١٢/٢١.

(٢) يوسف ١٢/٢٢.

(٣) أي منتهىٰ اشتداده في جسمه وقوّته، وهو ما بين ٣٠ـ٤٠ عاماً استناداً إلى كنز الدقائق ٦/٢٩٣. وقيل: سن الشباب، ومبدؤه بلوغ الحلم، كما في أنوار التنزيل ١/٤٩١.

(٤) الكشاف للزمخشري ٢ / ٢١٠.

(٥) الميزان، الجزء ١١.

(٦) مفردات ألفاظ القرآن / ٣٥٥. وجاء في كنز الدقائق علم التأويل.

ذلك: فإن الإرادة القوية المدعومة بالعقيدة الراسخة في صراعها مع السلبيات لا تحفظ الفرد من الانحراف فحسب، بل تساهم في التأثير في البيئة وتغييرها.

زليخا وحبّ يوسف عليه السلام

﴿وَ رَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[1].

المراودة مصدر راود، جاءت بمعنى التردّد ذهاباً وإياباً بهدوء من أجل الوصول إلى غاية، هذا بالمعنى العام، وهنا جاءت بمعنى النزاع بين إرادتين مختلفتين يريد صاحب كلّ إرادة فرض إرادته ورأيه على الطرف الآخر، أيّ إنّك تطلب شيئاً وتريد أن تحقّقه، والطرف الآخر ينازعك ويريد فرض إرادته ليحقّق هدفاً آخر غير الذي تريد[2]. فزليخا في مراودتها ليوسف تريد أن يستسلم لمطاليبها؛ ولذلك تسعى للتقرّب منه جاهدةً للاستحواذ على قلبه وكسب مودّته.

والتعابير التي استخدمتها الآية فيها مدلولات في غاية الدقّة والجمال تتطلّب دقّة عالية ووقتاً موسّعاً، فعبارة **﴿رَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾** نستخلص منها عدّة نقاط هي:

أوّلاً: في هذه الآية والآيات التالية التي تتحدّث عن منزلة هذه المرأة وسمعتها، سواء ما ذكرته الآيات وما قاله اللّه تعالى أو ما قاله يوسف لها، كلّه كلام محسوب في غاية الدقّة والحياء، مهذّب وكنائي، يراد به في كلّ الأحوال عدم خدشها كامرأة تعيش في المجتمع، وإن كانت مذنبة وتسعى لتلبية غريزتها، بحيث لم تقل الآية: وراودته المرأة، أي المرأة التي أوصاها عزيز مصر بيوسف أن تكرمه اخذت تراوده وتعشقه، بل قالت الآية: **﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾**، أي راودته التي كان يوسف في بيتها، فاستخدمت الضمير والإيماء إلى فاعل

(١) يوسف ١٢/٢٣.
(٢) مفردات ألفاظ القرآن / ٢٠٦.

الجملة بشكل كنائي دون ذكر اسمها بصراحة.

ثانياً: إنّ استخدام اسم الموصول ﴿الَّتِي﴾ في الآية يحتاج إلىٰ جملة الموصول لإتمام المعنىٰ ورفع الإبهام، وهو الفاعل، وجملة الموصول هي ﴿هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾. والمراد من ﴿هُوَ﴾ شخص النبي يوسف ﷺ وتمّ تعريفه من خلال كلمة ﴿الَّتِي﴾ أي المرأة التي كان يوسف في بيتها، وبعبارة أُخرىٰ: المرأة التي حضور يوسف في بيتها أدّىٰ إلىٰ ذكرها وبيان قصّتها وصارت مداراً للحديث.

وحضور النبي الكريم هذا أدّىٰ إلىٰظهور هواجسها النفسية الخفية، وإنقاذها من السقوط في الحضيض، ومن ثم الاهتداء إلىٰطريق الحقّ، فهو كان السبب في اشتهارها وبقائها علماً وسرد قصة حياتها للعالمين لتكون درساً وعبرةً للآخرين. وهذا من فضل وبركة الأنبياء، فهم إذا حضروا مكاناً غيّروه وأصبحوا المحور فيه، ومن هنا يظهر دور الأنبياء والصلحاء وأولياء اللّه في المجتمعات بجلاء.

ثالثاً: إنّ السبب في حفظ يوسف لحرمة زليخا وعدم إهانتها أو توجيه كلام نابٍ لها أو تعبير غير لائق بها هو أنّها راودته في بيتها وقد نشأ تحت رعايتها، وهذا يستدعي عدم إنكار فضلها ومخاطبتها بلطف.

رابعاً: يظهر أنّ المراودة سبقت إغلاق الأبواب ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ وبعد ذلك ﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ﴾ ممّا يدلّ علىٰ أنّها رَاوَدته في أيام سابقةٍ لليوم الذي غَلّقَت فيه الأبواب، واستخدمت أساليب مختلفة لكسب ودّه والاستحواذ علىٰ قلبه، ولعلّها تصوّرت أنّ امتناع يوسف ناشئ من خوفه أو مراعاته لمنزلة عزيز مصر أو موقعية ذلك البيت؛ لذا تجرّأت في هذه المرّة واستعدّت لذلك بإخلاء المنزل واختيار مكان بعيد عن الأنظار، وإظهار حبّها له ودعوته لنفسها: ﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾.

و ﴿هَيْتَ﴾ اسم فعل بلفظ الماضي بُني علىٰ الفتح لكنه بمعنىٰ الأمر، أي هيّا أقبل قد تهيأتُ لك. وكلمة ﴿غَلَّقت﴾ وهي بصيغة المبالغة تأتي بمعنىٰ المبالغة

في شيء، وتكرارها يدلّ علىٰ أنّها من خلال نفوذها وسيطرتها علىٰ البيت وقوّتها في اتّخاذ القرار في بيتها، منعت العبيد والخدم من الدخول وقامت بـغلق كـلّ الأبواب، ممّا يظهر أنّها ساقت يوسف إلىٰ مكان خاصّ في القصر، وفـي غـرفه تحيطها غرف أُخرىٰ متداخلة، وفي ذلك المكان المحصّن تدعو يوسف وتقول له: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾.

وجاء في التفسير الأمثل[1] ما يلي: ينقل القرآن الكريم آخر كلام قالته امرأة العزيز ليوسف من أجل الوصال به، وهو كلام متين ومؤدّب ليس فيه أيّ نوع من التهييج والإفساد.

وتأييداً لذلك نقول: إنّ هذا الكلام نقل مباشر لما قالته زليخا، وهو دقيق وذكيّ وقصير وبكناية؛ ممّا يدلّ علىٰ أنّه بالرغم من انحراف هذه المرأة عـن فـطرتها وانتصار هواها علىٰ عقلها، إلّا أنّها عبّرت عن مقصودها بكناية وأدب ولم تصرّح بشيء؛ نظراً لشأن يوسف وموقعها وعزّة النفس التي كانت تتمتّع بها؛ ولذلك لم تستخدم كلمات مستهجنة، آخذة بنظر الاعتبار الضوابط الاجتماعية بالرغم من خروجها عن فطرتها النقية، وعدم التصريح هذا يوهم بأنّها تهيّأت لأيّ شيء، أو أي شيء هيّأته ليوسف، ومع استخدام اسم الفـعل تـريد مـنه اخـفاء المـهيّأ المستعد أو الفاعل لهذه التهيّئة؛ لأنّها تعرف جيداً بفطرتها وقـرارة نـفسها أنّ ارتكاب الرذيلة أمر قبيح في نهاية الدناءة والحقارة، وتريد أن تتظاهر بأنّها لبّت رغبة كان يوسف وراءها.

الحبّ الالهي يغمر قلب يوسف

﴿قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنّهُ رَبّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾.

وقول يوسف: ﴿مَعَاذَ اللّهِ﴾ كان ردّاً كنائياً قاطعاً، فهو لم يقل: انا لم ارتكب هذا الذنب، فلو قال ذلك اعتبر لنفسه إرادةً مستقلّة عن قدرة اللّه وإرادته، كما أنّـه

(١) التفسير الأمثل، الجزء ٩، المنرجم للعربية عن أصله الفارسي باسم «تفسير نمونه».

بقوله هذا وفي جملة قصيرة كهذه أعطىٰ جواباً قاطعاً بإحكام بـالغ لا تشـوبه شائبة، وعقّب هذه الجملة القصيرة بكلمات متمّمة ومبينة لهـا، ورسـم خـط البطلان لكل مظاهر الأنانية والخداع والغرور والحيلة وأزال آثارها بذكر اللّه؛ لكي تفهم زليخا بأنّه لا مجال للحوار والجدل وقد غمر حب اللّه قلبه، وأنّ حبّها لم يخطر علىٰ باله قط، كما أراد بهذه الجملة أن يعطيها درساً بأنّها هي أيضاً قادرة علىٰ أن تكون في كنف اللّه، فهو خير ملجأ ومعاذ، إلّا أنّ زليخا مع كلّ درايـتها ودقّتها لم تستوعب هذا الدرس البليغ نظراً لوقوعها في أسر هوىٰ النفس الأمّارة.

﴿إنّه رَبّي أحْسَنَ مَثْوايَ﴾: هذه العبارة مثار بحث وجدل بين المـفسّرين، بأنّ يوسف عليه السلام أراد من كلمة **﴿رَبّي﴾** عزيز مصر أم اللّه سبحانه وتعالىٰ؟

فالبعض يعتقد أنّ عدم احتمال كون المراد من كلمة **﴿رَبّي﴾** في هذه الجملة عزيز مصر وهو مالك العبيد خطأ؛ لأنّ كلمة «رب» استخدمت عدّة مرّات لغير اللّه في هذه السورة، منها: **﴿اذكُرْني عِنْدَ رَبّكَ﴾**[(١)]، و **﴿ارْجِعْ إلَىٰ رَبّكَ﴾**[(٢)]، فإذا أعدنا النظر لوجدنا:

أولاً: في كل المواضع التي جاءت كلمة «رب» علىٰ لسان يوسف بمعنىٰ غير اللّه جاءت علىٰ هيئة «ربّك» مخاطباً الشخص الذي يعتقد أنّ له رباً غير اللّه، إلّا هذه الجملة التي هي محلّ نزاع، ولا يوجد دليل علىٰ صحّة هذا الإدعاء.

ثانياً : جاء بعد **﴿مَعَاذَ اللّهِ﴾** كلمة **﴿إنّه﴾** ويعود الضمير فيه إلىٰ اللّه حسب الظاهر.

ثالثاً : يتبادر من سياق الكلام في هذه العبارة الىٰ ذهن من يقرؤها لأوّل مرّة دون سابقة ذهنية أنّ المراد من كلمة **﴿رَبّي﴾** هو اللّه تبارك وتعالىٰ.

رابعاً : إذا كان يقصد يوسف من كلمة **﴿رَبّي﴾**، عزيز مصر لكان يجدر به أن يقول: إنه ربّي أكرم مَثواي، كما هو رأي العلامة الطباطبائي؛ لأنّ عزيز مصر قال

---

(١) يوسف ١٢/٤٢.

(٢) يوسف ١٢/٥٠. انظر التفسير الأمثل.

لزوجته عندما جاء بيوسف: ﴿**أَكْرِمِي مَثْوَاهُ**﴾[١]، ففي معنى الإكرام يدخل الاحترام وتعظيم الشخص، أي بما أنّ يوسف كان ذا شخصية وعظمة كان لابدّ من إكرامه واحترامه، وبما أنّه كان يقصد اللّه عزّوجلّ من كلمة ﴿**رَبِّي**﴾ فما كان ينبغي أن ينسب لنفسه الإكرام في مقابل اللّه تعالى؛ ولذلك قال: ﴿**إِنَّه رَبِّي أَحْسَنَ مَثواي**﴾.

خامساً : إذا كان مقصوده من ﴿**رَبِّي**﴾ عزيز مصر ما كان ينبغي له أن يقول بعد ذلك: ﴿**إِنَّه لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُون**﴾، بل كان الأجدر به أن يقول: إنّه لايفلح الخائنون، كما قال في السجن لرسول عزيز مصر: ﴿**ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ**﴾[٢]، إذن لو كان المقصود من «ربّ» عزيز مصر فإنّه لايفلح لديه الخائنون لا الظالمون.

مكر زليخا

﴿**وَاسْتَبَقَا البَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى البَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[٣].

بعد امتناع يوسف من الانصياع لطلب زليخا هرع نحو الباب كلاهما: يوسف من أجل الفرار من المهلكة والخوف من الإعراض عن المعبود ولو لفترة قصيرة، وزليخا من أجل منعه عن الخروج. وفي تلك اللحظة الحرجة التقيا بالعزيز[٤] عند الباب. السؤال الذي يطرح هنا هو: الرغم من غلق الأبواب كيف تمكّن يوسف من فتح الباب، والعزيز أين كان، وخلف أي باب كان يقف؟

في هذا الصدد تشير بعض الروايات إلى أنّ اللّه سبحانه وتعالى تلطّف على يوسف بحيث كلّما أتى بابا فتحت له، وعلى الرغم من عدم التأكد من صحّة

---

(١) يوسف ١٢/٢١.
(٢) يوسف ١٢/٥٢.
(٣) يوسف ١٢/٢٥.
(٤) اسم عزيز مصر قطفير أو اظفير، ولقبه عزيز، وزوجته راعيل ولقبها زليخا. انظر مجمع البيان، الجزء ٣.

وسقم هذه الروايات[١]، إلّا أنّ هناك حقيقة لابدّ من التسليم لها، وهي أنّ يوسف انتهج طريق التقوىٰ واختار حبّ اللّه وفضّله علىٰ الحب الأرضي المجازي؛ ولذلك فإنّ اللّه نصره وكان معه.

ويبدو أنّهما التقيا العزيز عند آخر باب تنتهي الىٰ خارج البيت، ووقتئذٍ أصبحت زليخا في موقع حرج أمام زوجها؛ ولكي لا يفتضح أمرها لجأت إلىٰ المكر وأخذت بزمام المبادرة لكي تتدارك الموقف وتخفي الحقيقة، وقبل أن يفتح يوسف فمه أو يسأل العزيز عن شيء انبرت قائلة: ﴿**مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾.

أجل في تلك اللحظات المصيرية الحرجة وضيق الوقت لم تنسَ زليخا مكانتها الاجتماعية وشأنيتها في البيت وعند العزيز، وكذلك عند مراودتها ليوسف والتسليم لهواها ما قالت إلّا عبارة: ﴿**هَيْتَ لَكَ**﴾، ولدىٰ الباب لما سيطر عليها الخوف لم تقل: إن يوسف أراد بي سوءاً، بل طرحت الموضوع في سؤال كلّي[٢]، فعلىٰ الرغم من وقوعها في الخطأ لم تكذب بصراحة[٣]، وفي نفس الوقت لم تُلقِ بالتقصير علىٰ يوسف بصراحة أيضاً، ولكنّها بهذه الجملة القصيرة الدقيقة تفرض رأيها وإرادتها بتحكّم وصلابة وتعيّن الجزاء وتزجر يوسف بالتهديد والوعيد بقولها: ﴿**إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾.

---

(١) تفسير الكشاف، الجزء ٢.

(٢) إذا كانت ﴿**مَا**﴾ استفهامية فالجملة سؤالية، وإذا كانت نافية فيصبح معنىٰ العبارة: ليس جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلّا السّجن أو العذاب. والنتيجة في كلا الحالتين واحدة، فالجملة تبيّن قاعدة كليّة وهي لزوم السجن أو العذاب سواء لمن أراد سوءاً أو لم يرد.

(٣) الجملة الخبرية تحتمل الصدق والكذب؛ ولذلك يرد احتمال كذبها، ولكن الجمل التي لاتحتمل التصديق كالجمل الإنشائية ـالاستفهامية والأمرية ـ لا تحتمل الكذب، وكذلك الجمل التي تبين قاعدة كلّية عامة لا تحتمل الكذب؛ ولذلك استعمال هذه الجمل في موارد خاصّة يسمّىٰ تورية، وهي جمل ظاهرها صادق ولكن يبعث في المخاطب الشكّ أو التلقّي الخاطئ خلاف الواقع.

ولا يجوز استخدام التورية في كل مكان ولها شروطها المدوّنة في كتب الأخلاق في باب الكذب، خاصّة إذا كانت مثل الجملة التي استخدمتها زليخا، فإنّها تثير الشك والإبهام وسوء الظن وتورد الاتّهام ليوسف البريء.

ويعتقد صاحب تفسير الكشاف في طرح زليخا للقضية بصورة غير صريحة وإعطائها طابعاً عامّاً وكلّياً بأنّ استخدام مثل هذه الجملة لها تأثير أكثر وأبلغ لتهديد يوسف عليه السلام وتخويفه[١].

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[٢] عندما التقىٰ يوسف عليه السلام العزيز لدىٰ الباب التزم الصمت مراعاة للأدب ولكي يُخجل زليخا من تصرّفها المشين، ولكن بعد مبادرة زليخا ومكرها ــ وهو دأب المجرمين ــ لم يجد للصمت مبرراً؛ لأنّ السكوت في هذه الحالة هو بمنزلة قبول التهمة، وكان لابدّ له من دفعها[٣]، وهكذا كشف يوسف الحقيقة وبدأ كلامه بكل بساطة دون التمسّك بالأدلة كما هو متعارف، تكلّم دون أي تملّق بعيداً عن الحدّة والتوتّر مثلما يتكلّم العظماء علىٰ طول التاريخ، وقال: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾، وهذا النوع من الكلام يصوّر مدىٰ استقراره الروحي وثقته بنفسه واطمئنان خاطره[٤].

والتزمت زليخا الصمت عندما صرّح يوسف بالحقيقة احتراماً له، وبالرغم من موقعها وسيطرتها لم تكذّبه، وبصمتها هذا لاتلجأ هي إلىٰ الكذب ولا تتّهم يوسف به.

شهادة لصالح يوسف

لايخفىٰ أنّ البيئة الاجتماعية التي كان القوم يقطنون فيها وقتئذٍ كانت مشوبة بالشرك، ولكن خلافاً لتلك البيئة فإنّ الفطرة الإلهية هي التي حكمت الموقف، فقد انبرىٰ شاهد حاضر في الحوار ــ دون انحياز الىٰ زليخا أو يوسف علىٰ الرغم من كونه من أهلها ــ ليبيّن قاعدة علميّة عامّة استقاها من فطرته

---

(١) تفسير الكشاف ٢ / ٣١٣.

(٢) يوسف ١٢/٢٦.

(٣) تأييداً لهذا الموقف ما جاء في حديث شريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من أنّه قال: «اتّقوا مواضع التهم».

(٤) أشار العلامة الطباطبائي إلىٰ هذه النقطة في تفسير الميزان ١١ / ٢٢٣.

السليمة؛ لفرز الحقّ من الباطل في مبادرة إنسانية وحلّ النزاع، فقال: **﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَت وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾**[١] ولما كانت هذه القاعدة فطرية لاتشوبها شائبة صدّقها العزيز: **﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قال إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾**[٢].

أنواع المكر وأهدافه

لعلّ الكلام عن مكر النساء هنا يثير في أذهان البعض تصورات سلبية؛ ولذلك فإنّنا نشير باختصار إلىٰ جذور الكيد، وهل يختصّ بالنساء ام لا؟ وهذا يحتاج إلىٰ مقدّمات سنتطرّق إليها تنويراً لأفكار القرّاء الكرام.

يمتاز الإنسان علىٰ سائر الحيوانات بأُمور، منها: الاحتيال، فالحيوانات تعتمد علىٰ قدرة عضلاتها، ولكنّ الإنسان سيطر علىٰ البيئة من خلال مزج القدرة مع الحيلة، فالمكر والكيد كلمتان مترادفتان يأتيان بمعنىٰ الاحتيال من أجل الوصول إلىٰ الهدف[٣]؛ ولذلك يعبّر عنهما بالتدبير أيضاً[٤]؛ لأن كلّ انسان يلجأ إليه من أجل الوصول الىٰ أهدافه، وتحقيق نواياه، ولكن :

أولاً : يجب أن ينظر تجاه من يريد أن يستخدمه؛ إذ إنّ الإنسان يجب أن يكون في حيرة أمام خالقه وربّه، كما قال الشاعر والعارف الفارسي مولوي ما مضمونه: سعيد من كان العجز والحيرة قوّته[٥]، ومعناه ليس للإنسان أن يعتمد علىٰ قوته وقدرته ولاعلىٰ مكره وذكائه، بل يعتبرها لا شيء أمام قدرة اللّه ومكره، وأن يقرّ له بالحيرة والعجز.

ثانياً: من أجل أي هدف وغاية يستخدم الحيلة والمكر، اذا كان الهدف سامياً

(١) يوسف ١٢/٢٦ ـ ٢٧.
(٢) يوسف ١٢/٢٨.
(٣) تفسير الميزان ١١ / ٢٣٤ نقلاً عن تفسير مجمع البيان.
(٤) قاموس القرآن ٦ / ١١.
(٥) خرّم آنكو عجز وحيرت قوت اوست.

والغاية ممدوحة فالمكر أيضاً يكون ممدوحاً واللجوء إليه يقرّه العـقل، وكـثرة الكيد من كثرة العقل؛ لأن الكيد يسهّل الوصول إلىٰ الهدف.

ومن هذا النوع من المكر هو مكر اللّه مع عبده: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾[1]، وكيد يوسف لإخوته يعتبر من هذا النوع، فعندما أراد يـوسف أن يأخذ أخاه أمر بوضع السقاية في رحل أخيه واستخرجها بعد ذلك منه وأبـقاه عنده في مصر جزاءً له، حيث قال القرآن الكريم: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ المَلِكِ إِلاّ أَن يَشَاءَ اللّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٍ﴾[2].

وفي المقابل فإنّ المكر والحيلة مذمومان إذا أُريد من ورائهما ظلم او تضييع حقّ واعتبار وكان الهدف قذراً.

ومن هذا النوع من الكيد ما لجأ إليه إخوة يوسف، حيث أوصى يعقوب ابنه يوسف محذّراً، ايّاه: ﴿يَابُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[3]. ويدخل في هذا الصنف من الكيد ما لجأت إليه امرأة العزيز والنسوة في مصر للإيقاع بيوسف، وكلا المثالين يعتبران من المكر المذموم والقذر، إلّا أنّ بينهما فروقاً كثيرة لابد من الإشارة إليها فيما يلي:

فإخوة يوسف احتالوا عليه؛ لأنّهم حسدوه علىٰ مكانته عند أبيهم وأرادوا أن يقتلوه، ولكن أخاهم الأكبر خالفهم في قتله وألقوه في البئر، فلجؤوا إلىٰ الكذب علىٰ أبيهم وادّعوا بأنّ الذئب أكله، وبعد مرور أعوام كثيرة علىٰ فراقهم له وبُعدهم عنه، وعندما أخذ أخوهم الأصغر بتهمة السرقة وكانوا في موضع الدفـاع عـنه أظهروا حقدهم الدفين ليوسف واتّهموه بالسرقة بعد مرور كـلّ هـذه الأعـوام: ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِن قَبْلُ﴾[4]، هكذا فعل أولاد يعقوب الذين ترعرعوا في أحضان الوحي، فهم لم يتورّعوا عن الكيد لقتل يوسف، وهو أكبر من الزنا، بل

(١) آل عمران ٣/٥٤.
(٢) يوسف ١٢/٧٦.
(٣) يوسف ١٢/٥.
(٤) يوسف ١٢/٧٧.

وقعوا الىٰ جانبه في الحسد والكذب والتهمة.

ولكن بالنسبة لكيد امرأة العزيز ونساء مصر، فإن يوسف كان يتمتّع بـمكانة خاصّة عند امرأة العزيز، فقد قامت بإكرامه ورعايته بنفسها، وما دعاها إلىٰالكيد به هو حبّها المفرط له ولشخصيته ولجمال وجـهه الذي طـغىٰ عـلىٰ حسـن سيرته وكماله، وجعل منه مَلَكاً كريماً في عينها. وكيدها ليوسف ـالذي كـانت تريد التمتّع الجنسي معه لم يتحقق لامتناعة وافتضاح أمرهاـ لم يـجرّها إلىٰ اتّهامه بالكذب أو بشيء آخر، فما قالته أمام زوجها كان قاعدة كليةً أرادت بيانها لعلّه ينصاع لأمرها، وقد اقرّت بعد ذلك بعصمة يوسف واعترفت بوقوعها فـي حبّه ولم تكتم الحقّ، وكان تهديدها بسجنه مكراً لم يتجاوز التهديد؛ اذ إنّ دخوله السجن جاء نتيجة قرار اتّخذه عزيز مصر و من حوله، حيث قال عزّ من قـائل: **﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِن بَعدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾**(١)، ففي هذه الآية لا توجد أي إشارة إلىٰ أنّ زليخا هي التي ألقته في السجن علىٰ الرغم من أنّها كانت قادرة علىٰ ذلك. والأكثر غرابةً هو اعتراف زليخا وإقرارها أمـام المـلك وعـزيز مـصر والنسوة عندما انبرت في الدفاع عنه بالقول: **﴿الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾**(٢).

وينقل اللّه سبحانه اقراراً لإخوة يوسف(٣)؛ إلّا أنّ هذا الاعتراف جاء من موقع الضعف أمام قدرة يوسف وعظمته ولايقاس باعتراف زليخا وهي في موقع القدرة دفاعاً عن عبد كان لها! فهو أشرف من ذلك بمئات المرّات.

وبهذه المقارنة الإجمالية يظهر الفرق بين كيد زليخا ومكر إخوة يوسف في الوقت الذي كانت زليخا تقطن في بيئة مشركة، وإخوة يوسف كانوا في ظل نبي من أنبياء اللّه.

---

(١) يوسف ١٢/٣٥.

(٢) يوسف ١٢/٥١.

(٣) يوسف ١٢/٩١.

وهنا نلفت نظر القارئ الكريم إلىٰآراء بعض المفسرين بهذا الخصوص، قال صاحب الكشّاف في ذيل ما قاله عزيز مصر: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾: علىٰ الرغم من وجود الكيد في الرجال أيضاً إلّا أنّ عزيز مصر يراه عند النساء أكبر؛ لأنّ النساء يمارسن الحيلة بدقّة وقوّة أكثر. ثم يقول: قال أحد العلماء إنّني أخشىٰ من النساء أكثر من الشيطان؛ لأنّ اللّه سبحانه قال: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾[1] في الوقت الذي قال عن النساء: ﴿إِنّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾[2].

وأشارت المجتهدة المرحومة أمين الإصفهاني في تفسيرها مخزن العرفان[3] إلىٰ هذا الرأي دون أيّ نقد أو تعليق.

أمّا العلامة الطباطبائي فقال في تفسير هذه الآية: السبب في ذلك وكلنا نعلم أنّ اللّه سبحانه جعل في الرجال ميلاً ورغبة في النساء، ولكنّه جعل في النساء أُموراً لكسب ودّ الرجال واستميالهم للنفوذ في أعماقهم، وذلك من خلال فتنتهن وأطوارهن السحرية لتسخير قلوب الرجال والسيطرة علىٰ عقولهم[4].

وبناءً علىٰ هذا مع الأخذ بنظر الاعتبار تلك المقدّمة الإجمالية التي سلف ذكرها يتّضح ما يلي:

أولاً: ﴿إِنّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ ليس كلام اللّه بل هو قول عزيز مصر، والقرآن الكريم نقل نصّ قول القائل دون تصديق أو تكذيب، إضافة إلى أنّه كلام عامّ كلّي يشمل الكيد الممدوح والكيد المذموم. وكما قلنا سابقاً: إنّ الكيد هو الاستفادة من الطرق العقلية، ومن كثر عقله كثُر كيده، اذن لا ينبغي قياسه مع كيد الشيطان وآية ﴿إِنّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾؛ لأنّ هذا كلام اللّه تعالىٰ ويراد منه الكيد المذموم، إضافةً إلىٰ أنّ المقصود في الآية ضعف كيد الشيطان أمام الكيد الإلهي حيث جاء في أولها: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا

(١) النساء ٤/٧٦.
(٢) تفسير الكشاف ٢ / ٣١٥.
(٣) مخزن العرفان ١٢ / ٣٦٠.
(٤) الميزان ١١ / ٢٢٥.

يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أولِياءَ الشَّيْطَانِ إنّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾[١]، ففي هذه الآية يأمر اللّه أولياءه أن يقاتلوا أولياء الشيطان دون أن يخشوهم؛ لأنّ كيد الشيطان أمام كيد اللّه ضعيف، فهل يمكن لنا قياس هذه الآية بذلك الكلام وهو قياس مع الفارق، ثم نستنتج أنّ النساء أسوأ من الشيطان، وكل العلماء يقرّون أنّ أوّل من قاس هو الشيطان؟!

ثانياً: أي ذنب أكبر: مؤامرة القتل التي كادها إخوة يوسف نتيجة الحسد، أم الزنا الناتج من الوقوع في الحبّ؟ فضلاً عن أنّ العلامة الطباطبائي يقول في ردّه علىٰ القائلين بأنّ يوسف لم يرتكب الزنا حفظاً لشأنه الأُسري: لو كانت الشأنية لها هذا الأثر البليغ لماذا لم تمنع إخوة يوسف من ارتكاب جريمة أكبر من الزنا؟[٢]

ثالثاً : في الآية الخامسة من سورة يوسف عندما يحذر يعقوب ابنه يوسف من أن يقصّ رؤياه علىٰ إخوته يختم قوله بعبارة: **﴿إنّ الشّيْطَانَ لِلإنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾**، أي إنّ الشيطان هو وراء كلّ الحيل والمكر بالباطل؛ لأنّه عدو للإنسان ذكراً كان أو انثىٰ، وبما أنّ الشيطان هو منشأ الكيد فلافرق بين كيد الرجل والمرأة. إذن ما أعجب وأدهىٰ كلام عالم يقول: إنّ كيد النساء أكبر من كيد الشيطان! واللّه العالم.

نعود ثانية إلىٰ ماقلناه سالفاً من أنّ ما يثير الانتباه اعتراف زليخا بذنبها دون أي وجل وبكلّ رزانة وهدوء، ولم تدع للعجز والتضرّع طريقاً إلىٰ نفسها.

كما نلاحظ أنّ ردود فعل زوجها العزيز في ذلك الموقف الحرج جاءت بكلّ طمأنينة ودراية دون استعجال أو تعرّض غير معقول ليوسف، ودون أن يفقد توازنه وتأخذه العصبية يطلب من يوسف الإعراض عن الأمر والاحتفاظ بالسرّ وحفظ شأن زوجته، ويأمر زوجته بالاستغفار عن ذنبها والتوبة: **﴿يُوسُفُ أعْرِضْ**

---

(١) النساء ٤/٧٦.

(٢) تفسير الميزان ١١ / ١٩٨.

عَنْ هَذَا وَاستَغفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الخَاطِئِينَ ﴾[١].

وسعىٰ بعض المفسرين إلىٰ حمل ردّ فعل العزيز هذا علىٰ فقدانه الغيرة والحميّة، إلّا أنّ العلامة الطباطبائي يقول بحق : إنّنا لا نقول بهذا، ولكن نقول: إنّ الآية تفيد أنّه كان يحب زوجته كثيراً[٢].

زليخا وموقفها من نساء مصر

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي المَدِينَةِ امْرَأَةُ العَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾[٣].

أدّىٰ اهتمام زليخا الخاصّ بيوسف إلىٰ كآبتها وتغيّر حالها وكشف سرّها عند الآخرين بحيث أخذت تتناقل الأفواه أنّ زليخا وقعت في حبّ شاب من غلمانها أو كانت قد تبنّته، وأدانوا في تحليلهم لموقفها هذا التصرف قائلين: **﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً ﴾**[٤] يرومون من ذلك أنّ حبّه أعمىٰ قلبها وجعلها تتصرّف دون وعي وأنساها موقعها وشأنها، و**﴿إِنّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾**.

والنسوة اللاتي لُمن زليخا علىٰ فعلها هنّ ايضاً ترعرعن في نفس البيئة الاجتماعية، إلّا أنّ التقوىٰ الذاتية والهداية التكوينية وطهارة النفس بالمدلول الثقافي تعتبر جزءاً من فطرة الإنسان؛ ولذلك يلقين باللوم علىٰ زليخا، ولكن لننظر كيف كان ردّ فعلها تجاههن.

﴿فَلَمّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَا لِلّهِ مَا هَذا بَشَراً إِنْ هَذَا

---

(١) يوسف ١٢/٢٩.

(٢) الميزان ١١ / ٢٢.

(٣) يوسف ١٢/٣٠.

(٤) شعاف القلب: غلافه الذي يحيط به. و **﴿شَغَفَهَا حُبّاً﴾** أي الحبّ الذي كاد أن يمزّق هذا الغلاف و يدخل القلب. انظر تفسير الكشاف ٢ / ٣١٢.

إلّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[١]. ممّا يُثير الانتباه قوله: **﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾** ولم يقل: فلما سمعت بقولهن، فإطلاق كلمة «مكر» علىٰ تحليلهن لا يخلو من فائدة، فلعلّهن أردن من قولهن هذا أن يُلصقن تهمةً بها، أو يسقطنها اجتماعياً وسياسياً، ومن ثَمّ الإيقاع بزوجها عزيز مصر والتنكيل به واحتلال موقعه؛ ولعلّه جاء بسبب تناقل هذا القول في غياب زليخا وبخفاء عنها كما هو الحال في الاحتيال الذي يسعىٰ الماكر إلىٰ اخفاء مكره[٢].

وبناء على ذلك عندما وصل زليخا هذا النبأ، ومن أجل تبرير حبّها ليوسف وتبديد المطاعن التي أرادوا بها تلويث سمعتها الاجتماعية والسياسية، من أجل ذلك كله دعت كلّ أُولئك النسوة إلىٰ بيتها وأعدّت لهنّ وسائل خاصّة للضيافة، وفي أوج مراسمها أمرت يوسف بأن يخرج إليهن، وعندما وقع نظرهن عليه كبّرنه كما تعبر الآية الكريمة بنحو كان يفوق تعظيم الإنسان ويسمو به فوق تصوّر البشر؛ ممّا يدلّ علىٰ أنّ هذا الشعور لم يكن نابعاً من حسٍ غريزي حيواني دنيء؛ إذ إنّ نطق أيّ كلام في حالة فقدان الوعي لا يخضع إلىٰ قواعد وقوانين التعارفات والتشريفات الخاصّة؛ ولذلك يكون الكلام مطابقاً للفطرة والباطن، ولو اتّصف حكمهن بالتظاهر والتمويه وكان مشوباً بالمظاهر الحيوانية لقالت الآية: وجدنه جميلاً، أو تعبيرات مادّية أُخرى من هذا القبيل، إلّا أنّها قالت: **﴿أَكْبَرْنَهُ ﴾**.

وهذا الإكبار يشير إلىٰالباطن والسلوك المعنوي ليوسف الذي يفوق المظاهر المادية، وما أجمل هذا التعبير القرآني عن لسان هؤلاء النسوة اللاتي اطّلعن علىٰ سريرة يوسف التي يحتاج إدراكها إلىٰ دقّة ونزاهة خاصّة.

إعجاب نساء مصر بيوسف

وهكذا صوّرت زليخا للنسوة مشاعرها وتصوّارتها لهذا الوجود الاستثنائي،

---

(١) يوسف ١٢/٣١.

(٢) ورد هذا الاحتمال عن الزمخشري في تفسيره ٢ / ٣١٦.

ولكن هذا الإيمان الجميل ينجرّ إلىٰ الانحراف للأسف، وهذا من الطبيعي؛ لأنّ الفطرة السليمة ستنغمر وتأفل إذا لم تستقرّ في مسيرها الحقيقي الصحيح.

والحب شعور مقدّس ووديعة إلـهية، وهو يشمل الحبّ الارْضي أيضاً، ولايجدر بنا أن نقول: إنّ الحبّ ينبثق دائماً من التوجّهات المادية، ففي بعض الأحيان تتمخض المشتركات العقائدية وجمال السيرة والباطن عن حبٍ طاهر، ولكن المهم هو المصير الذي يؤول إليه هذا الحبّ، فهل يؤدّي إلىٰ التذاذ مادي سرف، أم إلىٰ علاقة معنوية طاهرة تماماً؟ أو لعلّه يكون وسيلة للوصول إلىٰ العشق الإلـهي بحيث إنّ التجاذب المادّي يؤدّي إلىٰ تذوّق طعم العشق القدسي الإلـهي ولو للحظة واحدة بنحو يجرّ العبد الغارق في الحجب الىٰ الطريق السوي وينقذه من الانحراف، ولكن إذا لم يحصل ذلك التوجّه ولم يكتشف ذلك الطريق عندئذٍ لا يوفّق لاجتيازه، ويتحوّل العاشق إلىٰ طائر سريع حائر في السماء، يحلّق في آفاق أحلامه حتىٰ يملّ ويسقط في نهاية المطاف بمستنقعٍ ما.

وعلىٰ أيّة حال فإنّ نساء مصر عندما رأين يوسف استغرقن في جماله ممّا أنساهن أنفسهنّ وفقدن وعيهن، **﴿وَقَطَّعْنَ أَيدِيَهُنّ وَقُلْنَ حَاشَا لِلّهِ مَا هَذَا بَشَراً﴾** بل هو أرقى من البشر وأعظم، وهذه العظمة لا تنسجم مع عالم الحيوان **﴿إِنْ هَذَا إِلّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾**، فسيرته الباطنية كانت طاغية علىٰ ظاهره متلألئة خلف صورته الظاهرية، ذلك الباطن النقي المملوء هيبة ورزانة وحياء، وكلّ هذه العظمة والحسن مستورة خلف الحجاب، ولكن ما كان يبدو جلياً ظاهراً من جوهرة يوسف الوجودية أنّه لم يكن جمالاً سرفاً فقط، فلو كان كذلك لقالت النسوة: إن هذا إلّا ملك جميل.

إذن كانت عظمته وشخصيته تكمن في كماله وكبريائه؛ ولذلك قالت النسوة: **﴿إِنْ هَذَا إِلّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾**؛ ممّا يدلّ علىٰ أنّ استغراقهن لم يكن لجماله الظاهري[1]

(١) إذا أمعنا النظر في الآيات لا نجد فيها إشارة إلى جمال يوسف، بل الذي يبدو جلياً هو القيم والكمالات

بتاتاً إن صحّ القول، بل شغلهنّ كماله وجلاله الذي كان مظهراً من كـمال اللّـه وجلاله بحيث رسخ في اعماق قلوبهن.

وهذا الاستيعاب الجميل والتعبير الدقيق والصافي لم يصدر إلّا مـن جـانب نسوة مصر، في الوقت الذي كان الرجال محرومين من هذا التصوّر، حتىٰ عزيز مصر لم يعرف يوسف حقّ معرفته، في الوقت الذي كانت هذه البداية الجميلة شروعاً لشغف زليخا بحبه.

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾[1]. وهكذا هيّأت زليخا الظروف لتـوجيه تصرّفاتها، وخير دليل وبرهان يستدّل به ما كان محسوساً ملموساً، فهو أبلغ من البيان؛ حيث إنّ المخاطب يلمس الحقائق بنفسه دون واسـطة؛ ولذلك نـراهـا تقول للنسوة بعد رؤيتهن ليوسف: **﴿فَذَٰلِكُنَّ**[2] **الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾** لانشغافي بحبه، وعرفتن جيداً بأنّ حبي له لم يكن دون سبب، أجل أنا راودته ودعوته، وها أنا ذا اعترف بهذه الحقيقة، إلّا أنّه استعصم وامتنع واتّقىٰ ورفض طلبي ولم يستجب لي؛ ولهذا يبدو أنّ عصمة يوسف وطهارته كانت امراً مسلّماً لدىٰ زليخا وكـانت تفتخر به، ولولا ذلك لما قالت هذه الكلمات المادحة، بل كـانت تـقول كـلمات شامتة ونابية، فهذه التعبيرات الجميلة تحكي عن قـداسـة يـوسف وطـهارته وعظمته.

ومع ذلك كلّه فهي بعد اقرارها بـعظمة يـوسف ومـنزلته تسـتغلّ مـوقعها لتهديده وتقول: **﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ﴾** ثـم تـقول: **﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ**

← المعنوية.

(١) يوسف ١٢/٣٢.

(٢) إن استخدام اسم الاشارة للبعيد: «ذلك» بمعنىٰ «هذا» للقريب يـدلّ عـلىٰ الشأن والمـنزلة التـي كـانت ليوسف عندها، حيث اعتبرته في شأن رفيع لا يصل إليه أحد. قال ذلك صاحب الكشاف ٣١٨/٢ وأضاف: لكي ترفع من شأنه في الجمال وتقول لهن: إنّه يستحقّ أن أقع في حبّه.
ونحن نقول: إنّ سبب رفع شأن يوسف لم يكن بسبب جماله، وهو لم يثبت لدينا.

الصّاغِرِينَ ﴾ ممّا يدل علىٰ أنّ يوسف كان حتىٰ ذلك الحين معززاً محترماً ومكرّماً؛ ولذلك فهي تهدّده وتتوّعده بأنّه إذا لم يستجب لها ليكونن كسائر الغلمان والعبيد. فهو إما أن يستجيب لها وينزل عند طلبها ويبقى معزّزاً مكرّماً كما كان سابقاً وكما أوصىٰ به العزيز يوم أتىٰ به، وإما أن يكون مثل سائر العبيد محقّرا ومن الصاغرين ويدخل السجن اذا لم يستجب، فهو حرّ وله حرية الاختيار.

وهنا أيضاً تبقى زليخا علىٰ موقفها من احترام يوسف وتخيّره لكي هو يختار بنفسه، ولكن يوسف كما تعلمون اختار السجن لكي لا يدخل قلبه حبّ غير اللّه.

دخول يوسف ﷺ السجن

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾(١).

ارتأى رجال الدولة بعد أن تظافرت الأدلّة علىٰ نزاهة يوسف وطهارته أنّ بقاءه بهذا الشكل قد يجرّهم إلىٰ مشاكل هم في غنىً عنها فالأفضل أن يُدخلوه السجن؛ إذ لم يجدوا حلّاً آخر، وباعتقاله سيكون بعيداً عن الأنظار، وبمرور الزمان يدخل موضوعه طور النسيان وتُطفأ نار هذه الفتنة وتعود الأُمور إلىٰ مجاريها العاديّة. وهكذا ألقوه في السجن إلى أجل غير محدّد.

وأثناء وجوده هناك يرىٰ الملك في المنام حلماً غريباً يؤدّي إلىٰ تطوّرات مهمّة في حياة يوسف وزليخا، يخرج بسببه يوسف من السجن، وينقذ زليخا من همّ فراقه وحبّه الذي كاد أن يهوي بها إلىٰ الضلال.

وعجز علماء البلاط ومفسّرو الأحلام في مصر عن تعبير حلم الملك، وعندئذٍ تذكّر ساقي الملك يوسفَ الذي قضىٰ أعواماً في السجن معه، وكيف عبّر حلمه وصدق تنبّوئه، فقصّ قصّته علىٰ الملك واستأذنه في الذهاب إلىٰ يوسف في

---

(١) يوسف ١٢/٣٥.

السجن ليعبّر له حلمه.

وبعد أن جاء بتعبيره ﴿**قَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ**﴾[1]، ولمّا رأىٰ الملك في يوسف قابليات ومواهب دعاه إلىٰ قصره وطلب منه تولّي الأُمور، وبهذه الطريقة السليمة، ودون أي توتّر وضجيج وقمع، وبطلب من يوسف واستجابة من الملك تبدأ حكومة الأنبياء في مصر علىٰ يد يوسف.

ويظهر من الآيات القرآنية الآنفه أنّ يوسف اختار مسؤولية وزارة الاقتصاد في مصر من بين المسؤوليات التي عُرضت عليه، و﴿**قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ**﴾[2]، وبهذه الطريقة يهيّئ الأرضية لحكم اللّه، ولكن لماذا اختار يوسف مسؤولية تدبير اقتصاد مصر الذي كان يعاني منه البلد حينذاك؟ إنّه بحدّ ذاته موضوع يحتاج إلىٰ دراسة وبحث.

ولكن علىٰ الرغم من الموقع الحسّاس الذي كان في انتظار يوسف وتقرّبه للملك، اشترط للخروج من السجن مراجعة ملفّه القديم وتثبيت براءته والإقرار بنزاهته بعد أن حُبس تلك المدّة الطويلة؛ لئلا يشكّ أحد في براءته ويبدّد كلّ غيوم الشكّ والتّهم التي حيكت له.

والجدير بالذكر أنّ طلب يوسف بصدور قرار براءته والإقرار بنزاهته هو بيان عامّ أيضاً لكلّ المجتمع، يشير فيه إلىٰ نزاهة واحترام النسوة اللواتي مرّ الحديث عليهن والتجاوز عن تقصيرهن، فهو يعلم بأنّ تصرّفهن كان فطرياً سليماً ناتجاً من علل غريزية نزيهة، كما أنّه يعلم بأنّ المرأة هي أساس المجتمع وتلويث سمعتها ينعكس سلبياً علىٰ المجتمع بأسره، فقد دأب كلّ الأنبياء علىٰ تكريم المرأة في المجتمع وحفظ شأنها، وفي مقدّمة ذلك ما جاء من كلام اللّه في القرآن الكريم، فمن خلال إلقاء نظرة خاطفة علىٰ الآيات الواردة بهذا

---

(١) يوسف ١٢/٥٠.

(٢) يوسف ١٢/٥٥.

الخصوص نلمس مدىٰ الاحترام المحفوف برأفة تتخلّل تلك الآيات.

ويقول يوسف لرسول الملك لما جاءه في السجن: **﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾**[1]. وبهذه العبارة الموجزة والجميلة والكنائيّة البعيدة عن الفضح والإهانة، والخالية مــن أيــة إشــارة إلىٰ زليخا التي كانت مبدأ كل تلك الوقائع، أراد يوسف كشف كلّ الحقيقة للجميع.

وهذه الطريقة في الخطاب وعدم كشفه للأسرار هي في حدّ ذاتها تبعث علىٰ التأمل، فهو لم يصرّح بمراودة النسوة له، بل راعى حريم عفتهن، وبالرغم من أنّه كان يعرف الجواب تماماً إلّا أنّه أراد ان تنكشف الحقيقة للجميع بنحو لايتعرّض بصراحة لأي أحد في سؤاله هذا، فهو يستسقي كلامه مـن التـعاليم الإلهـية القائلة بلزوم إظهار ما هو جميل وستر كلّ قبيح: «يامن أظهر الجـميل وسـتر القبيح...».

إضافة إلىٰ ذلك لم يُشر يوسف إلىٰ كل ما جرىٰ عليه هذه المدّة من زليـخا ونسوة مصر، واكتفىٰ بالإشارة إلىٰ تقطيع أيديهن فقط، أي الحادث الذي يحكي عن فقدان الوعي والانبهار، وهو حالة روحية وجدانية عرفانية تطغىٰ فيها الروح المعنوية علىٰ الجسم المادي، بحيث يفقد فيها الشخص انتباهه إلى جسمه واهتمامه به، فهو لا يشعر بالألم والجرح الجسدي الذى هو أمرٌ طبيعي، ولكن بعد انتهاء ذلك الانبهار والشوق ينتبه إلىٰ ما أصابه من ألم وجروح.

وعلىٰ أية حال فإنّ موقف يوسف كان محفوفاً بالوقار والأدب، وكلامه جميلاً وكنائياً يذكّر فيه بالموقف الخاطئ الذي انحرف عن مساره الأصلي.

كشف الحقيقة ودفاع زليخا عن يوسف

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ

---

(١) يوسف ١٢/٥٠.

﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾[١].

عندما أحضر الملك النسوة سألهن عن مراودتهن ليوسف وما آل إليه الأمر وما هو خطبهن[٢]، فأجبن النسوة الحاضرات: **﴿حَاشَا لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾** وهكذا تعترف النسوة بنزاهة يوسف في الوقت الذي كان بإمكانهن توجيه التهمة له.

أول من نزّه يوسف وبرّأه هنّ النسوة بقولهن: **﴿حَاشَا لِلَّهِ﴾** وهي العبارة التي تستخدم في مقام دفع الخطأ والسوء والذنب بشدة عن الشخص، حيث استخدم النسوة نفس هذه العبارة عندما رأين يوسف لأوّل مرة في بيت زليخا. إذن اعترف النسوة مرّتين ببراءة يوسف ﷺ، ولكن زليخا لم يخاطبها يوسف ولا الملك ولا النسوة، فلم يذكرها أحد ولم يتّهمها ولم يلقِ أحد تقصيره وذنبه عليها، وبالرغم من أنّ شهادة النسوة كانت كافية لتثبيت براءة يوسف، إلّا أن زليخا لم تُجز لنفسها الصمت ولم تدع مجالاً لضميرها الحيّ أن يؤنّبها، فهي التي احتضنته ورعته وغلب عليها الشعور بالأُمومة والغيرة، إذ إنّ يوسف كان في موقع يستحقّ الدفاع عنه، ويشعر المجتمع بحاجته إليه لعلمه وحكمته، وزليخا التي كانت في موقع قوّة تضحّي بموقعها لتلبّي هذه الحاجة الاجتماعية، وتقول بكل صراحة ووضوح من غير مقدّمة، وتعترف بشجاعة بالحقيقة وتقرّ بذنبها وتقصيرها وتبرّأ يوسف.

وهذا الاعتراف يتطلب ضميراً حياً، فالذي غرق في الرذيلة وارتكب الذنوب والمعاصي لايعترف بهذه السهولة والصراحة ويدافع عن عبد له في موقع أدنىٰ منه مستوىً في المجتمع، فتضحّي بسمعتها للدفاع عنه وحفظ سمعته.

وهذا الموقف ما اتخذه حتىٰ إخوة يوسف من أخيهم عندما اتّهموه بالسرقة، فهم لم يدافعوا عنه فحسب بل نسبوا إليه السرقة أيضاً.

---

(١) يوسف ١٢/٥١.

(٢) الخطب هو أمر عظيم يحق أن يخاطب فيه.

وزليخا قالت جملة ذات معنىً ومغزىً كبير في ذلك الموقف المصيري الحساس، قالت: **﴿الآنَ حَصْحَصَ الحقُّ﴾**، أي حقّ؟ العصمة والنزاهة والتقوىٰ؟ انحرافها ونزاهة يوسف؟ أو كل ذلك؟

وعلىٰ أيّة حال لقد ظهرت الحقيقة وزليخا هي التي أظهرتها واعترفت بها، وكلّ هذا كان بياناً وبلاغاً للناس علىٰ مدى التاريخ وهو: أنّ الفكر السليم النافذ والفطرة السليمة والعصمة والنزاهة والتقوىٰ تنتصر مهما بلغ الأمر، لاالمكر والاحتيال والرذيلة.

وتستمر زليخا بالقول: **﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ﴾**. وهذا الإقرار جاء بنفس العبارة التي قالها يوسف في حينها للعزيز: **﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾**(١) دون اي تغيير تأييداً لكلامه.

وبعد أن انتهت زليخا من إقرارها وكشف الحقيقة قال يوسف: **﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَايَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾**(٢). هنا يبدو أن يوسف يريد أن يعتذر في هذا الموقف ويوضّح السبب في أخذ الإقرار من النسوة، فيقول: إنّي لم أقصد أن أفضح أحداً ولكنّي أردت أن تظهر الحقيقة بكلّ جلاء للجميع؛ ليعلم عزيز مصر بأنّي لم أخنه في غيابه قط.

وهنا لابدّ من الإشارة إلىٰ أنّ هناك خلافاً بين المفسّرين في من قال هذه الكلمات، فالبعض(٣) يعتقد أنّ هذه الكلمات هي استمرار لكلام زليخا؛ لأنّ كلمة **﴿ذَٰلِكَ﴾** في أوّل الآية تدلّ علىٰ الاستمرار في الكلام، وتريد زليخا أن تتبيّن السبب في اعترافها وإقرارها، فلو إن هذه الآية والتي تليها نسبناهما ليوسف لحصل نوع من التناقض والضدّية بينهما؛ ففي الآية الأُولىٰ يقول: **﴿إنّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾**، وفي الآية التي تليها يقول: **﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾**(٤)، فإذا أراد ان يثبت

---

(١) يوسف ١٢/٢٦.
(٢) يوسف ١٢/٥٢.
(٣) التفسير الأمثل، الجزء ٩.
(٤) يوسف ١٢/٥٣.

لعزيز مصر بأنّه بريء فهو كان يعلم مسبقاً بـذلك، وهـو الذي قـال لزوجـته: ﴿اسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الخَاطِئِينَ ﴾[١].

ومع كل هذا، فيرد على الدليل ما يلي[٢]:

أولاً: إنّ كلمة ﴿ذَلِك ﴾ تعود إلىٰ فعل يوسف، أي إنّني طلبت الإقرار والاعتراف لكي... ولذلك جاءت كلمة ﴿ذَلِك ﴾ لتشير إلىٰ البعيد، ولو كان المراد استمرار قول زليخا لاستخدمت كلمة «هذا» أي اعترافي هذا...

ثانياً: لو كان هذا الكلام منسوباً لزليخا فهو أيضاً فيه تناقض؛ لأنّ الجـملة تصبح بهذا المعنىٰ: لكي يعلم يوسف أنّي لم أخـنه بـالغيب. فـي الوقت الذي يتناقض سكوتها في الفترة التي قضاها يوسف ﷺ في السجن مع ذلك، ولكن إذا كان الكلام منسوباً ليوسف فلانجد فيه اي تناقض، ويصبح المعنىٰ هكذا: إذا طلبت الاعتراف والإقرار لم يكن ذلك من باب الغـرور والتكـبّر، فـنفسي أيـضاً تأمرني بالسوء إلّا ما رحم ربي إذا لم ألجأ إليه، وطلب الإقـرار كـان مـن أجـل الخروج من موضع التهمة، وهذا واجب علىٰ كلّ مؤمن.

ومن بين المفسرين نجد العلّامة الطباطبائي[٣] والمجتهدة المرحومة أمين الإصفهاني[٤] وكذلك صاحب تفسير الكشاف[٥] أجمعوا على أن هاتين الآيتين هما من كلام يوسف.

﴿وأنّ اللّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينِ ﴾ ويستمر يوسف في كلامه، ويغتنم الفرصة فيذكر اسم اللّه في ذلك المجتمع المشوب بالشرك ويذكر كلمة ﴿اللّـهَ ﴾ التـي قالوها مراراً، فيقول: ﴿وأنّ اللّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ ﴾ بل يعيد كيد الخائنين إلىٰ أنفسهم. وما قاله يوسف بأنّ عدم هداية الكيد يختصّ بالخائنين يُظهر أنّ اللّه

---

(١) يوسف ١٢/٢٩.

(٢) هذا الدليل فيه خدش ليس بمعنى أنّنا لا نعتقد بأنّ هذا الكلام منسوب ليوسف.

(٣) تفسير الميزان ١١ / ٣٠٨.

(٤) تفسير مخزن العرفان ١٢ / ٣٨٧.

(٥) تفسير الكشاف ٢ / ٣٢٧.

لايهدي الكيد السيّئ المذموم إلىٰ هدفه، ولكن كيد من لايقصد الخيانة ككـيد يوسف فإنّه يهديه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾[١].

النفس أمّارة بالسوء لولا الرحمة الإلـٰهية

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ويستمرّ يوسف في كلامه من أجل إيضاح الموقف والرفع من شأن مخاطبيه وإضفاء أهمية على القضية قائلاً: أنا الذي اعتَبر إنساناً نـزيهاً فـي رأيكـم ولم اقترف أيّ ذنب أنا أيضاً لي نفسٌ أمّارة تأمرني بالسوء، ولي غريزة تـجرّني إلىٰ الرذيلة؛ ولذلك فإن طلبي بأخذ الإقرار والاعتراف ببراءتي منكن لا يعني تـبرئة نفسي وتحريضكم علىٰ الإقرار بالذنب، فأنا أيضاً لولا علاقتي وثقتي باللّه ربّي لأمرتني نفسي بالسوء أيضاً، ذلك الربّ الذي رحمته تشمل كل النفوس لكي لا تنصاع لأوامر النفس الأمارة.

فكلام يوسف هذا يعتبر في حدّ ذاته توجيهاً لما وقع مـن أحـداث، وتـنبيهاً وهداية للذين لم يملكوا زمام السيطرة علىٰ نفوسهم، وفي النهاية يـفتح بـاب الأمل لهم: بأنّكم إذا لم تدخلوا تحت رحمة اللّه لحد الآن، فما زال هناك متّسع من الوقت ولم تفت الفرصة، ارجعوا إلىٰ اللّه وتمسّكوا بحبّه فهو الحب الواقعي، فإنّ ربي غفّار ذو رحمة واسعة، وعفوه أكثر بكثير ممّا تظنون ولا يخيّب من رجاه.

كما أنّ يوسف باستعماله لكلمتي: «ربي» و«الرحمة» يسدّ باب العقاب؛ لكي لا يخطر ببال الملك أو من حوله معاقبة هؤلاء النسوة؛ ذلك لأنّ اللّه رحيم وغفّار للذنب، وبهذا الكلام الجذّاب يلطّف يوسف جوّ المجلس بأدب وعـطف ورأفـة، ويضفي عليه الهدوء والطمأنينة.

وهكذا ينتهي كلام اللّه عن هذه القضية، هـذا الكـلام الذي يـموج كـالبحر ويغلي، وله بطون لا تنتهي وتأويلات لا تنضب. وهكذا يظهر سقم واستبعاد تلك

---

(١) يوسف ١٢/٧٦. وانظر مفردات ألفاظ القرآن / ٤٤٣.

الأحاديث المجعولة[١] التي تنهى عن تعليم هذه السورة للنساء، في الوقت الذي نرىٰ أحاديث أُخرىٰ تتعارض تماماً معها وتحثّ علىٰ تعليمها للأُسر[٢].

وأجمع كلّ المفسّرين على أنّ هذه السورة خالية من الكلمات المستهجنة والمحرّكة والمثيرة، وقد لاحظ القارئ الكريم أنّ كلّ الأُمور جاءت كنائية فيها، ونقلت الحكاية وكل الوقائع برزانة وسلاسة مليئة بالحكمة والموعظة وبعيدة كل البعد عن الكلمات النابية والقبيحة.

إذن كيف يمكننا أن نذعن للذين يستندون إلىٰ الروايات من النوع الأول، ويعتقدون بمنع النساء من قراءتها؛ لأنها مثيرة لهنّ كما يزعمون، في الوقت الذي يذعن كل من يأنس بالقرآن بسقم هذه الأدلة؛ لأنّها تعتبر إهانة للقرآن الكريم المليء بالنبل قبل أن تكون إهانة للنساء المسلمات المحترمات.

ولا حظتم من خلال ما قلنا بأننا لا نريد تبرير ساحة زليخا ولا إثبات نزاهتها وتقواها، بل أردنا أن نشير إلىٰ القيم الإنسانية التي كانت تتحلّىٰ بها علىٰ الرغم من انحرافها عن طريق الحق، ومن تلك القيم: الإقرار بالحقّ، والدفاع عن الحقيقة في موضع القوّة، والحياء والرزانة في الكلام، والامتناع عن اتّهام الآخرين، وعدم الجزع والاستعجال المؤدّيين إلىٰ طمس الحقائق؛ ممّا يُبطل كثيراً من القيم السلبية التي ينسبونها للمرأة أو يرسم أمامها علامة استفهام.

---

(١) انظر التفسير الأمثل، الجزء ٩، والجزء ٥ .

(٢) مجمع البيان ٣ / ٢٠٦.

الفصل الخامس

المرأة والأُمومة

المرأة والأُمومة

الأُسرة هي أوّل نواة تصوّر الخصيصة الاجتماعية عند البشر الذين خـلـقوا ليعيشوا جنباً إلىٰ جنب مع أبناء جنسهم، وتشكـيل الأُسـرة يـعتبر مـن أولىٰ ضرورياتهم، حتىٰ الأنبياء لا يستثنون من هذه القاعدة، فهم بشر كما قال القرآن الكريم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَـيَّ﴾[1]. وكان لابدّ لهم من اختيار زوجات لكي يساهموا في إبقاء النسل البشري وينجبوا ويتكاثروا، ولابدّ لزوجاتهم من حيازتهنّ لاستعدادات خاصّة واستقامة تتناسب مع المسؤولية الملقاة علىٰ ذلك البيت النبوي؛ ولهذا السبب فإنّ احتلال موقع زوجة النبي لا يضفي على شخص الزوجة شرفاً وقيمة، ولايعتبر لها امتيازاً خاصّاً إذا لـم تتّصف بـمعاشرة جُـلّها صفاء النيّة والصدق والوفاء والتصديق والتسليم للحقّ؛ لكي لا يتصوّر الناس أنّ لكلّ امرأة تزوجت من نبي شأناً ومنزلة حقيقية.

والقرآن الكريم اتّخذ موقفاً واضحاً وملموساً تجاة زوجات الأنبياء اللاتي لم يتمتعن بصفات إنسانية تتناسب وشأن النبوّة، فقد لاحظنا فيما سبق أنّ زوجتي نوح ولوط عليهما السلام كانتا مثالين بارزين لم يكن لانضمامها لأُسرة الانبياء تأثير فـي سلوكهما الملتوي ووقوفهما أمام الحقّ، ولم يوفّر لهما غطاءً يسـتر ذنـوبهما

---

(١) فصلت ٤١/٦.

ويدخلهما في الغفران الإلـهي؛ لأنّ الإنسان يجب أن يتّخذ قراره بنفسه، فكسب المراتب الدنيوية والانتماء أو عدم الانتماء لأُسرة خاصّة لا يحقّق منزلة وكرامة للفرد تميّزه عن الآخرين؛ لأن اللّه عزّوجلّ قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[١].

ومن بين النساء اللاتي أشار إليهن القرآن الكريم والدة النبي يوسف ﷺ، تلك المرأة التي عاشت في بيئة ربّانية دون أي ادّعاء قانتة للّه، مصدقة للدعوة التي جاء بها زوجها للناس؛ ولذلك نجد القرآن الكريم يخصّها بـالتقدير لا بـالألفاظ فقط بل في عالم الواقع والمعنىٰ أيضاً عندما ينطق عن لسان يوسف بالقول:

﴿إِذ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[٢]. هنا يتحدّث يوسف عن واقع انكشف له في عالم الرؤيا؛ اذ إنّ روحه في الرؤيا تلمس حقائق العالم وبيانه لها ليس مجرّد تقديس لفظي، بل هو إدراك حقيقي لعالم المعنىٰ[٣].

ففي رؤياه هذه تظهر الشخصيات علىٰ شكل القمر والشمس والنجوم وهم ساجدون، والتعبير بالسجود المختص بذوي العقل للقمر والشمس والنجوم كان يريد يوسف منه القول بأنّ سجود هذه الكواكب كان مبنيّاً علىٰ العلم والإرادة، وكان كسجود العقلاء.

وقد تحدّثنا عن الشمس وموقعها وعظمتها لدى القدماء في حكاية بلقيس[٤]، فالشمس هي النير الأعظم الذي كله نور وليس له وجه ولاظهر، وهو نيّر ومنير بذاته، ولكن القمر الذي ينير الليالي المظلمة ليس منيراً في ذاته إلّا أنّه كالمرآة يعكس نور الشمس. وبزوغ القمر في غياب الشمس، واستقبال نور الشمس وعكسه كالمرآة، وجماله في الليالي المقمرة، ووصفه بالبدر كلّها تحكي

---

(١) الحجرات ١٣/٤٩.

(٢) يوسف ٤/١٢.

(٣) يقول الشيخ الطبرسي عن الرؤيا: هي تصوّر لمعنىً في النوم. انظر مجمع البيان المجلد ٣، الجزء ٥ / ٢٠٩.

(٤) يمكن الرجوع إلىٰ فصل المرأة والحكم في هذا الكتاب.

عن منزلة الشخصية التي رآها يوسف في المنام.

﴿فلمّا دَخَلُوا عَلىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إلَيهِ أبَوَيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إن شَاءَ اللّهُ آمِنِينَ﴾[1]. فبعد أن رأى يوسف تلك الرؤيا بدأت حياته الخاصة، واجتاز كلّ المراحل التي أشرنا إليها في قصّة زليخا بالتفصيل، فيحتلّ موقعاً مرموقاً، ويصبح ملكاً عادلاً صالحاً ذا شوكة تفتخر به الأُمة في مصر، وهو عندئذٍ بعيد عن أُسرته، ولكن هذا الفراق لم يدم؛ إذ دعا والديه إلىٰ مصر لينقذهم ونفسه من ألم الفراق، وعندما وصلوا إلىٰ بوابة المدينة ـ وكما تصوّر الآية ـ هرع يوسف إلىٰ استقبالهم خارج المدينة وضمّهما إليه بكلّ عطف وقال لها ببالغ الاحترام وكمال الأدب: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إنْ شَاءَ اللّهُ آمِنِين﴾[2]، فهو علىٰ الرغم من قدرته وسيطرته يذكر المالك الواقعي في كلامه؛ لكي لا ينسب الأمن لنفسه، بل يعتبره من نعم اللّه عليه، فاستقباله لأبويه وتصرّفه معهما على حد سواء علىٰ الرغم من أنّ أبيه نبي من أنبياء اللّه أمرٌ يبعث علىٰ الدقّة والتأمّل.

رفعة مقام الأب والأُم

﴿وَرَفَعَ أبَوَيْهِ عَلَىٰ العَرْشِ وَخَرّوا لَهُ سُجّداً وَقَالَ يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤيايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبّي حَقّاً وَقَدْ أحْسَنَ بِي إذْ أخْرَجَنِي مِنَ السّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِنَ البَدْوِ مِن بَعْدِ أن نَزَغَ الشّيطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إخْوَتِي إنّ رَبّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إنّه هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾[3].

فمن خلال التدقيق في هذه الآية يظهر بجلاء أنّ المراد بالقمر والشمس في تأويل رؤيا يوسف هما أُمّه وأبوه، فأبوه الذي هو نبي من أنبياء اللّه ومن الرجال الصالحين يحتلّ موقع الشمس، وأُمّه المرأة الصالحة التي عاشت في بيت النبوّة وحفظت شأن هذا الموقع، كالقمر اقتبست الأنوار الإلـهية وعكستها

---

(١) يوسف ١٢/٩٩.

(٢) يوسف ١٢/٩٩.

(٣) يوسف ١٢/١٠٠.

كالمرآة في الليالي المظلمة؛ لتنير طريق من ضلّ عن السبيل فيهتدي إلىٰ الحق.

وقد رسم القرآن لها شخصية سامية على الرغم من عدم تعرّضه لذكرها في سورة يوسف إلّا بثلاثة مواضع، فهي كالقمر في رعايتها للرسالة، وهي كالمرآة في اقتباسها وإشعاعها لنور النبوة، إذ رافقت زوجها وتحمّلت الفراق بصلابة، وكانت مرآةً له في مقاومته وآماله.

وهذا العرض المقتضب والتشبيه والتأويل المختصر ذو المعاني والمفاهيم الواسعة، هو ليس إلّا إيجاز اعجازي يكشف عن مقام إمرأة لا يعرف شأنها ومنزلتها إلّا اللّه تبارك وتعالىٰ لفظاً ومعنىً.

ويرفع يوسف أبويه علىٰ العرش والكرسي الذي تجتمع فيه زمام الأُمور ومقاليد الحكم، وتصدر منه الأوامر الملوكية[1] فيستفاد من هذا الموقف أنّ يوسف أبىٰ أن تبقىٰ أُمّه كامرأةٍ تختفي وراء الحجب معزولة عن المجتمع، بل أرادها أن تحضر أمام الملأ بشكل عيني في مركز اتّخاذ القرار، فأُمّه تحظىٰ بهذا المقام والمرتبة بحيث تجلس إلىٰ جانب زوجها ـ وهو نبي وهي تشرف علىٰ رجال البلاط ومستشاري الملك ـ على كرسي جلس عليه يوسف ليتصدّىٰ لزمام الحكم، أجل بلغت مقاماً بلغه زوجها وابنها وهما نبيين لابسبب علاقتها وقرابتها بهما، فامرأة نوح كانت زوجة نبي أيضاً، بل بلغته بشخصيتها هي بالذات، ممّا يدلل علىٰ أنّها عرفت طريق الحقّ فتمسّكت به، ومَنّ اللّه عليها بهذا المقام الرفيع لصبرها وإيمانها.

وقد سجدا هي وزوجها ليوسف شكراً لله علىٰ تفضّله وتنعّمه، واعتبر يوسف هذا الموقف تأويلاً لرؤياه في صغر سنه ويذكّر أبوه به، ويقول: **﴿يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً﴾**.

(١) تفسير الميزان ١٥ / ٥٥٣.

الفصل السادس

كياسة المرأة

كياسة المرأة

التاريخ كتاب معبّر وعميق يحكي عن حضور البشر في ربوع المجتمعات باختلافها وانواعها، ويرسم موقع كلّ إنسان حيّ قام بدور بارز على سطح المعمورة، كما يعرض للأجيال الحروب التي دارت بين الشر والخير، وغلبة الظلم والاستبداد بشكل مؤقّت وانتصار العدل والحرية بنحو دائم، و تظهر فيه الأدوار البارزة لكلّ إنسان سلباً وايجاباً.

والتاريخ في حقيقته مظهر لما كان وما يجب أن يكون لكي نستقي منه درس ما يجب أو ما لا يجب فعله؛ وعلى هذا فإنّ تصفّح أوراق التاريخ أو كما عبّر عنه القرآن الكريم بـ «السير في الأرض» يعتبر من الأُصول المهمّة التي يجب التوقّف عندها، حيث قال عزّ من قائل: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾[1] فقد تكرر مضمون هذه الآية في مواضع كثيرة في القرآن الكريم؛ تذكرةً لنا نحن الاحياء لئلا تشغلنا الحياة التي نحن فيها ونغفل عمّا جرىٰ في الماضي من وقائع وأحداث؛ لأنّ السنن التاريخية الثابتة تتكرّر باستمرار ويمكن أخذ العبر والدروس من كلّ ما مضىٰ.

---

(١) المؤمن ٤٠/٢١.

فذكر الماضين والاهتمام بالأحياء والالتزام بالتقوىٰ والدقّة في اتّخاذ القــرار في المنعطفات التاريخية يعطي في حدّ ذاته صلابة الوقوف والتصدّي لكلّ ما هو معادٍ للقيم، وينير الدرب لمعرفة ما هو مجدٍ ومفيد في هذا النزاع.

والبيئة التي عاش فيها النبي موسىٰ عليه السلام وترعرع في ربوعها والتي تعرّض لها القرآن الكريم أكثر من أي نبي آخر واحدة من تلك الصفحات التاريخية المعبّرة، والأحداث التي جرت في عصره تصوّر كل أبعاد الصراع بين الحقّ والباطل.

وقد خلّد التاريخ مواقف كلّ من كان له دور في تلك الحقبة الزمنية سلباً أو إيجاباً، كما أنّ حضور العنصر النسوي في كل مراحــل دعــوته التــي مــرّ بــها موسى عليه السلام كان متميزاً وهامّاً، وقد تركت تلك النساء بصمات ذات وقع على حركة موسىٰ الرسالية التبليغية هذا في الوقت الذي نُشاهد تأثــيرات مــتقابلة بــين الأدوار التي مارسنها تلك الشخصيات النسوية بحرّية واستقلال في الرأي وبين الدور الذي مارسه الأنبياء في بناء تلك الشخصيات النسوية.

وأوسع ماجاء بهذا الخصوص بعض من آيات سورة القصص علىٰ الرغم من ورود إشارات في السور الأُخرىٰ، حيث تستعرض دور المرأة ودورها التاريخي في عصر موسىٰ علىٰ المستوىٰ السياسي والاجتماعي بنحو لا يخلو من مواقــف ذات مغزىً عميق؛ ومن أجل ذلك نبدأ باستعراض هذه الآيات من سورة القصص، وستكون مدار بحثنا في هذا الفصل.

موقف فرعون من قوم بني إسرائيل

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[1].

قبل الولوج في صلب الموضوع لابدّ من إشارة مقتضبة إلىٰ مقطع خاصّ من تاريخ مصر القديم.

---

(١) القصص ٢٨/٤.

تقع مصر في شمال القارّة الإفرقية، في وادي النيل الخصب الذي يرويه نهر النيل بمياهه غزيرة جعلته وافراً بنعمه.

وممّا يؤسف له أنّ هناك من يرى النعم دون أن يرى المنعم، ممّا يجرّ إلى الطغيان: ﴿كَلّا إِنّ الإِنْسَانَ لَيَطْغىٰ * إن رَآه اسْتَغْنَىٰ﴾[1]، وبناء على ذلك شهدت مصر فراعنة طاغين، كان أطغاهم الفرعون المعاصر للنبي موسىٰ عليه السلام. والآية المذكورة أعلاه ترسم جانباً من شخصية هذا الطاغية.

رأي القرآن بالمرأة ودورها في تاريخ الأنبياء

فرض فرعون سيطرته علىٰ أرضٍ تقطنها طائفتان: النبطيون وهم بنو إسرائيل، والأقباط المصريون، وكان يمارس سياسة «فرّق تسُد» لتثبيت أركان حكمه؛ ممّا ادىٰ الىٰ زرع بذور الحقد والعداوة بين الطائفتين واتّسام سياسته بطابع الطائفية والعنصرية.

والطائفة الأُولىٰ هم من أحفاد نبي اللّه يوسف عليه السلام وإخوته، وكانوا يعتقدون باللّه ويتمسّكون بالديانة الإلـهية، وهم من اتباع الأنبياء السابقين، و لمّا كان عددهم يفوق عدد الطائفة الثانية، وخروجهم إلىٰ المناطق المجاورة ليس في صالح نظام فرعون؛ فلذلك أبقاهم ولم يسمح لهم بالخروج والابتعاد عن نطاق حكمه، وعمد إلىٰ إذلالهم والاستخفاف بهم، وعدم إتاحة الفرصة لهم للظهور علىٰ الساحة السياسية والاجتماعية، واتّخذ معهم سياسية الإبادة التدريجية، فأخذ بقتل الأولاد الذكور دون الإناث؛ ممّا يُسفر عن تحطيم النواة الأُسرية فيهم ويؤدّي في النهاية إلىٰ انقراض نسلهم، والقضاء علىٰ الأُسرة هو بمنزلة القضاء علىٰ بذور المقاومة في هذه الطائفة، وقتل الرجال الأقوياء المتمكّنين، واستحياء النساء الضعيفات اللاتي لا حول لهنّ ولا قوّة دون رجال يحمونهنّ هو أمَرٌّ أتعسُ وآلم لهنّ من قتل أولادهنّ، ومن ثم جرّهنّ إلىٰ أدنىٰ مراتب الذلّة والهوان، إضافة إلىٰ أنواع المصائب التي كان يتعرّض لها بنو إسرائيل.

---

(١) العلق ٩٦/٦ ـ ٧.

وقد أشارت آيات عديدة في القرآن الكريم إلىٰ هذه المحنة والابتلاء[١]، وَعَدّت ذلك امتحاناً إلـهياً لهم في تلك الظروف الصعبة. ومن خلال ملابسات المحنة شاء الله إن تنبثق شخصيات سامية ومرموقة، فلو انعمنا النظر في آيات أُخرىٰ ذات صلة بنفس الموضوع لوجدنا أنّ استحياء النسـاء[٢] أي إبـقاءهن أحـياء وتذبيح الأبناء الذكور كانا أمرين رائجين وسياسة متّبَعَة في تلك الأرض، فـقبل نبوّة موسىٰ ﷺ وبعد إيمان بني إسرائيل به واتّباعه كان الفراعنة يـلجؤون إلى هذه الجريمة عندما يشعرون بالخطر، وجاء مضمون هذا الأمر في عدّة أيات[٣] أشارت إلى أنّ فرعون كان يقوم بهذه الجريمة ضدّ من لايعترف بأُلوهيته من أجل استضعافهم.

وفي ذلك العصر الذي كان الشرك سارياً بكلّ أشكاله، والفساد مسيطراً علىٰ أركان الحكم، ولا يُرىٰ للخير والصلاح بصيص أمل، يظهِر اللّه سُنّته في اسقاط الظالمين والمستكبرين ويمكّن المستضعفين، وتأتي آيتان لتأكّد هذه الحقيقة والسنّة الإلـهية الثابتة، وتبشّر المستضعفين وتجعلهم أئـمّة ووارثـين للأرض ويمكّنهم الله منها: **﴿وَنُرِيدُ أَن نَمُنَّ عَلَىٰ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِين * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾**[٤].

وممّا لا شكّ فيه أنّ هذا التغيير والتمكّن للـمستضعفين لابـدّ أن يكـون لهُ

---

(١) حيث جاء في قوله تعالى: **﴿وَفِي ذَلِكُم بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾** ـ البقرة ٢/٤٩، والأعراف ٧/١٤١، وإبراهـيم ١٤/٦ ـ إشارة إلى ذلك إذا كان المراد من «ذلك» هو استحياء النساء وذبح الأبناء، وإذا كان مرجع الضمير لإسم الإشارة هو ما جاء في صدر هذه الآيات فالمراد من الامتحان أو البلاء الإلـهي هو اليسر بعد العسر، وهو إشارة إلىٰ السنّة الإلـهية: **﴿إِنّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾** الشرح ٩٤/٦.

(٢) «الاستحياء» لا تأتي بمعنى ذهاب الحياء أو بستبعد ذلك؛ لان سياق الآيه يدلّ علىٰ أنّ «الاستحياء» عكس معنىٰ التذبيح، أي إبقاءهن أحياء. كما لم يسبق استخدام «الاستحياء» من باب الاستفعال لمصدر الحياء.

(٣) منها: البقرة ٢/٤٩، والأعراف ٧/١٢٧، ١٤١، وابراهيم ١٤/٦، وغافر ٤٠/٢٥.

(٤) القصص ٢٨ / ٥ ـ ٦.

أسباب حسب الحديث الشريف: «أبىٰ الله أن تجري الأُمور الاّ بالاسباب»(١)، وكما تشير الآية التي تليها إلىٰ تلك الأسباب حينذاك حيث تقول: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(٢) وهكذا جرت الأُمور كما أراد الله من خلال الوحي لأُمّ موسىٰ خلافاً لتصوّرات فرعون الباطلة ولظنّه بأنّ النساء ضعيفات عاجزات، حيث كان ينظر إليهنّ بحقارة ويبقيهن أحياء ويقتل الذكور؛ لاعتقاده بأنّ القوة والقدرة محصورة فيهم.

وهكذا نرىٰ أنّ تعذيبه لهذه الطائفة أدّىٰ إلىٰ نمو الوعي عندهم، وبدأ تمكّنهم وقوتهم في ذلك المجتمع من خلال الوحي الىٰ إمرأة من نسائهم أصبحت موضعاً ومحلاً لنزول الرحمة الإلـٰهية وتجلّي قدرة اللّـه تعالى؛ لكي يثبت لفرعون ولمن خلفه ولكلّ الأجيال القادمة قوّة المرأة ودورها في هذا المنعطف التاريخي الهام.

إنّ وجهة نظر فرعون الاستكبارية للأُمور ابتنت على أنّ كل من كانت له قوّة ظاهرية في المجتمع فهو يشكّل تهديداً له ولنظامه ويسبب له مزيداً من المتاعب، الاّ أنّ وجهة نظر الأديان الألـٰهية تختلف تماماً، فهي تعتبر التيار الذي يسير نحو الكمال الوجودي و يتلاءم معه أكثر، هو اقرب إلىٰ سنّة الله وأكثر انسجاماً معها. وهكذا انبثقت من وسط ذلك المجتمع المملوء كفراً وظلماً والفاقد لبصيص أمل للخير فطرةٌ سليمة تحملها امرأة وتصبح وعاءً صالحاً لحمل رسالة إلـٰهية أو أمر من عنداللّه يخضع لإشارته، ويتلقّىٰ وحياً منه وينفّذ ما أُملي عليه، ويطّلع علىٰ أُمور مهمّة تغيّر مصير المجتمع ومستقبله.

---

(١) بحار الأنوار ٢ / ٩.

(٢) القصص ٢٨ / ٧.

وحي الله إلىٰ أُمّ مُوسىٰ

أوّل ما أُوحي إلىٰ أُمّ موسىٰ حسب الآيات القرآنية هو إرضاع طفلها، فإنّ رضاعة الأُم لولدها بنفسها يُكسب الطفل ودّاً وحناناً لا يعوّضه شيء وقد يراد من أمر اللّه لها بذلك حسب الظاهر هو أن تنتقل صفاتها الحميدة و خصوصياتها وقيمها إلى ولدها من خلال إرضاعه لبنها؛ لتجري في شرايينه وخلايا وجوده، هذا الابن الذي سوف يتولّىٰ مهامّاً صعبة للغاية في المستقبل.

بعد ذلك يأتي أمرُ الله بإلقائه في اليمّ إذا ما انتابها الخوف عليه، ممّا يدلّ علىٰ أنّ أُم موسىٰ كانت تخاف علىٰ ولدها كما تخاف كلّ الأُمّهات في بني إسرائيل علىٰ أولادهن الذكور من قتلهم علىٰ يد فرعون وجلاوزته؛ ولذلك يأتي أمرُ الله بإلقائه في اليمّ حفاظاً عليه وأن لا يساورها القلق والحزن بشأنه، ومن ثم تنكشف لها أسرار من الغيب كعودة ولدها إليها مرّة أُخرىٰ وجعله نبياً مرسلاًمن قِبل اللّه تعالىٰ؛ لكي تقرّ عينها ويهدأ روعها وتعلم أنّ ولدها سيبقى حيّاً سالماً.

وهذه البشارة والإخبار بسرٍ من أسرار الغيب ليس بالأمر الهيّن الذي يحتمله قلب إنسانٍ عادي يقدر علىٰ استيعابه وحفظه في ذلك الجوّ الخانق وتلك الغيوم السوداء التي كانت تكسو سماء مصر حينذاك، خاصّةً لو أمعنا النظر في قوله تعالىٰ: **﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلَا يُظهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً * إلّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَسُولٍ فَإنّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾**[1] كما أنّه تعالى يشير إلىٰ أنّ الإخبار عن المستقبل هو إخبار غيبي: **﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً * اطّلَعَ الغَيْبَ أمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾**[2] وبناءً علىٰ هذا يبدو أنّ ممّا لا شكّ فيه أنّ أمّ موسىٰ هي ممّن اختارهم الله. ولابدّ أن تكون ذات روح سامية ومقام شامخ عنده، وقد عكست ذلك كلمة **﴿أَوْحَيْنَا﴾** في سورة القصص[3]، أي إنّ اللّه تعالى أوحى

(١) الجن ٧٢ / ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) مريم ١٩ / ٧٧ ـ ٧٨.

(٣) القصص ٢٨/٧.

إلى أُم موسى وأبلغها ببعض البشارات والأوامر.

والوحي والإيحاء في اللغة هو: تفهيم أمرٍ بشكل سرّي وخفي لأحد[١]، وهو حلقة وصل بين الله سبحانه والموجودات، وله مصاديق مختلفة حسب مواردها.

فالوحي تارةً يختصّ بالموجودات التي ليست لها روح، وهي الهداية التكوينية، ويصطلح عليها بـ «التسخير»، وقد أشار القرآن إليها بلفظ ﴿**أَوْحَىٰ**﴾ في قوله: ﴿**وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا**﴾[٢].

وتارةً أُخرىٰ يختصّ بالموجودات الحيّة غير البشرية كالوحي للنحل حيث قال تعالىٰ: ﴿**وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ**﴾[٣].

وتارةً ثالثة يختصّ بالموجودات العاقلة من البشر، كما أشار إليه وإلى أنواعه قوله تعالىٰ في سورة الشورىٰ[٤].

أنواع الوحي

﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾[٥].

لا حظت عزيزي القارئ أنّ الموردين المذكورين بعد حرف العطف «أو» في هذه الآية هما من مصاديق الوحي الكلّي المشار إليه في بداية الآية، أي يأتي الوحي عن هذين الطريقين أيضاً، كما يأتي عن طريق الرسول وهو قوله: ﴿**أَو يُرسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ**﴾ ويأتي أيضاً من وراء حجاب.

إلّا أنّ وجود هذين القسمين هما قرينة تدلّ علىٰ أنّ المراد من ﴿**إِلّا وَحْيَاً**﴾ هو

---

(١) قاموس القرآن ٧ / ١٨٩.

(٢) فصلت ٤١/١٢.

(٣) النحل ١٦/٦٨.

(٤)، (٤) الشورىٰ ٤٢/٥١.

إشارة إلىٰ أنواع كلام الله، ومنها الوحي أو الإيحاء دون واسطة، ويمكن استخدام عبارة: «الإلهام في الرؤيا»[1] لهذا النوع.

وبما أنّ لفظ «البشر» في صدر الآية جاء مطلقاً ولم يُخصّص بالرجال أو الأنبياء، إذن كلُّ إنسان يكلّمه الله عن أيّ طريق يمكن أن يكون مصداقاً لهذه الآية، وبناءً علىٰ هذا يمكن القول بأنّ نزول ملائكة الوحي علىٰ مريم هو من النوع الثالث من الوحي المذكور في هذه الآية، وسوف نشير الىٰ هذا الموضوع في أحادِيثنا القادمة في قصّة مريم، حيث كانت تخاطَب هذه القدّيسة عن طريق الوحي كما يخاطب الأنبياء.

وينقسم الوحي علىٰ أحد الاعتبارات إلىٰ نوعين: الوحي التشريعي، والوحي الإنبائي أو الإخباري.

والوحي التشريعي يخصّ الأنبياء فقط ويعيّن القوانين الاجتماعية، ولكنّ الوحي الإنبائي يأتي في بعض الأحيان لتعيين الوظائف الفردية لغير الأنبياء، ومن هذا النوع الوحي الذي جاء لأُمّ موسىٰ: ﴿**وأَوْحَيْنا إلىٰ أُمّ مُوسىٰ...**﴾[2]، إلّا أنّ الإطلاق الوارد في الآية ٥١ من سورة الشورىٰ لعامّة البشر، والإطلاق الموجود في هذه الآية يمنع إنصراف كلمة ﴿**وَأَوْحَيْنا...**﴾ إلىٰ معنى التسخير أو الإلهام القلبي الصرف.

بل يجب القول بأكثر من ذلك وهو أنّ القرآن الكريم لم يستخدم هذه الكلمة ﴿**وَأَوْحَيْنَا**﴾ للتسخير في الموجودات فحسب بل جاءت في جميع المواضع للوحي إلىٰ الأنبياء. وعليه فالمراد من هذه الكلمة في هذه الآية أيضاً ليس معنىٰ التسخير أو الهداية التكوينية؛ لأنّ البشارات التي اشارت إليها الآية في نهايتها هي من الأسرار الغيبية التي لا يمكن لأيّ موجود أن يطّلع عليها عن

---

(١) يستبعد أن يكون التسخير من هذا النوع من الوحي، فالتكلّم مع البشر ـ الموجود الذي له عقل ـ لا يمكن أن يكون سواء مع تسخير الموجودات التي ليس لها عقل، وكذلك لا ينطبق على الأفعال غير الإرادية عند البشر.

(٢) القصص ٢٨/٧.

طريق التسخير أو الهداية الغريزية.

ونستنتج من كلّ ما قلنا أنّ الوحي إلىٰ أمّ موسىٰ لم يكن من أقسام الوحي إلىٰ الجمادات أو الموجودات التي ليس لها عقل، وأنّ قياس هذا الوحي مع الوحي للنحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّحْلِ...﴾[١] هو قياس مع الفارق؛ لأنّ التسخير يعمّ كلّ أفراد النوع ولم يكن في فرد واحد من نوعه كما هو في النحل، ولم يختصّ بنحلة دون سائر النحل، في الوقت الذي نجد أنّ الوحي لأمّ موسىٰ يختصّ بها فقط دون أن يشمل كلّ الأُمهات، والمراد به هنا هو الوحي الخاصّ.

وبما أن كلمة ﴿أَوْحَيْنَا﴾ جاءت في قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾[٢] وفي هذه الآية مقرونة بضمير جمع المتكلّمين «نا» فيمكننا أن نستنتج من ذلك أنّ هذا الوحي هو من نوع الوحي غير المباشر الذي يخاطب الله به بعض أنبيائه.

كما أنّ هذه الكلمة تؤيد أنّ الوحي إلىٰ أُم موسىٰ كان من نوع الكلام وليس الإيحاء بالقلب أو التسخير التكويني. وهناك حديث مروي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام يقول فيه: «وأنزل الله علىٰ أُمّ موسىٰ التابوت ونوديت: ضعيه في التابوت[٣] فاقذفيه في اليم وهو البحر».

يقول سيد قطب: إنّ سياق الآيات في القرآن الكريم وضع كيفية تلقّي أُمّ موسىٰ للوحي في هالة من الإيهام لكي يظفي عليها شَوكةً ورفعة[٤].

موسىٰ عدوٌ لفرعون

بعد أن تلقّت أُمّ موسىٰ الوحي بعدم الخوف والحزن علىٰ ابنها، ألقته في

(١) النحل ١٦/٦٨.
(٢) طه ٢٠/٣٨.
(٣) لعلّ المراد من «أل» هنا هي «أل» العهد، ويقصد بالتابوت ما أُنزل علىٰ أُمّ موسى، وقد صرّح به في هذا الحديث.
(٤) في ظلال القرآن ٢٠ / ٤٣.

البحر، ﴿**فَالتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إنّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ**﴾[١].

«الا لتقاط» هو: أن تجد شيئاً صدفةً دون ان تكون في طلبه، وهكذا كان حال فرعون وجنوده، فقد رأوا الطفل صدفة في الماء فالتقطوه منه ليكون في نهاية الأمر عدواً وحزناً لهم واللام في ﴿**لِيَكُونَ**﴾ ليست لام تعليل لكي يصبح معنىٰ الآية: أنّهم التقطوه ليكون لهم عدواً، كلاً بل التقطوه ليكون لهم ابناً يبعث فيهم السرور ولتقرّ أعينهم به، فاللام هنا لام العاقبة والنتيجة والغاية، فالنتيجة والعاقبة من التقاطهم له أن يكون عدواً لهم، يؤدّي في النتيجة إلىٰ حزنهم وأساهم[٢].

وكلّهم في النتيجة كانوا علىٰ خطأ، أي إنّ سياسة فرعون وهامان وجنودهم ومن حولهم في قتل أولاد بني إسرائيل خوفاً علىٰ ملكهم وشوكتهم كانت كلّها خاطئة؛ لأنّهم تصوروا أنّهم قادرون علىٰ تغيير التقدير الإلهي.

وهذا المضمون جاء أيضاً بتعبير آخر حيث خاطب الله موسىٰ بالقول: ﴿**إذْ أوْحَيْنَا إلىٰ أُمّكَ مَا يُوحَىٰ * أنِ اقْذِفِيهِ فِي التّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمّ فَلْيُلْقِهِ اليَمُّ بِالسّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدوٌّ لِي وَعَدوٌّ لَهُ وَألْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبّةً مِنّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي**﴾[٣]. فـ ﴿**أن**﴾ تفسيرية لـ ﴿**مَا يُوحَىٰ**﴾ التي أتت بصيغة المجهول، والمراد بذلك توضيح ما أُوحيَ إلىٰ أُمّ موسىٰ بوضع ابنها في صندوق خشبي (تابوت) وإلقائه في البحر، والبحر مأمور بإلقائه في الساحل؛ لكي يلتقطه عدوٌّ للّه وله، فسياق الكلام: ﴿**فَلْيُلْقِهِ اليَمُّ بِالسّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدوٌّ لِي وَعَدوٌّ له**﴾ واضح جداً، وأن كلّ هذا أُوحي إلىٰ أُمّ موسىٰ، وكان الوحي لها تفصيلاً لما سيحدث لولدها ومستقبله ورسالته وكلّ جزئيات الأُمور، حتىٰ عن شخص موسىٰ نفسه، حيث ذكر القرآن بأنّ الله أوحىٰ

---

(١) القصص ٢٨/٨.

(٢) الحَزن مصدر أُطلق علىٰ موسىٰ للمبالغة في الأسىٰ الذي لحق بآل فرعون. انظر تفسير الميزان.

(٣) طه ٢٠/٣٨ ـ ٣٩.

لها بأنّنا أمرنا البحر أمراً تكوينياً وسوف يُلقيه لا محالة علىٰ الساحل، وسوف يلتقطه أعدائي وأعداؤه[١].

ثم يقول: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾، فإلقاء المحبّة من الله علىٰ موسىٰ، وتربيته ونموّه تحت رعاية الله وعلىٰ عينه في جوٍ اجتماعي برعاية امرأتين: أُمّه وآسية امرأة فرعون وما لهما من أثر إيجابي مفيد خالٍ من الخطر، هو أُمرٌ يستحقّ التأمّل والتدبّر.

فالعواطف الجياشة لدى هاتين المرأتين وإلقاء المحبّة عليه جعلت شخصيةً كموسىٰ بكلّ عظمته ونورانيته يتربّىٰ تربية صحيحة ـ علىٰ عين الله ـ على نهج العداء للاستكبار، تكشف بوضوع تجلّي قدرة الله وعظمته في هاتين الشخصيّتين النسويتين: أُمّ النبي وامرأة الطاغية، وهذه نقطة ظريفة تتطلّب استيعاباً وجدانياً؛ لأنّ تبسيطها وإيضاحها أكثر من هذا القدر يقلّل من شأنها وجمالها.

وهنا قد يتبادر سؤال إلى الأذهان وهو: لماذا لم تَرِد أيّة إشارة إلىٰ والد النبي موسىٰ ودوره في هذا القصّة وفي هذه الفترة العصيبة من التاريخ؟

لو راجعنا المقدّمة التي صغناها في هذا الفصل، ولاحظنا الأجواء السياسية والاجتماعية العصيبة والمتأزّمة لبني إسرائيل في تلك الفترة، لاكتشفنا مدىٰ الرقابة الشديدة المفروضة من قبل فرعون علىٰ الرجال، ولعلّ الحديث المروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام خير جواب عن هذا التساؤل حيث قال: «فقال فرعون عند ذلك: لأقتلنّ ذكور أولادهم حتىٰ لا يكون ما يريدون، وفرّق بين الرجال والنساء، وحبس الرجال في المجالس»[٢].

---

(١) لعلّ موسىٰ لم يدرك سياسة فرعون وسيرته الخاطئة وإجرامه؛ إذ لم يدخل في قصره ويكتشف كلّ ذلك بنفسه عن كثب وتسقط هيبة فرعون من عينه.

(٢) بحار الأنوار ١٣ / ٢٥، وتفسير الميزان ١٦ / ٢٠.

امرأة فرعون: أسوة للنساء المؤمنات

﴿قَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[١].

عندما ألقىٰ تيّار الماء الجاري في نهر النيل موسىٰ علىٰ الساحل بالقرب من أعدائه الذين كانوا يقتلون أبناء بني إسرائيل الذكور، وشاهدوا هذا الطفل ملقيّاً علىٰ الساحل أرادوا أن يذبحوه، ولكنّ امرأة ذات شأن ومقام في بلاط فرعون وتتمتّع بذكاء وفطنة وضمير حيّ نظرت إلىٰ الطفل، فوجدت آثار الجلال والشوكة الإلـهية تسطع من جبينه، فحالت دون قتله وقالت لزوجها فرعون وهي تنصحه وتثير مشاعره وتدعوه للتريّث والتعقل: ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَاتَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أن يَنْفَعَنَا أو نَتَّخِذَهُ وَلَداً...﴾ والكلّ كانوا يجهلون مستقبل هذا الطفل وعاقبة هذا التبنّي وما سيؤول إليه.

لا شكّ أنّ قدرة الله وعظمته لم تظهر وتتجلّىٰ عندما يحطم الله الجبابرة بجيوش من السماء والأرض فقط، بل تظهر أكثر عندما يترعرع اعدىٰ عدوهم ومقوّض سلطانهم في أحضانم وينشأ بين أيديهم، وتظهر امرأة من بينهم تمثل إرادة الله وتحول دون إطفاء نوره، وتقرأ رسالة النبوّة المتلألئة في جبينه بمشاعرها النبيلة وروحها النقية الصافية. تبدو وتتجلّىٰ قدرة الله وعظمته أكثر فأكثر عندما تصبح العواطف ومشاعر الحبّ وعاءً لتسخير القساوة والظلم وإطفاء نائرته، في الوقت الذي تعجز كلّ المظاهر المادية من سلاح ومال وقوّة للتصدي له والوقوف أمامه.

وهنا تنهزم كلّ القوىٰ الفرعونية المتجبرّة أمام كلمة حقّ تقولها امرأة ضعيفة، تسحر بها عقولهم وتجعلهم وسيلة لتنفيذ إرادة الله، فزوجة فرعون مثّلت بفطرتها الإلـهية السليمة نموذجاً للخلوص، وأصبحت مثلاً أعلىٰ للذين

---

(١) القصص ٢٨/٩.

آمنوا دون أن تهتدي بهدىٰ نبي من أنبياء الله، بحيث اختارها الله عزّ وجل في كتابه العزيز مثالاً للإيمان يفتخر به ويقول: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[١] فالله سبحانه وتعالىٰ ضَرَب بهذه المرأة مثالاً لكلّ المؤمنين رجالاً ونساءً؛ ليعلموا أنّ النجاة والفوز لا يأتي إلّا بإيمان خالص لله والرسول وطاعة لله، وليس للقرابة والانتساب لأي طاغية أو مستكبر أثر إذا عقد الايمان بالله وأخلص له.

ويشير القرآن الكريم إلىٰ السبب الذي جعل من هذه المرأة قدوة ومثالاً للإيمان بنقل نصّ دعائها ونجواها مع الله، وهذا الدعاء يمثّل في حد ذاته صورة جامعة لامرأة في غاية العبودية لله، وهي تتمتّع بأعلىٰ المراتب الماديّة والدنيويّة، ولكن لم تغرّها وتفتنها كلّ هذه المظاهر الماديّة خلافاً لزوجها، بل غضّت الطرف عنها وانحسرت منها؛ لتعلّق كلّ آمالها برحمة الله والسكون في جواره، وتلجأ بجميع وجودها إلىٰ الله من ظلم فرعون وعمله، وتعلن براءتها ونفرتها من هذا المستكبر.

ويجدر بنا أن نتأمّل أكثر وأكثر في دعاء هذه المرأة وأملها بالتقرّب إلىٰ الله والحظوة بجواره، فأوّل كلمة تبدأ بها دعاءها هي كلمة ﴿رَبِّ﴾ وهي كلمة تدلّ علىٰ إحساس قرب العبد من خالقه[٢]. وفي أوّل فقرة دعائها تقول: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ﴾. وتقديم كلمة ﴿عِنْدَكَ﴾ قبل بيان طلبها وبعد قولها: ﴿رَبِّ﴾ له دلالاته الخاصّة، ويشير إلىٰ أنّ القرب من الله هو أملها، وهو الأصل في دعائها وهو بيت القصيد.

وقد يبدو للقارئ في بادئ الأمر أنّ قيد المكان ﴿فِي الجَنَّةِ﴾ لا ينسجم مع

(١) التحريم ٦٦/١١.

(٢) لعلّ استخدام هذه الكلمة هو رد فعلها أمام قول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ ـ النازعات ٧٩/ ٢٤ ـ لتقول: أنا لم أخاطب أحداً بهذه الكلمة غيرك.

إطلاق كلمة ﴿عِندَكَ﴾، ولكن الزمخشري صاحب تفسير الكشاف يجيب عن هذا التساؤل بالقول: إنّها تريد التقرّب من رحمة الله والابتعاد عن عذاب الاعداء، ولكنّها إمّا تريد بيان مكان القرب وهو الجنّة، وإمّا تريد أن يكون لها مقام شامخ في الجنّة قريب من عرش الله، أي في جنّة المأوىٰ؛ ولهذا السبب استخدمت لفظ ﴿عِندَكَ﴾ ليكون مكانها في جنّة قريبة من العرش[١].

وعلىٰ أية حال يظهر أنّ أهمّ شيء عندها هو القرّب من الله، وهو مقام لا يمكن وصفه ولا يستطيع العقل البشري أن يستوعبه. وهذه الجمل هي تعبير عن سمو شأنها ورشدها الفكري حيث قال رسول الله ﷺ ما مضمونه: قسماً بمن يُقسم به، لو أنّ فرعون قال في حقّ موسىٰ كما قالت زوجته: ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِي﴾ لهداه الله كما هدىٰ زوجته، ولكن الله كتب لفرعون الشقاء؛ ولذلك لم ينطق بهذه العبارة[٢].

وفي نهاية دعائها تلجأ آسية امرأة فرعون الىٰ الله وتستجير به من زوجها الطاغي المستكبر ومن عمله وظلمه وترجو الله بأن يخلّصها من قوم فرعون الظالمين؛ إذ إنّ اللجوء الىٰ الله من شر الظالمين وطلب الخلاص منهم ومن ظلمهم هي سيرة الصالحين وسُنّة النبيين، كما طلب ذلك نوح[٣] وقوم موسىٰ[٤].

الربط علىٰ قلب أُمّ موسىٰ

نعود بالحديث إلىٰ ما آلت إليه أُمّ موسىٰ بعد أن ألقت بولدها في البحر: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ

(١) تفسير الكشاف ٢ / ١٣١ ـ ١٣٢.
(٢) تفسير مجمع البيان، المجلد ٤، الجزء ٧ / ٢٤١.
(٣) الشعراء ٢٦/١١٨.
(٤) يونس ١٠/٨٥ ـ ٨٦.

المُؤْمِنِينَ ﴾[١].

«الفؤاد» هو القلب الذي فيه نوع من الحرقة والغليان[٢]، وقد استخدمته الآية؛ لأنّها تريد تصوير مدىٰ قلق أُمّ موسىٰ ورأفتها علىٰ ولدها.

و«الفؤاد الفارغ» له معنيان، الأول: هو القلب الفارغ من الهم والغم، والثاني: هو القلب اليائس أو الفارغ من كلّ أمل وطمع[٣]؛ ولذلك فعبارة **﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغاً ﴾** لها معنيان:

الأول: أن أُمّ موسىٰ عندما تلقّت البشارة من الله بنجاة ولدها نزلت عليها السكينة وأصبح قلبها فارغاً من كلّ هم وغم؛ لأنّها أيقنت بأن ولدها لن يغرق وسوف ينجو وله مستقبل مشرق؛ ولذلك التزمت الصبر والانتظار لتحقق الوعد الالهى[٤].

الثاني: أصبح قلب أُمّ موسىٰ فارغاً من كل أمل وسيطر عليها الخوف والغم؛ لأنّها علمت بوقوع ولدها بيد فرعون ومن حوله.

ولو دقّقنا النظر في مفاد الآيات التي تحدّثت عن حال أُمّ موسى والتي تحكي عن أمر الله لها بعدم الخوف والحزن وتبشيرها بمستقبله المشرق، لسلّمنا بِبُعد صحّة الرأي الذاهب الىٰ خوفها وحزنها وقلقها علىٰ موسىٰ وقطع الأمل منه؛ لأنّه رأي يشير الىٰ عدم ثقتها بالوحي، وهو ضعيف ومستبعد تماماً.

﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾. يختلف المفسّرون في الرأي أيضاً بشأن هذه العبارة، فذهب العلّامة الطباطبائى إلىٰ: أنّ هذه الجملة هي بيان وتوضيح للعبارة الأُولىٰ، وهي: أنّ قلب أُمّ موسىٰ أصبح فارغاً من كلّ خوف وغمّ علىٰ ولدها بعد أن أُوحي إليها، ذلك الخوف والغم الذي كاد أن يُفشي سرّها. أجل لو لم نربط علىٰ قلبها بالوحي لم تثق بأنّ الله

---

(١) القصص ٢٨/١٠.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن / ٣٨٦.

(٣) قاموس القرآن، الجزء ٣ والجزء ٥ / ١٤٣.

(٤) رجّح هذا الرأي صاحب تفسير مجمع البيان والعلّامة الطباطبائي.

سيحفظه، وكادت تُبدي بسرّها وأنّه ولدها من خلال الخوف والجزع الذي سيطر عليها[١].

وذهب الرأي الثاني إلىٰ أنّ قلب أُمّ موسى أصبح فارغاً من الخوف والغم بسبب الوحي، ولكن عندما سمعت أنّ فرعون عطف علىٰ ابنها واتّخذه ابناً له كادت تفشي سرّها وتقول: هذا ولدي. ولعلّها فقدت سيطرتها على نفسها من شدّة السرور والفرح الذي أصابها؛ ولذلك يقول الله تعالىٰ: لولا أن ربطنا على قلبها وأنزلنا عليها الهدوء والسكينة لأفشت سرّها وكشفت عن الحقيقة ولم تتمالك نفسها. وهذا ماذهب إليه العلّامة المجلسي مع شيء من التحفّظ[٢].

وعلى أية حال فإنّ كلا الرأيين يتّفقان علىٰ تعرّض أُمّ موسى لضغطٍ روحيّ شديد، فالرأي الأول يقول: إنّ أُمّ موسىٰ امرأة واعية لها قدرة استيعاب عالية ولم تفقد وعيها وصلابتها، كما لم تفقد حنانها وعطفها علىٰ ولدها ذي المستقبل المشرق والمقام السامي؛ ولذلك باتت في حزن وغمّ وخوف شديد عليه، وكاد هذا القلق أن يأخذ منها مأخذاً لولا ثقتها بالله والتسليم لإرادته؛ إذ حالا دون جزعها وفقدان سيطرتها علىٰ إرادتها.

والرأي الثاني ذهب إلىٰ أنّ أُمّ موسىٰ كانت تختزن في قلبها بشارات مصيرية وأسراراً غيبيّة عظيمة تبلغ عظمتها حدّاً بأن تفتح فم أي كان من الناس وترغمه على إفشائها، إلّا أنّ ارتباطها بالعالمْ القدسي وثقتها بالله منحها صبراً واستقامةً حالت دون إذاعتها.

﴿**لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾. هذه العلاقة والارتباط بالله جعلها من المؤمنين. وهذا النوع من التعليل والكلام يثير بعض التساؤلات منها: ألم تكن أُمّ موسىٰ قبل الوحي إليها من المؤمنين ثم أصبحت منهم بعد الربط على قلبها؟

والجواب علىٰ ذلك هو: أنّ الإيمان له درجات تُعرف في المحن والمصاعب

(١) تفسير الميزان ١٦ / ١٦.

(٢) بحار الأنوار ١٢ / ١٦.

ومدىٰ الصبر والاستقامة فيها؛ حيث قال الله تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾[1]؛ ولذلك فإنّ ربط القلب الذي جاء في الآية المذكورة كان بمنزلة نزول السكينة علىٰ قلبها وزادها إيماناً مع إيمانها.

والجدير بالذكر أنّ تعبيراً كهذا ورد في القرآن الكريم خطاباً للرسول محمدﷺ حيث قال عزّ من قائل: ﴿لَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾[2]، كما ورد في آية أُخرىٰ من هذا القبيل في حقّ يوسف حيث قال ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾[3] فما أعطى يوسف عليه السلام مقاماً رفيعاً وشأناً عظيماً هو موقفه النبيل ومقاومته أمام الاغراء الذي تعرّض له في جوٍ مشوب بالشهوة، ولكنّ الذي يضفي على هذه المرأة الرشيدة عظمة واستقامة ـ وهي لم تكن في موقع النبوة و لاالرسالة ـ هو ضبط النفس والمقاومة أمام شدّة العاطفة التي كانت تتدفق تجاه ولدها وقرّة عينها.

وبتعبير آخر: أنّ المقاومة أمام هوىٰ النفس لدىٰ الرجال واستقامتهم أمام الشهوات الجنسيّة نتيجةً لذوبانهم واستغراقهم في الجمال الإلـهي يُعتبر معيار الاستقامة لديهم. ولكنّ الذي يعتبر معياراً للاستقامة عند النساء هو المقاومة أمام العواطف الجيّاشة تجاه الأولاد والحبّ المفرط لهم الىٰ حدّ كبير.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[4].

بعد أن ألقت أُمّ موسىٰ ولدها في النهر طلبت من أُختـه ملاحقة التابوت لمعرفة مصيره.

والتعبير المستخدم في هذه الآية فيه دلالة على مدىٰ ذكاء وبصيرة أُخت موسىٰ حيث تقول الآية: ﴿فَبَصُرَتْ[5] بِهِ عَن جُنُبٍ﴾ أي إنّها كانت تلاحقه

(١) الفتح ٤٨/٤.
(٢) الإسراء ١٧/٧٤.
(٣) يوسف ١٢/٢٤.
(٤) القصص ٢٨/١١.
(٥) بَصُر به: أي عَلِمَ به بذكاء عقل وكياسة.

ببصيرة وذكاء وفطنة بحيث لاينتبه إلىٰ ملاحقتها أحد حتىٰ رجال فرعون، فــي الوقت الذي كان التابوت يقترب من منطقة القصر وهي تحتفظ بوقارها وهدوئها لئلا يشعر بها أحد خاصّة حرّاس تلك النقطة الحساسة على الرغم من الحراسة المشدّدة والإرهاب والقسوة التي كانوا يمارسونها تجاه بني اسرائيل.

فهذه الملاحقة الذكية كانت في حدّ ذاتها نعمة مَنّ الله بها علىٰ موسىٰ حيث قال تبارك وتعالىٰ: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ﴾[١] وهنا تحتل ﴿إِذْ﴾ موقع البــدل[٢] من ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا﴾ وهي تتعلّق بـ ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾[٣]. ويعتبر هذا الأمر من الألطاف الإلـهية علىٰ موسىٰ، وقد تمّ عن طريق هذه الفتاة، وذكّر الله موسىٰ بهذا اللطف وأكدّ عليه؛ نظراً لأهمّيته وللذكاء المستخدم في تنفيذه.

الجو الأُسري أفضل مكان لتربية الطفل

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾[٤].

لم تأت كلمة ﴿حَرَّمْنَا﴾ بمعناها التشريعي في هذه الآية؛ حيث لم تحرّم أيّة شريعة رضاع الطفل للّبن، وعلىٰ هذا فالتحريم هنا تكويني، وبما أنّ عبارة ﴿مِن قَبْلُ﴾ جاءت لتبيّن زماناً غير محدّد لهذا التحريم، إذن فهو تحريم كان في عالم التقدير؛ ولذلك فإنّ رضاع النبيالله موسىٰ من لبن أُمّه كان أمراً أزليّاً تعلّقت بــه مشيئة الله عزّ وجل.

---

(١) طه ٢٠/٤٠.

(٢) املاء ما منّ به الرحمن ٢ / ١٢١. ولو لم نعتبر ﴿إِذْ﴾ بدلاً ونعتبره متعلقاً لـ «اذكر» فهي أيضاً بيان للآية ٣٧ من سورة طه ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾، ولكن إذا اعتبرنا العامل ﴿لِتُصْنَعَ﴾ في الآية التي قــبلها يتغيّر المعنى. وقد ذهب إليه بعض المفسرين. ولكن تبقىٰ عظمة ورفعة الكلام على ما هي عليه وتصبح الآية هكذا ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ...﴾. وهذا الكلام يــدلّ على أن أُسرة موسى وبيت أُمّه كانا تحت رعاية الله سبحانه.

(٣) طه ٢٠/٣٧.

(٤) القصص ٢٨/١٢.

وبعبارة أُخرىٰ: كما أنّ وجود الأنبياء وخلقة آدم وغيرها كانت ثابتة في التقديرات الإلـهية فإنّ نمو وتربية موسىٰ علىٰ يد أُمّه كان قضاءً وقدراً إلـهياً مسَلّماً، كما كان في التقدير ألّا يرضع إلّا من لبن أُمّه، ففي الوقت الذي كان موسىٰ يرفض المراضع وهو في أشدّ الحاجة إلىٰ الرضاعة جاءت أُخته إلىٰ الفراعنة واقترحت عليهم أن تدلّهم علىٰ أهل بيت يكفلونه لهم ويكونون له من الناصحين.

وفي سورة طه جاءت الآية بالتعبير نفسه مع شيء من الاختصار: ﴿**فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ**﴾[١]. ففي الآية السابقة أُوكلت التربية لأهل بيت يكفلونه، والمراد بهم الأُسرة الصالحة التي تكون الأُم محوراً لها، ولكن في هذه الآية أُوكلت الكفالة لفرد واحد[٢].

فهاتان الآيتان تريدان بيان نقطة مشتركة واحدة وهي العلاقة بين الأُسرة والأُمّ وموضوع الحضانة والكفالة للأطفال، وهذا ما يبدو من الوضوح بمكان فإنّ الأُمّ بكفالتها وحضانتها للطفل ودون تدخّل أيّ فرد آخر تكوّن بيئة مناسبة لتربيته بشكل مطلوب، وهذه البيئة في حدّ ذاتها مصداق ملموس للأُسرة الناصحة تحت إشراف تلك الأُم الصالحة، وإذا ما وُجهّت صدمة للأُسرة أو الأُمّ أو الكفالة فإنّ تلك البيئة أو الدار تفقد أهليّتها للتربية الصحيحة، وهذا أمرٌ في غاية الأهمّية ويبيّن كثيراً من الأُصول الأُسرية في الشريعة الإسلامية وسُبل تقويتها.

الاستقرار في ظلّ الأُسرة

﴿**فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَي تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنْ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ**

---

(١) طه ٢٠/٤٠.

(٢) لو أمعنا النظر في هاتين الآيتين لوجدنا أنّ الأُمّ الصالحة هي في حدّ ذاتها أُسرة صالحة.

لَايَعْلَمُونَ ﴾[١].

إذا دقّقنا في هذه الآية نجد أنّ أسباباً أربعةً ذكرها القرآن الكريم هي التي أدّت إلىٰ عودة موسىٰ إلىٰ أُمّه، وهي:

١ ـ **﴿كَي تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾**، و«قرَّ»[٢] يأتي بمعنى سكن وثبت، وإذا اقترن بلفظ «عين» فيصبح بمعنىٰ السرور والفرح. وبعبارة أُخرىٰ: هو سكون واستقرار يُنتج سروراً وجدانياً.

ولو انعمنا النظر في هذه العبارة المختصرة ذات الدلالة العميقة التي صارت سبباً أوّلياً لعودة طفل إلىٰ أُمّه لاكتشفنا أنّ الاستقرار الروحي والفكري للأُم داخل الأُسرة خاصّة والمجتمع البشري عامّة يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار؛ لأنّها المربّي الأوّل للطفل، وهذا لايتمّ إلّا باستقرار الطفل إلىٰ جانب أُمّه؛ ولذلك فلو تعلّقت إرادة الله عزّ وجل بطفل خاصّ ـ إذا كانت في أُمّه صلاحية لذلك ـ فإنّها تسفر عن استقرار الطفل إلىٰ جنب أُمّه خلال فترة زمنية قصيره؛ لأنّ زعزعة أفكار الأُمّ واستقرارها يؤدّي إلىٰ اضطراب ذلك المجتمع الصغير ـ الاسرة ـ ومن ثم اضطراب المجتمع البشري بأسره.

٢ ـ **﴿وَلَا تَحْزَنْ ﴾**. والسبب الثاني أيضاً يخصّ الأُمّ بشكل مباشر، فليس من الصواب أن يصيب الأُمّ الحزن والغمّ في جو الأُسرة، فالحزن هو حالة سلبيّة خطرة تُعرّض سلامة الأُمّ واستقرارها للخطر، وينسحب أثره السلبي علىٰ كلّ الأُسرة، في الوقت الذي نعلم جيداً أنّ تعاليم الأديان السماوية والتوصيات الأخلاقية تبتنى علىٰ أساس توطيد الأمن وإقرار الطمأنينة والسلام بين أبناء البشر للوصول إلىٰ استقرار روحي معنوي للإنسان، وهذا موضوع متجذّر متشعّب يحتاج إلىٰ تفصيل وبحث خاصّ به.

---

(١) القصص ٢٨/١٣.

(٢) قرّ في مكانه قراراً إذا ثبت ثبوتاً جامداً، وأصله من القرّ وهو البرد، وهو يقتضي السكون والحرّ يقتضي الحركة. وقرّت عينه، تقر: سُرّت. انظر مفردات ألفاظ القرآن/٣٩٧ ـ ٣٩٨.

٣ ـ ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾. هذه الجملة تشير إلىٰ أنّ أمّ موسىٰ كانت تتمتع بشخصية مستقلّة في حدّ ذاتها، ولم يكن مقامها من أجل أنّها أمٌّ لنبي من أنبياء اللّه فقط، بل كان لها مقام وشأن رفيع قبل أن تصبح أُمّاً لموسىٰ، فقد كانت تتلقّىٰ تعاليمات من السماء مباشرةً وأهمّها هو الإيمان بأنّ وعد الله حقّ، وهذا مقام لايصل إليه أحد إلّا أن يدرك مرتبة علم اليقين، أو بالأحرىٰ عين اليقين.

٤ ـ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ﴾. فبعد الفراغ من استقرار أمّ موسىٰ الروحي والوحي إليها بتعاليم سامية توجّه الكلام نحو المجتمع ليكشف لها عن خصيصة من خصائصه وهي: أنّ أكثر الناس يجهلون ولايؤمنون بأنّ وعد الله حقّ، وأنّه لايخلف الميعاد؛ لأنّهم يتصوّرون أنّ وعد الله لا يتحقّق[1].

وهكذا يظهر جلياً أهمّية تواجد هذه المرأة في خضم تلك الظروف المتأزّمة، ويظهر أيضاً مغزىٰ خطاب هارون لأخيه موسىٰ بـ ﴿ابن أُمّ﴾[2] وذلك عندما رجع موسىٰ إلىٰ قومه من جبل طور ورأى انحرافهم وضلالتهم وأصابه الحزن والأسف، فغضب وأخذ برأس أخيه يجرّه ويعاتبه علىٰ ما آل إليه القوم، ولم يُهدّئ من روع موسىٰ وغضبه إلّا خطاب هارون له بـ ﴿ابن أُمّ﴾ وبهذا الخطاب يقبل عذره، ويذكّره بأُمّه في صلابتها وتحمّلها للمشاقّ ومدىٰ عطفها ورأفتها وشخصيّتها الفذّة التي كانت موضع ثقة السماء وأهلاً للوحي الإلـهي.

هكذا نختم بحثنا عن شخصية أُمّ موسىٰ وأُخته، ودورهما في حضانته باختصار، ونترك مراحل تربيته ونشأته علىٰ يديهما إلىٰ حديث لن نتطرّق إليه.

بنات شعيب عليه السلام

(١) لا نخطأ إن قلنا بأنّ جملة: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تعود إلىٰ النقاط الثلاث المذكورة قبلها ليكون معنى الآية: أنّ أكثر الناس لايعلمون مقام الأُمّ وفلسفة ما ذكرناه بهذا الخصوص، ولايعلمون أيضاً أهمّية عدم خلف الله وعده لهذه المرأة.

(٢) الأعراف ٧/ ١٥٠، وطه ٢٠/ ٩٤.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾(١).

بهذه الآية الكريمة يقصّ القرآن الكريم مرحلة أُخرىٰ من حياة النبي موسىٰ ﷺ. فبعد أن خرج من مصر خائفاً يترقّب وطوى مسافة ليست قصيرة واجتاز كلّ متاعب الطريق وأخطاره، دخل هذه المدينة الخارجة عن سيطرة فرعون وجنوده، وأكسبه بعد المسافة وعدم حمله للزاد والمتاع ووحدته في طريق لم يسلكه من قبل بكلّ تعقيداته صلابةً وشهامةً جديدة، وبما أنّه لأوّل مرّة تطأ قدماه هذه المدينة ولم يعرف شيئاً عن معالمها توجّه نحو مصدر المياه التي يستقي الناس منه، فرآهم مجتمعين حول البئر ومن دون هؤلاء رأىٰ امرأتين قد عزلتا قطيع ما شيتهما عن سائر الناس وهما في انتظار، ولمّا كان موسىٰ قد ترك وطنه وخرج منه بسبب دفاعه عن رجلٍ من بني إسرائيل تعرّض لظلم ولم يتماسك موسىٰ نفسه دون الذود عن هذا المظلوم وإعادة حقه إليه، فهنا أيضاً حثّه ضميره الحيّ للسؤال من هاتين المرأتين عن أمرهما، ولمّا كانتا تمارسان نشاطاً اقتصادياً وتحافظان في الوقت نفسه علىٰ حيائهما ووقارهما إلىٰ حدّ بعيد، أجابتا موسىٰ ﷺ علىٰ سؤاله باختصار وهما يعربان عن سبب اعتزالهما الناس بالقول: ﴿لَانَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرُ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَىٰ الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(٢).

وهكذا سقىٰ موسىٰ لهاتين المرأتين كما دافع من قبل عن رجلٍ في مصر، فهو يدأب علىٰ حماية المظلوم أينما حَلَّ وأياً كان المظلوم رجلاً كان أو امرأة فهو عنده سواء.

ثمَّ ينتقل من حرّ الشمس إلىٰ ظل شجرة ليلقي بجسده المُنهك من تعب الطريق وسقاية الماشية تحتها مبتهلاً إلىٰ الله وهو يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلَتَ إِلَيَّ

(١) القصص ٢٨/٢٣.

(٢) القصص ٢٨/٢٤.

مِن خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ فهو يشعر بالفقر أمام غنىٰ الله ونعمه ولكن لايُصرّح ببيان حاجته وطلبه من الله، بل يعرض حاله بكلّ أدب ويقول لربّه: رَبّ كُلّ ما أنـزلت إليّ إلىٰ الآن كان كلّه خير، وأنا بحاجة إلىٰ كلّ هذا الخير، وأنت ترىٰ حالي.

فهو بهذه الطريقة المؤدّبة يفوّض كلّ أُموره إلىٰ الله دون أن يحدّد طلبه؛ لأنّه يعلم بأنّ الله أرحم به من نفسه ولسان حاله قول مؤمن آل فـرعون: ﴿وَأُفَـوِّضُ أَمْرِي إِلَىٰ اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾[١].

العفاف زينة المرأة في المجتمع

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[٢].

هكذا استجاب الله دعاءَ موسىٰ بعودة إحدىٰ تينك الأُختين إليه، فقد طـلب موسى من الله كلّ الخير وكان طليعة هذا الخير بقدوم هذه المرأة الصالحة إليه.

وكلمة ﴿اسْتِحيَاءٍ ﴾ بصيغة النكرة تدلّ علىٰ استيعاب هـذه المـرأة للـعفاف بشكل كامل، أي إنّ حياءها لايوصف في مشيها برزانة وكلامها المؤدّب والحكيم لموسىٰ: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾. ولو دقّقنا فـي الجـملتين الأُوليين من هذه الآية لوجدنا فيهما جواباً وافياً للتساؤلات التي ترد عن حضور المرأة في المجتمع.

فالأنبياء هم أُسوة للبشر: ﴿أُولئِكَ الّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُداهُمْ اقْتَدِه ﴾[٣]، وهـم لا يمارسون الإفراط ولا التفريط في أعمالهم وتـصرّفاتهم؛ لأنّ الديـن والشـريعة الإلـهية هي التي تنير دربهم وتحدّد مسيرهم، والنساء اللاتي كان لهن دور في حياة الأنبياء ومارسن تلك الأدوار الاجتماعية علىٰ مرأى ومسمع من الأنبياء، هنّ

---

(١) غافر ٤٠/٤٤.

(٢) القصص ٢٨/٢٥.

(٣) الأنعام ٦/٩٠.

أيضاً يعتبرن قدوة لسائر النساء في كلّ الأُمور خاصّة فيما يتعلّق بحضورهن الاجتماعي ونشاطهن خارج المنزل.

ومن جانب آخر فإنّ الحضور الاجتماعي للنساء في حياة الأنبياء يشير إلىٰ أنّ لهن حرية الحضور في المجتمع بشكل مستقلّ، وفي أيّ دور يقع اختيارهن عليه، ولكن بشرط واحد مهمّ لأنفسهن وللمجتمع والأُسرة، وهو الحضور بعفاف وحياء علىٰ كلّ المستويات الإجتماعية، فلو التزمت المرأة بهذين الشرطين فلايسبّب حضورها إلىٰ جانب الرجال في المجتمع أيّ خطر، ولو تعرّض هذا الحصن للتهديد، وفُصل بين الرجل والمرأة بعدّة كيلومترات فإنّ المجتمع يبقىٰ عرضةً للخطر.

وخير دليل علىٰ ذلك ما جاء في قصّة ذلك الشيخ الكبير في القرآن الكريم والذي أجمع المفسّرون علىٰ أنّه النبي شعيب ﷺ، فقد أعطىٰ الاستقلال في التصرّف لبناته إلىٰ جانب التقوىٰ بحيث أرسل إحداهنّ لوحدها إلىٰ رجل شابّ غريب ووحيد في مهمّة وبكلّ إطمئنان وهو يعلم بحفظهما لكلّ الحرمات والحواجز بينهما.

﴿قَالَتْ إِحدَاهُمَا يَا أَبتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾[1]. تشير هذه الآية الكريمة أيضاً إلىٰ أنّ النساء المؤمنات بتعاليم السماء، واللاتي يسكنّ مع الأنبياء ويسلكن طريق الكمال، يتمتّعن بحرّية إبداء الرأي واتّخاذ القرار، ويصرّحن بما يعتقدن أنّه صحيح بكلّ حرّية، فهنّ يفرّقن بين الحياء المطلوب رعايته للنساء والحياء غير المطلوب وليس في مَحلّه، فابنتا شعيب كانتا حاضرتين في الحديث الذي دار بينه وبين موسىٰ، بل تدخّلت إحداهن في الحوار وساعدت أبيها في اتّخاذ القرار، واقترحت استئجار موسىٰ وتوظيفه عندهم.

واستدلّت علىٰ اقتراحها هذا بدليلين أساسيين هما: القوّة والأمانة. فهي

---

(١) القصص ٢٨/٢٦.

بذكائها وفطنتها اكتشفت هاتين الخصلتين عند موسىٰ ﷺ من خلال موقفين أو لقائين معه؛ لأنّها كانت تعلم بأنّ تفويض أيّ عمل أو مسؤولية لشخص دون إحراز هاتين الصفتين فيه هو أمر غير لائق؛ ومن أجل ذلك فقد استدلّت وأكّدت علىٰ تينك الخصلتين النبيلتين.

كما نكتشف إضافة إلىٰ ما ذكرناه أموراً أُخرىٰ في هاتين الجملتين منها: الحضور الاجتماعي للمرأة ورزانتها وتقواها وصراحتها وفطنتها وكياستها وفهمها الصحيح للأُمور والقدرة على اتّخاذ القرار، وصفات أُخرىٰ كانت بنات شعيب ﷺ تتمتّع بها، وكل النساء توجد لديهنّ تلك الاستعدادات.

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَن أُنكِحَكَ إِحْدَىٰ ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَن أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1]. فبعد أن استمع شعيب ﷺ الىٰ اقتراح ابنته الوجيه في استئجار موسىٰ ﷺ واستدلالها الرصين، وشعر من خلال علاقته الوثيقة بها ومن كلامها هذا بأنّها تميل ميلاً باطنياً إلى الزواج بموسىٰ ﷺ؛ لذلك ودون أيّة مقدّمة وبصورة مفاجئةٍ عرض علىٰ موسىٰ الزواج بها وجعل مهرها مرافقته لهم لفترة من الزمن؛ لأنّهم كانوا بحاجة إلىٰ هذه الرفقة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية من جانب، وهي فرصة له أيضاً لكي يستقرّ بعد الفرار والمطاردة، وفي الوقت نفسه يدّخر رأس مال ليبدأ فيما بعد حياته المستقلّة.

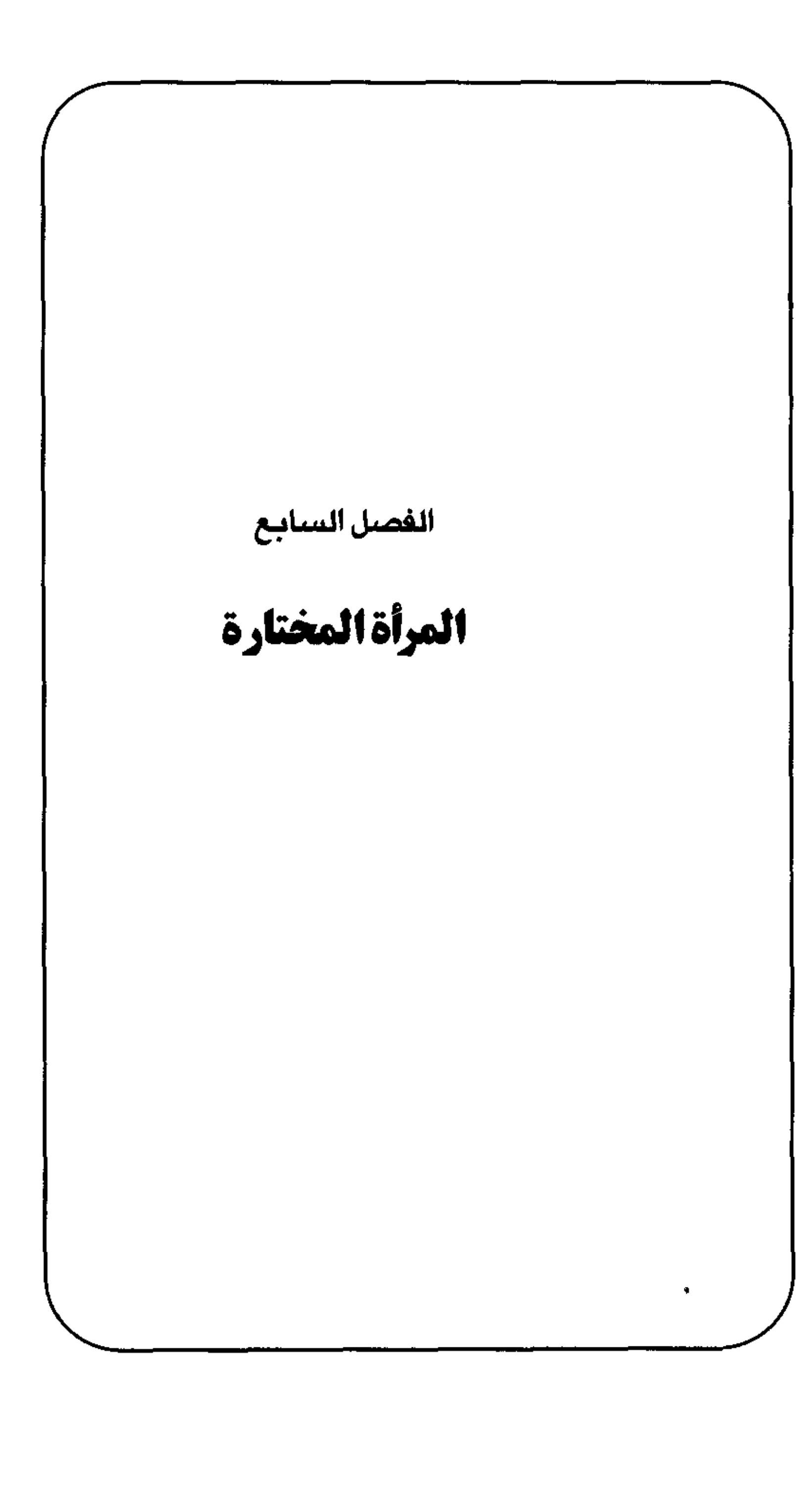
وهكذا يبدأ موسىٰ ﷺ مرحلةً جديدة من حياته، امتازت باليسر بعد العسر والاعداد الرّوحي لتلقّي الرسالة الإلـهية، فبعد أن قضىٰ الأجل الذي عيّنه له شعيب ﷺ كمهر للزواج، أخذ بيد زوجته وعاد مرّه أُخرىٰ إلىٰ وطنه، وفي الطريق مَرّ علىٰ صحراء قاحله فرأىٰ ناراً وذهب ليقتبس منها، وفي هذه الأحوال اختاره الله لرسالته وحَمّله دعوته.

وهكذا يبدأ النبي موسىٰ ﷺ مرحلة جديدة في حياته ببداية نبوّته والذهاب

---

(١) القصص ٢٨/٢٧.

إلىٰ فرعون ودعوته إلىٰ طريق الحقّ، ومن ثم مقارعته ومحاربة الطغاة؛ ونظراً لأهمّية هذا الجانب يسدل القرآن الكريم الستار علىٰ حياة موسىٰ عليه السلام الشخصية وأُسرته وأولاده.



الفصل السابع

المرأة المختارة

المرأة المختارة

عالم الإنسان والبشريّة مليء بالمعارف ولايمكن الإحاطة بها إلّا من خلال الاتّصال بعالم الوحي؛ لأنّ الوجود الإنساني على الرغم من وحدته متشعّب وله أبعاد كثيرة في عالم المعرفة، وكل واحدة من شعبه تستبطن موضوعات مستقله تكون تارة محسوسة وملموسة، وتارة أُخرىٰ تبدو غريبة ونادرة.

من هذه الموضوعات البُعد العرفاني والمعنوي للإنسان، لو تيسّر له ارتقاء سُلّمه، ولكن يصعب بيان ذلك الإحساس في قالب الألفاظ والعبارات، وإذا ما حاول الإنسان تصويره وبيانه للآخرين فسيكون بعيداً كل البعد عن الحقيقة، بحيث لو حاولنا الاطّلاع على هذه الحقائق وإدراك مغزاها حتىٰ من كلام الوحي لوجدناه ليس بالسهل اليسير؛ لأنّ كلام الله له تفسير وتأويل وبطون، ولا تظهر إلّا لمن خرق حُجُب الباطن واطّلع علىٰ عالم الوجود بما هو، وذاق طعم قطرات ماء ذلك البحر من العلوم.

ومعرفة شخصية النماذج الإنسانية السامية ـ أي الأنبياء والأولياء ـ تتطلّب روحاً معنوية ترقىٰ إلى مستوىٰ نورانية أُولئك الصلحاء؛ ولهذا فإنّ الكلام عن القدّيسة مريم عليها السلام أمر في غاية الصعوبة، فهي نموذج إنساني سامٍ لايصدق في حقّه إلّا الكلام الإلـهي، ويصعب استيعاب حقيقتها الوجودية علىٰ البشر في كل

الأزمنة فضلاً عن العصر الذي كانت فيه؛ ممّا أدّىٰ بالبعض الىٰ وسمها بـصفة الألوهية؛ لأنّهم وجدوا فيها صـفات نـبيلة لايـمكن تـصوّرها إلّا فـي ذات الله المقدّسة؛ ولهذا السبب نكتفي في تعريف هذه الشخصية الروحيّة السامية بهذا القدر ونلجأ إلىٰ كلام الله في القرآن؛ لنستلهمه ونستنطقه لبـيان جـانب مـن حياتها ومراتبها المعنوية، ونستظلّ بهديه فإنّه حقاً ﴿**هُدَىً لِلمُتَّقِينَ**﴾[١].

لاشك أنّ إظهار أيّ عقيدة وطلب التمسك بها والثبات عليها لايستتبّ بالبيان اللفظي والاستدلال الكلامي، بل يستلزم تقديم نماذج حيّة مـلموسة تـتمسّك بتلك العقيدة وتسير علىٰ نهجها؛ ليتسنّىٰ للمجتمع أن يعايش تلك الأُسـوات ويطّلع عن كثب علىٰ مآثر تلك العقيدة ومحاسنها وسُبل تطبيقها ومـا يـترتّب عليها، والموقع الذي يحتلّه الأُسوة بين أفراد المجتمع، والمنزلة التـي يـرتقي إليها بين الناس، ومن ثم التأسّي به والسعي للارتقاء الىٰ مستواه من خلال تربية النفس وإصلاح الذات.

والقرآن الكريم أيضاً التزم بهذا النهج وقدم نماذج بشرية مـتكاملة، وعـمل علىٰ تربية النوع البشري علىٰ هدىٰ هذه الشخصيات النبيلة، بحيث لم يكتف بضرب أمثلة من الأنبياء، بل قدّم شخصيات أُخرىٰ سارت علىٰ طريق الحقّ بعد أن ميّزت بينه وبين الباطل، وسرد قصصها لتكون نموذجاً ملموساً لعاقبة كـل إنسان سواء كانت خيراً أو شرّاً.

ويختلف نوع تناول القرآن الكريم لهـذه الشـخصيات والنـماذج السـامية، فتطرّق إلى بعضها قبل تكـوينها وولادتـها كـيعقوب وإسـحاق[٢] ويـحيى[٣] وعيسى عليه السلام[٤] ومحمد صلى الله عليه وآله[٥]، وبعضها بعد ولادتها كموسىٰ عليه السلام[٦]، كما تـعرّض

---

(١) البقرة ٢/٢.

(٢) هود ٧١/١١.

(٣) مريم ٧/١٩.

(٤) آل عمران ٤٥/٣.

(٥) الشعراء ٢١٩/٢٦.

إلى أنبياء آخرين وجوانب مختلفة من حياتهم واستقرارهم على هذه المعمورة.

وأمّا مريم عليها السلام فقد تحدّث عنها القرآن الكريم منذ فترة الحمل بها أيّ قبل ولادتها وفي مراحل مختلفة من حياتها، وبيّن في كلّ مرحلة جانباً من شخصيّتها ومنزلتها؛ ومن أجل الوقوف على شأنها سنتطرّق إلى شخصية أمّها الكريمة وإلى زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام لما من صلة وأثر في تربيتها ونشوئها، وسنتحدّث عنهم بحسب مراحل حياة مريم عليها السلام.

مريم ذريّة عمران

﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى العَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٧).

تحدّث القرآن الكريم عن شخصية مريم عليها السلام بشكل مفصّل في سورتي آل عمران ومريم، كما تحدّث عنها باختصار في سورة المائدة والنساء والأنبياء والتحريم والمؤمنون. وتنقسم حياتها المباركة إلى عدّة مراحل هي:

١ ـ قبل الولادة.

٢ ـ الطفولة وتكفّل زكريا عليه السلام لها.

٣ ـ الرشد والرقي الروحي والمعنوي.

٤ ـ بشارتها بالحمل بعيسى عليه السلام.

٥ ـ الخروج من المدينة وولادة عيسى عليه السلام

٦ ـ العودة إلى المدينة مع ولدها.

٧ ـ هجرتها مع ولدها إلى أرضٍ أُخرى.

٨ ـ نسبة الالوهية لها ولو لدها من قبل الجهّال والغلاة.

يبدأ الحديث عن حياة القدّيسة مريم بشكل تلويحي من هذه الآية المذكورة،

---

(٦) القصص ٢٨/٧.

(٧) آل عمران ٣/٣٣ ـ ٣٤.

حيث يقول عزّ من قائل: إنّ الله اصطفىٰ من البشر شخصيّتين هما آدم ونوح عليهما السلام، وأُسرتين هما آل إبراهيم وآل عمران، واجتبىٰ هؤلاء وقدّمهم علىٰ سائر الناس بأُمور، كما اصطفى[1] كلامهم واطّلع علىٰ باطنهم؛ ومن أجل ذلك اصطفاهم وقدّمهم علىٰ الآخرين.

ولم يكن اصطفاؤه وتقديمه لهم دون سبب وعلّة وهدف، فقد امتاز هؤلاء بصفات وميزات عند الله أدّت إلىٰ أن يكتسبوا درجة الخلوص، والله السميع العليم بهذه الدرجة يعلن عنها للبشرية جمعاء، ومن الوضوح بمكان أنّ هذه الأُسر والأشخاص لم يكن امتيازهم عن سائر البشر لعلاقة عرقية وقومية بالأنبياء بل لوراثة قسم من عقائدهم، وقد تجلّت في بعض الشخصيات التي اختارها الله حيث قال عزّ من قائل: **﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَايَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾**[2] وهذا يدلّ علىٰ أنّ الاصطفاء لم يكن أمراً جبرياً دون لياقة وأهليّة له، فالله تبارك وتعالىٰ صرح بأنّ هذا العهد لا ينال الظالمين منهم.

تطابق إرادة الخالق والمخلوق

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[3].

يتحدّث القرآن الكريم ابتداءً من هذه الآية وما بعدها مباشرة عن شخصية مريم عليها السلام[4]. فبعد أن ذكر الله الأنبياء واصطفاءه لهم وهو حقٌّ لله تبارك وتعالىٰ

(١) الاصطفاء تناول صفو الشيء. انظر مفردات ألفاظ القرآن / ٢٩١.

(٢) البقرة ٢/١٢٤.

(٣) آل عمران ٣/٣٥.

(٤) صحيح أنّ قصّة مريم عليها السلام تبدأ في القرآن من هذه الآية، ولكنّنا ذكرنا الآيتين السابقتين؛ لأنّهما ترتبطان بالمقدّمة التي ذكرها الله تعالى، وهي اصطفاؤه لآل عمران علىٰ العالمين، ومريم ابنة عمران وهي من جملة من اصطفاهم الله، ومن هذه الأُسرة بالذات. وقد ذكر العلامة الطباطبائي في تفسيره الميزان ٣/٣٠٢ أنّ ←

يذكر امرأةً ـ دون أيّ فاصل أو تطويل للكلام ـ لها صلة بهذه الأُسرة المصطفاة، فورود اسم هذه المرأة ونقل قولها دون أية مقدمّة يدلل علىٰ دورها الريادي بالذات وبشكل خاصّ، أو على دورها نيابة عن هذا الصنف بشكل عامّ، وهو دور مهمّ ورئيسي وأساسي في مسار الشريعة، لا جانبي ولا هامشي؛ ذلك لأنّ توجيه الكلام لها وأهمّية استهلال الآية بكلامها ينم عن دورها في تحقّق الأهداف الالهية، وهذا النوع من الخطاب يتطلّب دراسة عميقة وتأمّلاً دقيقاً.

ففي هذه الآيه تخاطب زوجة عمران الله سبحانه وتعالىٰ بصيغة دعاء يكشف عن أُمور منها: إيمانها بالله الواحد، وروحها العرفانية السامية، وتوكلّها علىٰ الله، حيث تبدأ كلامها بكلمة ﴿رَبِّ﴾ وهو أقرب إطلاق في هذا المجال لحذف حرف

← القرآن الكريم أينما ذكر اسم عمران قصد به أبا مريم، ولم يذكر القرآن مرّة واحدة اسم عمران أبي موسىٰ عليه السلام.

إضافة إلىٰ أن الآيتين السابقتين اللتين تحدّثتا عن النبوة وذرّية الأنبياء لهما صلة بهذه الآية التي تنقل كلام زوجة عمران أم مريم، وتلك الآيتان تمهّدان أرضية تسلسل النبوة في هذه الأُسرة، والدليل علىٰ ذلك تصدّر كلمة ﴿إذ﴾ في هذه الآية لتربط ماقبلها بما بعدها، وكذلك تكرار عبارة «سميع عليم» في هذه الآية وآخر الآيتين السابقتين. وكلمة ﴿إذ﴾ ظرف زمان لابدّ لها من عامل، ولابدّ أن يكون أحد الاحتمالات الثلاثة الآتية:

١ ـ ﴿اصطفى﴾ في الآية الأُولىٰ، وهذا ما ذهب إليه الزجاج. انظر مجمع البيان، المجلد١، الجزء ٢ / ٤٣٤.
٢ ـ ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ في الآية الثانية، وهو قول علي بن عيسىٰ. انظر مجمع البيان، المجلد ١، الجزء ٢ / ٤٣٤.
٣ ـ «اذكر» وهي محذوفة، ذكر ذلك الاخفش والمبرد. انظر مجمع البيان، المجلد ١، الجزء ٢ / ٤٣٤.

وعلىٰ هذا لو أذعنّا للرأي الأول والثاني فإنّنا نلمس الصلة بين هذه الآية والآيتين السابقتين.

ولو قلنا بالرأي الثالث فإنّ الصلة المعنوية بين هذه الآيات الثلاث واضحة ووصل الآيتين السابقتين بموضوع مريم واضح أيضاً؛ لأنّ الآيتين السابقتين تتحدّثان عن الأنبياء وذرّيتهم والآية الثالثة تتحدّث عن مريم و عيسىٰ عليهما السلام وهما من ذرية عمران.

إضافة إلىٰ كلّ ذلك فإنّ تكرار عبارة ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يوثّق الصلة بين الآيات من جانب آخر، وهو أن هاتين الصفتين اللتين ذكرهما الله ذكرتهما أُمّ مريم في نهاية الآية الثالثة، وهذا الانطباق يدلّ على أنّ الإنسان لو سار علىٰ فطرته الإلـهية فإنّه يجد في حضيض الناسوت نفس الذي يوجد في قمّة عالم اللاهوت.

وذهب الزمخشري إلىٰ أبعد من ذلك في تفسيره وقال: إن عبارة ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لها معنىً عامّ ومعنىً خاصّ، فالمعنىٰ العامّ هو الذي قالته أُم مريم في الآية الثالثة، والخاصّ هو أن الله سميع لقول زوجة عمران وعليم بما في قلبها. انظر تفسير الكشاف ١ / ٤٢٤.

النداء وياء المتكلّم، وتخاطب ربّها بهذا الكلام المعبّر عن قربها واخلاصها وعبوديتها له، وهي مسلّمة لربوبيتة، بعيدة كل البعد عن الأنانية وحبّ الذات، فتقول: ربّ إني نذرت وأوجبت علىٰ نفسي أن اجعل ما في بطني حرّاً في سبيلك[١]. فهي ترىٰ نفسها أصغر من أن تتكفّل ما في بطنها؛ ولذلك تريد أن يتكفّل الله سبحانه طفلها ويتولّاه.

وتصل في توكّلها واعتمادها علىٰ الله درجة أسمىٰ من أُمّ موسىٰ، حيث تخشىٰ أن تسبّب حضانتها لطفلها قيوداً عليه، وهذا يشكّل في حدّ ذاته شائبة في الخلوص لله الواحد الأحد؛ لأنها تعتقد أنّ التحرير والنذر لايكتمل ولا يكون تحريراً حقيقياً إلّا أن يكون حرّاً وخارجاً حتىٰ من قيومية الوالدين.

وسوف نشير في بحثنا المقبل إلىٰ أنّ زوجة عمران نذرت طفلها لله دون أيّ وحي وإلهام إليها، وعملها هذا كان مطابقاً لإرادة الله ومشيئته المكتوبة لهذا الوليد، وكأنّها تعلم هي أيضاً ماذا يجب عليها أن تفعل وتطلب من الله، وهذه أسمىٰ مرتبة من مراتب العرفان والسير والسلوك إلىٰ الله لا يبلغها إلّا العلّيون، فهناك من يخضع لإرادة الله ويرضىٰ برضاه بعد أن يفكّر ويتعقّل ويقوده فكره إلىٰ وادي العمل، ثمّ التسليم لله وإرادته والرضا برضاه.

وهناك من يسلك طريقاً أسمىٰ، فهو يريد ما أراده الله، ويبادر إليه ويطلبه: لأنّه مطابق لإرادته: ﴿**وَمَا تَشَاؤونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ**﴾[٢] ويقول العلّامه المرحوم الطباطبائي في تفسيره لهذه الآيه: يبدو أنّ مشيئة الله تؤثّر في مشيئة العبد وعمله، وبعبارة أُخرى: لو أراد الله من عبدٍ شيئاً جعل في نفسه إرادةً ومشيئة لذلك العمل[٣].

ويقول الأُستاذ الكبير آية الله جوادي الآملي أيضاً: لو وصل الإنسان إلىٰ

---

(١) التحرير هو بمعنى طلب الخلوص، وتحرير الابن والولد أو أي شيء آخر بمعنى وقفه لطاعة الله وخدمته.
(٢) الدهر ٧٦/٣٠.
(٣) تفسير الميزان ٢ / ٣٨٢.

قناعة عن طريق الدليل والبرهان تتولّد في نفسه مرحلة من الاطمئنان واليقين، ولو وصل به الدليل من علم اليقين إلىٰ عين اليقين وعند ذلك سيرىٰ ماذا يحدث في عالم الوجود، وكيف يحيي الله الموتىٰ، وهذه مرتبة أسمىٰ من قبلها. ولكن هناك مرتبة أسمى من عين اليقين هي مرتبة حقّ اليقين، وفيها يصل الإنسان إلىٰ مرتبة يرىٰ في نفسه (المحيي)[١].

فوجود هذه المرأة صار ظرفاً لمشيئة الله، وأصبحت إرادتها إرادته، فهي لاترىٰ سواه، وهي دون شكّ من أوليائه؛ ولذلك تبتهل إليه بعد أن عقدت النذر وتقول: ﴿فَتَقَبَّل مِنّي﴾. والتقبّل[٢] هو أخذ الشيء علىٰ الرضا به، فهي تطلب من الله أن يتقبّل مولودها ويرضىٰ به ويتكفّله.

ثم تُنهي دعاءها بعبارة: ﴿إنّكَ أنتَ السّمِيعُ العَلِيم﴾ إنّك أنت تسمع الدعاء وتعلم ما في القلوب وتعلم السر والعلانية لكلّ الموجودات. وبهذه الجملة تستعين لاستجابة دعائها وهي مطمئنّة من صحّة طلبها وخلوص تضرّعها؛ ولذلك تذكر صفتين من صفات اللّه هما: السميع للدعاء والعليم بالنوايا، وهما الصفتان اللتان وصف بهما الله نفسه في الآية السابقة عند إخباره لآل عمران وتأميلهم بأنّه هو السميع العليم.

مناجاة زوجة عمران

﴿فَلَمّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ﴾[٣].

فبعد أن وضعت زوجة عمران حملها قالت بتعجّب[٤] وحسرة: ﴿رَبِّي إنّي

(١) زن در آئينه جمال وجلال (بالفارسية) / ١٤٨ ـ ١٤٩.
(٢) مجمع البيان، المجلد ١، الجزء ٢ / ٤٣٤.
(٣) آل عمران ٣/٣٦.
(٤) تعجّبها هو الذي دعاها إلىٰ مخاطبة الله؛ لأنّها تعلم أنّ الله يعلم السرّ والعلن، فهو دليل علىٰ أنّ كلامها هذا جاء نتيجة تعجّبها ودهشتها، ولولا ذلك لكان عبثاً.

وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾. وقد وردت آراء كثيرة في سبب تعجّبها وحسرتها، ولكن من المسلَّم به هو أنّ الإنسان تصيبه الدهشة والحيرة إذا واجه شيئاً لم يتوقّعه، أي اذا وجد فرقاً واختلافاً بين ما كان يعلم ويتوقّع وبين ما حدث فعلاً، فبالنسبة لهذه المرأة يبدو واضحاً أنّها كانت تعلم بيقين أنّها ستلد ذكراً ولكنّها ولدت أُنثىٰ، وتعجّبها ودهشتها ليس لأُنوثة مولودها، بل لتنافي ذلك وعدم تطابقه مع علمها.

كما أنّه واضحٌ ومبرهن أنّ شخصيّة كهذه لم تصل إلىٰ هذه الدرجة من اليقين والعلم عن طريق غير عقلي أو غير منطقي؛ لأنّنا نعلم أنّ الله يعلم ما في الأرحام، وهو من العلوم الغيبيّة ومختصّ به حيث قال عزّ من قائل: **﴿إِنّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأرحَام﴾**[1] وعلم الغيب يعلّمه لمن يشاء من عباده بشروط تبيّنها هذه الآية: **﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أحداً * إلّا مَنِ ارتَضَىٰ مِن رَسُولٍ﴾**[2]. ومن هاتين الآيتين نصل إلىٰ نتيجة هي: أنّ أولياء الله والمتّقين من عِبَاده إذا أحاطوا بهذا العلم فذلك يتمّ إمّا عن طريق الوحي أو الإلهام المباشر أو غير المباشر.

ومن كلّ هذا يتّضح أنّ علم زوجة عمران بذكورة حملها ناشئ من وحي أو إلهام لها أو قريب منها لها صلة وثيقة به؛ لأنّ شخصيةً كهذه تدعو الله بخلوص وتوكّل تامّين يُستبعد أن يكون قد تلقّت علمها عن طريق غير موثّق، وهذا ما تدعمه بعض الروايات وتؤكّده حيث يُنقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: أوحىٰ الله إلىٰ عمران بأنّي سأهب لك ولداً مباركاً يشفي المرضى ويحيي الموتى بإذني وسأجعلهِ رسولاً لبني إسرائيل، وبعد هذه البشارة حملت امرأته منه.[3] وعلىٰ ما يظهر من هذا القول وما ورد من أقوال أُخرىٰ أنّ زوجة عمران كانت تعلم بأنّ الله سيهب لها ولداً، ولذلك فهي تندهش عندما تجد ما وضعت أُنثىٰ، ولكن قبل أن

---

(١) لقمان ٣١/٣٤.

(٢) الجن ٧٢/٢٦ ـ ٢٧.

(٣) مجمع البيان، المجلد ١، الجزء ٢ / ٤٣٥.

يتمّ كلامها يأتيها الجواب، فيقول عزّ من قائل:

﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كالأُنثَىٰ﴾[١].

هاتان الجملتان المعترضتان هما قول الله سبحانه استدراكاً علىٰ كلام زوجة عمران؛ لكي لا تظنّ الأجيال القادمة ظنّ السوء بهذا المولود وأنّه أثار مشكلة في وقته، والله أعلمُ بما وضعت وهو يعلم أيضاً بأنّ الذكر لايمكنه أن يؤدّي الدور الذي أراده الله لهذا المولود، والأُنثىٰ فقط هي قادرة علىٰ تحقيق ما أراده الله؛ لأنّ الذكر لايستطيع تحمّل هذا العبء واستيعاب الروح الألهية، ومن ثمّ تقديم مولود عظيم ذي أبعاد عجيبة للمجتمع البشري.

كما أنّ هاتين الجملتين يعتبران تعظيماً لهذا المولود، ومعنىٰ ذلك هو أنّ اللّه أعلم بالذي وضعتيه، إنّك وضعتي مولوداً ذا شأن ومنزلة رفيعة سيبلغها في المستقبل[٢].

وهناك خلاف بين المفسرين في جملة: ﴿لَيْسَ الذّكَرُ كالأُنثَىٰ﴾ هل هي قول أُمّ مريم أم إنّها كلام الله عزّ وجل؟ ولو أنعمنا النظر واعتبرنا الذكر أفضل من الأُنثىٰ، يتبين أنّ هذا ليس من قولها قطعاً؛ ذلك نظراً لما جاء في بداية الآية وما كانت تتوقّع أُم مريم من مولودها، وأنّها حسبت لمولودها الذكر حساباً خاصّاً ورسمت له دوراً معيّناً؛ ولذلك فهي تتصوّر أنّ الأُنثىٰ ليست كالذكر لا أنّ الذكر لا يصل إلىٰ الأُنثىٰ؛ لأنّ الإنسان في هذه الظروف يسلب التشبيه من المفضول لامن الفاضل لا العكس؛ إلّا أنّ الجملة معكوسة تماماً لتلقيها.

ولو افترضنا أنّها تعتبر الذكر مفضولاً والأُنثى هي الأفضل وبناء عليه أطلقت هذه الجملة، فهذا أيضاً لا ينطبق على ذلك التصوّر؛ لأنّها لا تستطيع أن تغيّر قناعتها بهذه السرعة وتزيل تعجّبها ودهشتها وما رسمت لمولودها الذكر من

(١) هاتان الجملتان معترضتان وليستا من كلام زوجة عمران بل هما من كلام الله. انظر تفسير الميزان ٣ / ٣٠٨، وتفسير الكشاف ١ / ٤٢٥.

(٢) تفسير الكشاف ١ / ٤١٥.

دور وما كانت تتوقّعه منه، فهي غير قادرة على تغيير قناعاتها والاستنتاج بهذه السرعة بأنّ الذكر لا يمكنه أن يؤدّي هذا الدور ويصل الىٰ ذلك الهدف المرسوم له كالأُنثىٰ، وتستدرك قولها وتصرّح بأنّه ﴿**لَيْسَ الذَّكَرُ كالأُنثَىٰ**﴾؛ لأنّ هذه الجملة تحتاج إلىٰ مقدّمات وأرضية معيّنة، وهي كانت بعيدة عنها وكان لها تصور يختلف تماماً لهذا.

إذن فهذا كلام الله سبحانه وتعالىٰ حيث يستأنف القرآن الكريم بعد ذكر هاتين الجملتين المعترضتين بنقل كلام امرأة عمران ثانية بالقول: ﴿**وَإنّي سَمّيتُها مَرْيَمَ وَإنّي أُعيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيطَانِ الرّجِيمِ**﴾. وبهذه الكلمات الجميلة تختار لمولودها اسماً[١] ينطبق مع مضمون نذرها، وتعيذها هي وذرّيتها أيضاً في المستقبل من كلّ سوء يمسّ الإنسان ويجرّه إلىٰ الانحطاط، وترجو لهم الخير، وتلجأ إلىٰ الله وتبيّن درايتها ووعيها وتصوّرها عن الذي يسبب الانحراف الا وهو الشيطان، وهي تعلم أنّ مولودها المحرّر قد تحرّر من قيد (ولاية الأُم) الأُمومة، ومن كلّ انحراف لكي يحقّق ذلك النذر الذي نذرته، فقد نظرت إلىٰ المستقبل من أُفق رفيع ورسمت لابنتها وذرّيتها مستقبلاً مشرقاً لايقيده أي قيد أو شرط، وتودعهم الله القادر المتعالي وتطلب منه أن يعصم هذه الذرية.

وهذا التصريح فيه دلالة وتأييد لما قلناه سابقاً بأنّها كانت تعلم بمجيء مولود من ذرّيتها يكون نبيّاً عظيماً من أُولي العزم من الرسل وله معجزات وكمالات، وفي كلامها هذا إشارة إلى ذلك المولود الذي تنتظره وتتوقّع أن يكون من ذرّية ابنتها. ولو تأمّلنا وتدبّرنا أكثر في مفاد كلماتها المقتضبة ـ التي هي أشبه ما تكون بدعاءٍ ومناجاة مع الله عزّ وجل ـ لأدركنا واكتشفنا علاقة وثيقة تربط هذه الأُمّ بخالقها، وهيتشعر بقربها كلّ القرب من الله، ولذلك تتكلّم معه

---

(١) مريم في اللغة بمعنى العابدة والخادمة، وجاءت بمعنى أمة الله. انظر تفسير اثنا عشرى ٢ / ٦١، وتفسير منهج الصادقين ٢ / ٢١٧.

وتناجيه بكلّ بساطة ودعة دون أي تقيّد وخوف، وتقول كل ما يدور في خلدها، وهذا النوع من الكلام يكشف عن سيرتها ونهجها العبادي وأُنسها بـالله وأنّـها كانت دائماً في عبادةٍ ومناجاةٍ وتضرّع إلىٰ الله، وهي واثقة من أنّ الله سميع قريب ودود يجيب دعوتها ويسمع كلامها.(١)

الله يتولّىٰ تربية مريم

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٢).

إنّ قبول الله لمريم كان بسبب دعاء أُمّها واستجابة الله لذلك الدعاء، والجدير بالذكر أنّ هذه الإجابة تمّت بعد ولادة مريم؛ لأنّ دعاء الأُم وحده لايكفي بل يجب أن يصطفي الله المولود أيضاً؛ ولذلك يبشّر الله تعالىٰ عباده بقبوله لها قـبولاً حسناً علىٰ الرحب والسعة.

وممّا يستحق ذكره والإشارة إليه في هذه الآية هو التعبير بـ﴿رَبُّهَا﴾ المشتقّ من مصدر الربّ وهو المربّي؛ ممّا يشير إلىٰ تكفّل الله سبحانه تربيتها بـنفسه دون أية واسطة، وبالنحو الذي هو يعلم كيف سيكون، وعلىٰ أحسن شكل بحيث يصلح أمرها وينبتها نباتاً حسناً، فهو خالقها وهو العالم بزوايا روحها ونـفسها وجسمها، وتربيته ليست كتربية الإنسان لكي يخفى عليه الكـثير مـن خـفايا النفس وخلجات الروح وخلايا الجسم، فالله الذي خلق الإنسان وهو المـتخلّق بصفات الجمال والجلال تولىٰ تربية مخلوق له مباشرة، وهذا مالم يـحدث ولم يصدق علىٰ أي مخلوق آخر سوىٰ مريم.

وما يقال عنها من أنّها في التاسعة من عمرها كانت تصوم النـهار وتـقضي

---

(١) في ظلال القرآن، المجلد ١، الجزء ٣ / ١٨٣.

(٢) آل عمران ٣/٣٧.

الليل بالعبادة وتتضرّع وتبكي في صلاتها وعبادتها بحيث سبقت كلّ الأحبار والرهبان في زمانها، لم يكن أمراً مستبعداً ولا غريباً؛ لأنّ قبول الربّ لها وإنباتها علىٰ يده يُبعد الشيطان عنها ويعصمها من كلّ خطأ وذنب، وبذلك استجاب الله ثاني دعاء دعت به أُمّها في حقّها، وهو عصمتها وطهارتها من رجس الشيطان الرجيم.

بعد أن قطعت أُم مريم كلّ العلائق المادية بينها وبين مولودها واختارت طريق الجهاد الأكبر مع نفسها، أودعت فلذة كبدها وقرّة عينها المعبّد وهي واثقة مطمئنّة من استجابة دعائها، ولم تُظهر أيّ ملل أو حزن علىٰ صغيرها، وهي متّكلة علىٰ الله بنيّة خالصة ولم تسأل عن أي شيء يخصّ الطفل من غذاء وحضانة وغيرها.

وتولىٰ الله تربيتها المعنوية والروحية ولكن من سيتولّىٰ تلبية حاجاتها المادية؟ وهذا مقام ومسؤولية لا يستطيع حملها والقيام بها إلّا شخص تتوفّر فيه صفات خاصّة ويتمتّع بلياقة تؤهّله لذلك.

ويتسابق من في المعبد وكبار السدنة ويتاخصمون لتولّي حضانة مريم وتكفّلها؛ ولذلك يقول الله سبحانه: **﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾**[1] فلجؤوا إلىٰ الاقتراع بعد نزاعهم وخصامهم؛ لأنّهم كانوا يتصوّرون أنّهم هم الذين يجب أن يتولّوا تربيتها وكفالتها، وقد غاب عنهم أنّ الله الذي تقبّلها هو الذي يختار لها الفرد الصالح؛ ولذلك نجد القرآن الكريم يصرّح: **﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾** أي ربّها كفّلها زكريا؛ لأنّ الله الذي اصطفاها سيختارُ من بين عباده من اصطفاه ليكون كفيلاً لها ويتولّىٰ أُمورها ويعاشرها، وزكريا هو ذلك الشخص الموهوب الذي لا يقترب الشيطان منه.

---

(١) آل عمران ٣/٤٤.

تلقّي الرزق من الله

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١].

هنا تبدأ مرحلة جديدة من حياة مريم عليها السلام وصلت فيها إلىٰ درجة من الكمال المعنوي والروحي والرشد والسمو العرفاني بعد أن سارت في الطريق الذي اختاره الله لها، بحيث كلّما جاء زكريا إلىٰ محراب عبادتها وجد عندها رزقاً فيثير ذلك عجبه علىٰ الرغم من أنّه نبيّ لا تخفىٰ عليه المعجزات الإلـهية، ويعلم ما في قدرة الله ورحمته، فقد واجه مرّات عديدة هذا الأمر الغريب وشاهد الرزق في المحراب، ولكنّه لم يجرأ على أن يسألها ويستفسر منها؛ لأنّه كان يراها غارقة في العبادة غافلة عمّا يجري حولها، ولعلّه كان يخشىٰ أن يشغلها عن عبادتها ويصرفها عن الله، وذات مرّة وجد الفرصة مؤاتية فلم يتمالك نفسه، ولعلّه رأىٰ من واجبه أن يستفسر ولايجوز له الصبر وإهمال هذا الأمر؛ لأنّه نبيّ وقد تقبّل كفالتها وليس منالصحيح اهمال هذا الأمر العجيب، فلمّا سألها عن مصدر ذلك الرزق أجابته دون تأمّل **﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ﴾**.

وما يلفت الانتباه في هذه المحاورة بين زكريّا ومريم عليهما السلام كلمة «الرزق»، فما هو الرزق، وما المقصود منه، وكيف كان يُعطىٰ لمريم؟

لو أنعمنا النظر في الآية وكيفية استخدام هذه الكلمة وفي السياق لاتّضحت حدود ومعالم هذه النعمة الإلـهية. فكلمة «الرزق» تطلق علىٰ العطاء الجاري دنيوياً كان أم أُخروياً[٢]، مادياً كان كما في آية: **﴿وَعَلَى المَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾**[٣]، أو معنوياً كما في آية: **﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾**[٤]، وما نستخلصه من هذه الآيات أنّ «الرزق» هو

(١) آل عمران ٣/٣٧.
(٢) مفردات ألفاظ القرآن / ١٩٤.
(٣) البقرة ٢/٢٣٣.
(٤) آل عمران ٣/١٦٩.

عطاء ينتفع به الإنسان.

وقد جاء في هذه الآية بصيغة نكرة ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً﴾ فيظهر أنّه كان رزقاً خاصّاً ومجهولاً لزكريّا ولم يكن معهوداً لديهم؛ ولذلك يظهر تعجّبه منه ويقول باستغراب ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾؟

ومن جانب آخر كان الرزق يأتيها كراراً أو ليس في وقت غذائها، وبما أنّها نسبته إلىٰ الله مباشرة وهو الجامع لكلّ الصفات، ممّا يدعونا إلىٰ أن نقول بيقين: إنّ هذا الرزق لم يكن غذاءً مادياً، فلو كان كذلك لما أثار دهشة النبي زكريا عليه السلام.

كما أنّ من المسلّم به هو أنّ هذا الرزق مهما كان نوعه له صلة مباشرة بعبادة مريم؛ لأنّ زكريا كلّما دخل عليها في محراب العبادة وجده عندها تتنّعم منه، وهذه العلاقة بين المحراب والرزق تكشف عن فيض خاصّ ومقام لمريم دون غيرها لم يبلغه أحد حتىٰ زكريا الذي كان نبياً وعارفاً بأحوال الأنبياء ومقام النبوّة وشأنها.

نكتفي بهذا القدر من الغور في هذا الموضوع ونقول: إنّ مريم كانت تتلقّىٰ رزقاً ونعمة مخصوصتين بها لم يعهدها حتىٰ نبي الله زكريّا، وكان الرزق يأتيها حين عبادتها لمرّات عديدة.

ونأمل ان نكتشف صفاتٍ بارزه أُخرىٰ من خلال بحثنا في سائر الآيات.

دعاء زكريا

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[1].

فبعد أن رأى زكريا ما أنزل الله علىٰ مريم من رزق وإكرامها وإعزازها، توجّه إلىٰ الله بالدعاء متضرّعاً إليه قائلاً: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ لتصدع بما يأمرها الله وتكون موضعاً لتطبيق إرادته وأحكامه، فدعا بهذا الدعاء وهو واثق من أن الله سميع له.

---

(١) آل عمران ٣/٣٨.

تطرّقت هذه الآية باختصار إلىٰ دعائه وأرادت أن تبيّن تأثرّه بمقام مريم وما أنزل الله عليها من رزق، فحفّزه ذلك إلى أن يطلب من الله أن يعطيه ذرّية طيّبة، ولكن الآيات في سورة مريم تذكر تفصيلاً أكثر عن زكريا فتقول:

﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَدُنكَ ولياً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾[1].

يبدأ زكريا دعاءه بشكل خفي؛ لكي لايكون فيه رياء، أو لعلّه كان يخشىٰ من المجتمع الذي كان يعيش فيه، كما يخشى ممّن حوله من أقرباء؛ لأنّهم لم يكونوا بالمستوىٰ الإيماني المطلوب، كما أنّه كان يخاف من ذريّة وورثة غير ملتزمين بأوامر اللّه ونواهيه؛ لئلا يضيّعوا بيت النبوة ومواريثه، ولكن عندما رأىٰ عبادة مريم وخشوعها وما حباها اللّه من مقام ورزق، رفع يديه بالدعاء من أجل إصلاح شأن مجتمعه.

وبما أنّ السالكين إلىٰ اللّه والذائبين في حبّه والعاشقين له يحبون التحدّث إلىٰ محبوبهم والركون إلىٰ مناجاته وتطويل الكلام معه، وهو يحبّهم ويحبّ مناجاتهم ويحبّ أن يعترفوا له بضعفهم وعجزهم أمامه، يبدأ زكريا بعرض حاله ويشكو إليه كبر سنّه وضعف بدنه وهو مطمئن كلّ الاطمئنان بأنّ اللّه أعلم بحاله وظاهره وباطنه وسرّه وعلانيته، ولكنّه يعلم أيضاً أنّ اللّه يحبّ أن يدعوه عباده ويسألوه؛ ولذلك يبدأ بمناجاة ربّه بهمس وصوت خفي، ويقول:

أولاً: رَبّ إنّي ضعيف وأصبح عظمي دقيقاً وهناً لِكَبر سنّي وملأ الشيب رأسي، والموت يفرش ظله عَليّ.

ثانياً: رَبّي إنّك تعلم ما في نفسي، فطالما ناجيتك ودعوتك، وقد استجبت لي وسمعت دعائي كلّما دعوتك، وتعلم أنّي لم أطلب منك شيئاً يكون فيه شقائي

---

(١) مريم ١٩/٢ ـ ٦.

وشقاء أمتّي.

ثالثاً: إني أخشىٰ الوارثين لي من غير صُلبي ـ الموالي ـ لأنّهم من أشرار بني إسرائيل، وأخاف أن يغيّروا دينك ويحرّفوا شريعتك.

رابعاً: إنّ زوجتي لاتنجب فهي عاقر، وإنّي أخاف علىٰ القوم وعلىٰ دينك بعدي، وأخشىٰ أن تذهب كلّ أتعابي أدراج الرياح، وأنت يا ربّي الذي تقدر بلطفك وعنايتك علىٰ أن تهب لي وصيّاً يرثني ويرث آل يعقوب[1]. وهذا الوصي ـ الولي ـ يجب أن يتمتّع بصفات منها:

أن يكون طيّباً، أي: بالمستوىٰ الذي يريده ويتمتّع بصفات وأفعال حميده يحقّق آمال أبوه زكريا عليه السلام، ورضياً، أي: يكون مرضياً لله وتابعاً لأوامره ونواهيه.

هكذا كان أثر الرزق الذي تتلقّاه مريم، وسواء كان ماديّاً أو معنوياً فهو الّذي حثَّ زكريّا عليه السلام علىٰ أن يتوجّه إلىٰ المحراب ويدعو اللّه بأن يهب له ذرّية طيّبة، فبعد أن شاهد مقام مريم وشأنها عند اللّه تمنّىٰ أن تكون له ذريّة طيّبة لها شأن رفيع عند اللّه كمقام مريم وشأنها، أو لعلّه عندما تجلّت صورة المسيح في وجه مريم عليها السلام[2] طلب من اللّه أن يهب له ولياً وناصراً. ولو انعمنا النظر في هذه العبارات والآيات لوجدنا أنّ الأوصاف التي ذكرها زكريا عليه السلام لولده تنطبق علىٰ أوصاف المسيح عليه السلام.

وبعد دعاء زكريا ربّه نزلت عليه الملائكة لتبشّره بقبول دعائه واستجابة اللّه

---

(١) زوجة زكريا هي خالة مريم عليها السلام وهي من أحفاد يعقوب ومن ذرية سليمان بن داود، وهو من أولاد يهود بن يعقوب. انظر التفسير الأمثل، الجزء ١٣.

(٢) في هذا الاحتمال نوجد شبهة وهي: أنّ زكريا كان يخشىٰ علىٰ دينه وقومه من الانحراف فيما إذا لم يطّلع علىٰ أن نبياً سيظهر قريباً يحفظ الدين، فلو أنّه شاهد صورة المسيح عليه السلام الموعود في وجه مريم، لما بقي مجال للخوف على الدين ومستقبل الأمّة؛ إذ لاشكّ أنّ كلّ نبي يسعىٰ لحفظ دينه واستمراره من بعده، وهذا هو المهم لا أن يكون هذا الولي والحافظ من صلبه أو لا.

وعلى هذا يقوىٰ الرأي الأول وهو المرجّح، وهو كلّما دخل زكريا على مريم في المحراب كان يجد نوراً وعروجاً لها الى السماء، وبما أنّها كانت صغيرة، تمنّى زكريا أن يكون له ذريّة بهذا المستوىٰ، فمريم عليها السلام لاتتمكن من الوقوف أمام أشرار بني اسرائيل وتمنعهم من الانحراف بعده؛ ولذلك دعا أن يهب اللّه له ولياً ووارثاً.

له: ﴿فَنَادَتْهُ المَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1]. وتلقّىٰ زكريا هذه البشارة حين دعائه وتضرّعه إلىٰ اللّه أو بعده عندما وقف إلىٰ الصلاة في المحراب نفسه الذي كانت تصلّي فيه مريمعليها السلام ونادته الملائكة مبشّرةً إيّاه وواصفةً له سلوكه ومقامه بصفات هي:

أولاً: ﴿مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾[2].

ثانياً: ﴿سَيِّداً﴾ أي يكون قائداً للأُمّة بعلمه وسلوكه.

ثالثاً: ﴿حَصُوراً﴾ أي حابساً للنفس من الشهوات والملاهي.

رابعاً: ﴿نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[3].

وبعد هذه البشارة كان لزكرياعليه السلام حديث مع الملائكة تطرّقت إليه سورتا آل عمران ومريم بالتفصيل. وبعد هذا الحوار ينتهي الحديث عن زكريا ويحيىٰ، ويستأنف القرآن الكريم حديثه عن مريمعليها السلام.

اصطفاء مريم وتطهيرها

وهنا تتجلّىٰ صورة أُخرى من صفات مريم الوجودية، وهي حديث الملائكة معها، وتارة تكلّم اللّه معها، وهو ما تكشف عنه الآيات بوضوح، وهو الوحي إليها وحياً مباشراً لا يشوبه تأويل أو إبهام.

لا يخفى أنّ الوحي بحسب الشريعة الإسلامية علىٰ نوعين: إنبائي وتشريعي، وما يختصّ به الأنبياء هو الوحي التشريعي، إلّا أنّ الوحي الإنبائي لا يختصّ بالأنبياء فقط، بل يشمل الصالحين والأصفياء. ومريمعليها السلام أُوحى إليها وحي إنبائي كشف لها عن مقامها ومنزلتها عند اللّه، وأمرها بأوامر خاصّة

(١) آل عمران ٣/٣٩.

(٢) اختلف المفسّرون في: ﴿كَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ وسنتناولها آنفاً.

(٣) كلمة ﴿الصَّالِحِينَ﴾ تشمل مجموعة واسعة منهم الأنبياء، وقد يكون منهم غير أنبياء ولكنّهم أفضل من بعض الأنبياء.

وجعلها تدخل مرحلة جديدة وحساسة وهامّة في حياتها:

﴿وَإِذْ قَالَتِ المَلائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ العَالَمِينَ﴾[1] هذه الآية الشريفة تثبت صفات بارزة للقدّيسة مريمعليها السلام منها: أنّ اللّه سبحانه في مقامهِ الأُلوهي ـ لا المقام الربوبي فقط ـ هو الذي اصطفىٰ مريم[2]، ويظهر ذلك في هذه الآية علىٰ نحوين: الاصطفاء مطلقاً، واصطفائها علىٰ نساء العالمين.

فالأول هو اصطفاء مطلق تامّ من جميع الجهات، والثاني فيه قيد ﴿نِسَاءِ العَالَمِينَ﴾ الذي يدلّ علىٰ أنّها تمتاز بصفات خاصّة جعلتها مفضّلة علىٰ نساء العالمين.

ولفظ ﴿العَالَمِينَ﴾ يشمل الآدميين من بداية الخلق إلىٰ نهايته. وفي هذه الصورة يتعلّق الأمر بشيء لم يحدث في العالم إلّا لمرأة واحدة وهو ما فضّلها علىٰ نساء العالمين، حيث جاء نتيجة حملها بطريقة خاصّة دون بعل، ممّا كَسَبها مقاماً لم تنله امرأة قط.

وتخلل هذين الاصطفاءين تطهير خصّها اللّه به: ﴿اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ﴾. والتطهير: هو التنزيه من كلّ الأفعال والمعاصي التي يرتكبها الكفّار والشياطين، ممّا يكسب الفرد عظمة تبعده عن الذنوب وحتىٰ عدم خطور الذنب في ذهنه.

وبعد أن ثبّت القرآن الكريم صفتي الاصطفاء والتطهير لهذه القدّيسة يصدر لها أوامر يجب أن تصدع بها، وكل هذا يُلقي مسؤولية كبرىٰ علىٰ عاتقها تستلزم مزيداً من التوكّل والاستيعاب لها، لكي تمكّنها من اجتياز كلّ المصاعب والعقبات التي ستواجهها في هذه المسيرة، وتتطلّب منها التضحية ومقارعة المشكلات،

---

(١) آل عمران ٣/٤٢.

(٢) اصطفىٰ بمعنى تناول صفو الشيء. واصطفاء اللّه بعض عباده قد يكون بإيجاده صافياً عن الشوائب الموجودة في غيره، وقد يكون باختياره وبحكمه ان لم يتعدَّ ذلك من الأوّل. انظر مفردات ألفاظ القرآن /٢٨٣، ٢٩١.

والمصاعب، والتصدّي لأُناس في غاية اللجاجة والسخافة.

وهذه المسؤولية لاتنجز إلّا بالصبر والمثابرة والصمود؛ ولذلك يأمرها اللّه سبحانه وتعالىٰ بالاستعداد لتحمّل هذا العبء بالقول: **﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾**(١) وهكذا يأمرها اللّه أن تبذل جهداً أكبر لرقيّ روحها ومعنوياتها من خلال الالتزام والاستمرار في طاعته من خلال القنوت والتذلل والاستكانة إليه بكل جوارحها، في ركوعها وسجودها؛ لتبلغ مقام الراكعين والخاضعين لإرادة اللّه. فهذه الصفات الثلاث من القنوت والركوع والسجود كناية عن الطاعة المطلقة للّه؛ لأنّه ليس في الوجود مؤثّر ومدبّر غيره، وعليها أن تقرّ بعجزها وضعفها واستكانتها له، وأن تكون سلماً محضاً له في العقيدة والقول والفعل وفي كل شيء؛ لكي تتّسع دائرة استيعابها الوجودي لتحمّل عبء الرسالة وثقل المسؤولية التي يراد أن توضع علىٰ عاتقها لكي تورق وتثمر فيما بعد.

ومريم القدّيسة امتثلت لأوامر اللّه والتزمت بطاعته إلىٰ أبعد الحدود؛ إذ إنّها كانت صافية مصطفاةً كما أرادها ربّها، وسعت بكلّ وجودها لتحقّق تلك الصفات التي نعتها بها ربّها حتىٰ قال القرآن الكريم في حقها: **﴿وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾**(٢). وهكذا كانت مريم حافظة لطهرها لم تسمح لأي بشرٍ أن يعبث بها، وصدّقت كلمات ربّها وهي قانتة خاضعة لإرادته حتىٰ أعدّها اللّه من المصدّقين والمطيعين ومن القانتين له طول حياتها(٣)، وكما جاء في آية أُخرىٰ هذا الوصف لمريم عليها السلام: **﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا**

---

(١) آل عمران ٣/٤٣.

(٢) التحريم ٦٦/١٢.

(٣) لم يعبر القرآن الكريم بالقانتات عن مريم، ولم يفرّق في القنوت بين الذكر والأُنثىٰ؛ لئلا تقدح شبهة في الأذهان بأنّ القنوت يختلف بين الذكر والأُنثىٰ.

يَأكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾[١].

مريم الصدّيقة

كانت صدّيقة أيّ أنّها لم تكن صادقة في قولها وفعلها وعقيدتها مع الواقع فحسب ـ وبعبارة أخرىٰ: لم يكن هناك اختلاف أو تنافٍ بين قولها وفعلها وعقيدتها نظراً وتطبيقاً ـ بل كانت مصدّقة لكلمات اللّه وأوامره ونواهيه وغيبه، وهذه الصفة والخصوصية لايمكن إثباتها والبرهنة عليها إلّا من قِبل اللّه تعالىٰ؛ لأنّه هو السامع للأصوات والعالم بالنيات.

وصفة الصدّيق لها لوازمها ومستلزماتها، فالصديق تلازمه نعمة إلـهية يمنّ اللّه بها عليه كما في آية: **﴿وَمَنْ يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فأُولئِكَ مَعَ الّذِينَ أنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيين وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ﴾**[٢]؛ ولذلك خصّ اللّه مريم بنعمة منه في قوله تعالىٰ: **﴿إذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إذْ أيّدتّكَ بِرُوحِ القُدُسِ تُكَلِّمُ النّاسَ في المَهْدِ وَكَهْلاً... ﴾**[٣]. وسوف نتطرّق إليها بشكل تفصيلي في بحوثنا القادمة إن شاء اللّه.

إرسال جبرئيل وتمثّله لمريم

وهنا تبدأ مرحلة جديدة من حياة مريمعليها‌السلام بعد أن اتّسعت روحها ونمت استعداداتها من خلال ممارساتها العبادية وإطاعتها المطلقة للّـه، انتقلت إلىٰ مرحلة أسمىٰ وبدأت دوراً جديد حيث يقول القرآن الكريم: **﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إذْ انْتَبَذَتْ مِنْ أهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأرْسَلْنَا إلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ﴾**[٤].

---

(١) المائدة ٥/ ٧٥.

(٢) النساء ٤/ ٦٩.

(٣) المائدة ٥/ ١١٠.

(٤) مريم ١٩/ ١٦ ـ ١٧.

وهكذا يأمر اللّه عزّ وجل نبيّه محمداً ﷺ أن يذكر مريم بعد أن ذكر قِصّة يحيى وَزكريا عليهما السلام، حيث يجب أن يذكر اسمها إلىٰ جانب أنبياء اللّه العظام، ولايكتمل الكتاب إلّا بذكرها ونقل قصّتها للبشرية كما هي. ويجب ذكرها في هذه المرحلة بالذات بعد أن انتبذت من أهلها وانعزلت عنهم واتّخذت مكاناً شرقياً.

و«النبذ» و«الانتباذ» في اللغة بمعنىٰ إلقاء الشيء وطرحه لقلّة الاعتداد به؛ وبناءً علىٰ هذا فالمراد من هذه الآية هو أنّها اعتزلت أهلها ونبذت دنياهم ولجأت إلىٰ مكان معزول عنهم، ولم يكن انعزالها عنهم بسبب البُون الروحي الشاسع بينها وبينهم فحسب، بل أكثر من ذلك حيث ﴿اتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً﴾ أيضاً، ولكن هل المقصود من الحجاب هو الفاصل المادي الذي يفصل الأجسام عن بعضها لكي لايراها أحد ولا ترىٰ أحداً، أم المقصود بالحجاب هو الانعزال الروحي والبعد المعنوي بحيث تعيش لوحدها دون أن تختلط بهم وتُحشر معهم؟ إنّ ذلك يبقىٰ في هالة من الإبهام(١).

وعلىٰ أية حال فإنّ كلا التفسيرين يشتركان في معنىً واحد وهو الانعزال والوحدة والابتعاد عن الآخرين، ولعلّ هذه الوحدة والانعزال كانت مرحلة تطوّر قضتها مريم عليها السلام في التفكّر والتدبّر كتلك التي يقضيها الأنبياء عادةً، وهي تذكرنا بعبادة النبي محمد ﷺ واعتكافه في غار حراء قبل بعثه للنبوة. وعلى كلّ الأحوال هذا الانعزال هو نوع من الاعتكاف ومراجعة النفس والاستغراق في التفكّر والعبادة(٢).

والجدير بالذكر أنّ هذا الاعتكاف حدث في الوقت الذي كانت مريم تحت

---

(١) اعتبر مؤلف قاموس القرآن ٢/١٠٣ الحجاب نوعاً من الاختفاء ومنع الآخرين من الدخول إليه؛ لذلك يرجّح المعنىٰ الثاني.

(٢) ذهب بعض المفسرين إلىٰ تفسير هذه الآية بنظرة ماديّة تماماً وقالوا: إنّ سبب اعتزال مريم كان من أجل الاستحمام والغسل، ولكن الآيات لاتدلّ في الظاهر والباطن علىٰ ذلك؛ لأنّ الغسل أمر طبيعي ولايحتاج الىٰ اعتزال وانتباذ من الأهل.

كفالة زكريا وقيموميته عليها، وعلى الرغم من ذلك فهي كانت تتصرّف وكـأنها حرّة مستقلّة في ذاتها ولها تمام الاختيار، وهنا يظهر معنى التحرير الذي نطقت به أُمّها عندما نذرتها للّه.

وفي ذلك الاعتكاف والوحدة أرسل اللّه روحه إليها: **﴿فَـأَرْسَلْنَا إِلَـيْهَا رُوحَـنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾**. وما هو المقصود مـن روحـنا، أو روح اللّـه؟ ذهب كـلّ المفسّرين إلىٰ أنّ الروح هو جبرئيل الملك الّذي ينزّل الوحي[1]، والدليل عـلى ذلك هو البعد الروحي الذي يتمتّع به، فهو باعث للروح ويبث الحياة والروح بين أبناء البشر عن طريق الوحي الذي ينزّله علىٰ عباد اللّه وأنبيائه. ونسـبة الروح إلى نفسه سبحانه وتعالىٰ في **﴿رُوحَنَا﴾** يدل علىٰ الشرف الذي أضفاه على هذه الروح[2].

ولكن القول في مريم بأنّها بعد اجتيازها لهذه المراحل أصـبحت شـخصية سامية تخاطبها الملائكة وتحضر عندها ويتمثّل جبرئيل أمامها ـ وهو المـلك المقرّب الذي خصّه اللّه بنزول الوحي علىٰ أنبيائه ـ بهيئة إنسان كامل، وكيف يمكن للروح أن تظهر على هيئة البشر؟ وهل تتغير ماهيّة الملك لتصبح بشراً، أم إنّه يبدو لمريم بصورة البشر؟ كل هذا يحتاج الىٰ نقاش وبحث، ونحيل مـن يودّ الغور في ذلك على الكتب المختصّة.

ولكنّ العلّامة الطباطبائي يعتقد أن معنىٰ تمثّل جبرئيل لمريم على هيئة بشر هو ما بدىٰ لمريم في إطار حواسّها وإدراكاتها وتصوّراتها ولم يقع هذا الأمر في الحقيقة، فهو خارج تصوّراتها وإدراكاتها وليست له صورة بشريّة[3].

---

(١) ذلك لأنّ ملك الوحي في القرآن هو جبرئيل كما في الآية ٩٧ من سورة البقرة، وقد سمّى بالروح في الآيه ١٠٢ من سورة النحل، ولذلك فإنّ الروح الذي تمثّل لمريم هو جبرئيل.

ويُحتمل ان يكون المراد من ﴿رُوحِنَا﴾ هو عيسى عليه السلام و«نا» الضمير الذي نسبه اللّه إلىٰ نفسه هو لبيان الشرف العظيم الذي خصّه اللّه به. وبما أنّ الروح ليس لها شكل ماديّ ومجسّم فإنّها ظهرت لمريم بهذا الشكل الملموس.

(٢) مجمع البيان، المجلد ٣، الجزء ٦/٥١٧.

(٣) تفسير الميزان ٥٢/١.

ولكنّ الامر المسلّم به هو أنّ مريم تحدّثت مع الملائكة وشـاهدتهم ورأتـهم أيضاً، ومن هذه الزاوية يمكننا القول: أن لافرق بينها وبين الأنبياء إلّا نقطة واحدة هي أن الوحي الذي تلقّاه الأنبياء هو وحي تشريعي، والوحي الذي تلقّته كـان وحياً إنبائياً.

وممّا لاشكّ فيه أنّ القيم ليست في النبوّة فقط، بل النبوة طريق لظهور القيم من بين سائر الطرق، فعندما يصل إنسان إلىٰ درجة النبوّة فقد كشف عنه ستار واختصّه اللّه بمنزلة وقيمة لها ظهور اجتماعي ولكن مريم لم يكشف لها هـذا الستار.

وعندما رأت مريم جبرئيل قد تمثّل بهيئة رجل قالت: **﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنْتَ تَقِيّاً﴾**[1] فهي علىٰ الرغم من خوفها من حضور رجـل فـي مـعبدها لم تظهر جزعاً ولا فزعاً يدلّ على عدم توكلّها على اللّه ، وخاطبته بكلّ حزم بعد أن لجأت إلىٰ اللّه واستعاذت به لكي لا يمسّها بسوء إن كان تقياً.

وأشارت في خطابها له إلىٰ التقوىٰ التي يجب على كل إنسان أن يتّصف بها؛ لأنها وصف جميل، وربطت استعاذتها باللّه منه بهذه الصفة الجـميلة، حـيث طلبت منه أن يلتزم بالتقوىٰ وإلّا فهي تستعيذ باللّه منه، وإن كان عنده تقوىٰ ولو بالمقدار اليسير عليه أن يظهرها في هذا الموقف وينصرف عن المساس بها.

وممّا تجدر الإشارة إليه هنا هو أنّ مريم لم تستعذ باللّه في هذا الموقف بل استعاذت بالرحمن ولجأت إلىٰ رحمانية اللّه الواسعة التي تشمل المؤمن والكافر والمنافق، ولعلّها بهذا النوع من الاستعاذة كانت تريد أن يلتفت الىٰ هذه الصـفة الإلـهية العظيمة وينصرف عن قصده إن كان الشيطان قد نزغه إلى ذلك.

ولعلّ قولها: **﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ﴾** ولم تقل: معاذ اللّه، وبدأت كلامها بهذه الألفاظ واستلّهت بـ **﴿إِنِّي﴾** ليس لأنّها كانت تعتبر لنفسها شأناً خاصّاً في ذلك المكان وذلك الموقف؛ بل لأنّها كانت مغلوبة على أمرها وليس لها حول ولا قوّة

---

(١) مريم ١٩/١٨.

للدفاع عن نفسها، وماكان لها أن تظهر بمظهر القوّة؛ ولذلك لجأت إلىٰ رحمانية اللّه وأرادت أن تثير هذه الصّفة في مخاطبها؛ لكي تردعه وتثنيه عن قصده.

وكلام مريم المعبّر عن طمأنينة نفسها وأدبها الرفيع وتوكّلها الكامل على اللّه واستعاذتها الجميلة وأمرها بالمعروف بهذه الصيغة كلّه يشير إلىٰ سموّ روحها وعلوّ درجة هذه الصدّيقة الإنسيّة.

اللّه يبشر مريم بكلمة منه

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً﴾[1].

وهكذا يبدأ جبرئيل كلامه مع مريم، ويزرع في قلبها الأمل ويطمئنها بأنّه ليس شخصاً غريباً بل هو رسولٌ من اللّه ـ الذي رعاك وابنتك نباتاً حسناً ـ جاء ليهب لها منه ولداً زكياً.

لابدّ من الإشارة هنا إلىٰ نقطة هامّة في هذه السورة وهي التعبير المستخدم في القصص المنسوبة ليحيى بالنسبة لزكريا وعيسىٰ بالنسبة لمريم وإسحاق ليعقوب وإبراهيم وهارون وموسىٰ، فقد استخدم تعبير «وهب» في هذه القصص، فقد وهب اللّه يحيىٰ لزكريا وعيسى لمريم وإسحاق ويعقوب لابراهيم وهارون لموسىٰ، فلم يبشر اللّه أنبياءه في هذه السورة بل وهب لهم كلّ ذلك، وهي مرحلة أسمىٰ من البشارة، ولكن في سورة آل عمران يقول اللّه تبارك وتعالى: ﴿إِذْ قَالَتْ المَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ المُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[2] فالفرق بين هاتين الآيتين في طريقة الكلام والمتكلّم أيضاً، وسنبيّنه بالنحو الآتي:

١ ـ ففي الآية الأُولىٰ ـ ١٩ من سورة مريم ـ نُسب الكلام الىٰ جبرئيل، ولكن

(١) مريم ١٩/١٩.

(٢) آل عمران ٣/٤٥ ـ ٤٦.

في هذه الآية الكلام منسوب إلىٰ الملائكة.

٢ ـ في الآية الأُولىٰ التعبير بـ ﴿أَهَبَ﴾ وهو مرحلة وراء البشارة. ولكن في هذه الآية اكتفىٰ بالبشارة فقط؛ ولذلك يبدو في بادئ الامر أنّ هذا النداء جاء بعد النداء الأوّل، أيّ بشّرت الملائكة مريمعليها السلام في المرحلة الأُولىٰ كما بشّرت زكريّا، وبعد ذلك جاء النداء الثاني بواسطة جبرئيل وهو ملك الوحي، ففي المرّة الأُولى كانت بشارة فقط وفي المرحلة الثانية تحقيق لتلك البشارة وثبوت لها.

ولكن يظهر سقم هذا الرأي وعدم صحّته عند قراءة الآيات التي جاءت بعد هذه الآية، حيث أتت في الآية الأُولى البشارة فقط، فاستنكرت مريم واستغربت منها: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ وتكرار هذا الكلام واستنكاره للمرّة الثانية ليس أمراً مستساغاً؛ لأنّه أخبرها في المرّة الأُولىٰ ومهّد لها الأمر.

وهنا لابد لنا أن نرضخ للواقع ونقبل حقيقة أنّهما تعبيران مختلفان لواقعة واحدة؛ لأنّ العلاقة بين العبد وربّه أو عن طريق سفراء الوحي ليست من نوع الارتباط اللفظي والكلامي، بل هي ارتباط معنوي، وعندما يظهر هذا المعنىٰ في إطار الألفاظ يُعبّر عنه بتعابير مختلفة متغيّرة ويراد منها معنىً واحد.

ولكن البشارة نسبت في آية إلىٰ الملائكة وفي آيه أُخرىٰ إلىٰ جبرئيل، وهذا من قبيل انتساب كلام شخصٍ واحدٍ من قومٍ إلىٰ كل القوم؛ لأنّ أُولئك القوم كلّهم مشتركون في ذلك القول والاعتقاد، ويلتزمون بنفس الآداب والسنن المشتركة عندهم[١]؛ ولذلك علينا أن نجمع بين هاتين الآيتين بالبيان الآتي:

ففي سورة آل عمران ورد ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ...﴾ ولكن لم يصرّح في الآية عن حقيقة هذه الكلمة بل ذكر اسمه فقط ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾، وهو ذو صفات عالية ووجاهة في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين، والمهم في هذه الآية هو أنّ بشارة[٢] مريم بعيسىعليه السلام تختلف عن سائر البشارات في طريقة الخطاب؛

(١) تفسير الميزان ١٤/٥١.

(٢) البشارات في القرآن الكريم على نوعين: النوع الأوّل: تتعلّق به سلسلة من العطايا المعنوية والأُخروية، أو

والسبب في ذلك هو الخصوصية التي أشارت إليها الآية الكريمة، ففي البشارات السابقة كان السبب طبيعاً وبالطرق المادّية المألوفة، فجاءت البشارات بشكل واحد وطريقة معيّنة وطبيعية، ولكن هذه البشارة عبّر عنها القرآن بشكل مختلف نظراً لامتيازها بولادة عيسىٰ من غير أب.

وما يدعو إلىٰ الانتباه هو تكوين هذا المولود بشكل غير مألوف يستبطن في ذاته عظمة خاصّة ويتطلّب ظروفاً معيّنة؛ ولذلك نرىٰ أنّ البشارة لمريم لم تكن بالمسيح مباشرة بل جاءت بكلمة من اللّه، وهذه الكلمة اسمها المسيح عليه السلام.

إلقاء كلمة اللّه إلىٰ مريم ونفخ روحه فيها

تعرّضت سورة النساء إلىٰ هذا الموضوع بتفصيل أكثر حيث قالت: **﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَاتَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَاتَقُولُوا عَلَى اللّهِ إِلّا الحَقَّ إِنّما المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهُ وَكَلِمَتَهُ أَلْقَاها إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللّهِ وَرُسُلِهِ... ﴾**[(١)].

تبين هذه الآية حقيقة أنّ كلمة عيسىٰ أُلقيت إلىٰ مريم، واعتُبِرت روحاً من اللّه ، وهذه الكلمة منسوبة لعيسىٰ عليه السلام من جانب؛ لأنّها كانت السبب في تكوينه، ومنسوبة من جانب آخر لذات اللّه تبارك وتعالىٰ؛ لأنّه هو الموجد لها، كما أنّ لها صلة بمريم؛ لأنّها كانت الظرف الذي تلقّتها، فمع أنّ عيسىٰ كلمة فهو روح من اللّه وعاؤها مريم، فقد جاء في سورة التحريم والأنبياء: **﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾**[(٢)] و**﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾**[(٣)] والمقصود من كلا الآيتين مريم التي نُفخت فيها الروح الإلـهية.

← العقاب والعذاب الأُخروي في ذلك العالم.

النوع الثاني: تتعلق بأُمور دنيوية لها علاقة بهذا العالم الأرضي، ومنها البشارة بالأولاد، فقد وردت في مواضع هي: بشارة زكريا بيحيى، وإبراهيم وزوجته بإسحاق، ومريم بعيسى عليه السلام، وفي كلّ هذه الموارد البشارة بولد أو شخصية وهبها اللّه لوالديه.

(١) النساء ٤/ ١٧١.

(٢) التحريم ٦٦/ ١٢.

(٣) الأنبياء ٢١/ ٩١.

وقد قلنا سابقاً: إنّ مريم تلقّت أوامر وتعليمات إلـهية قبل البشارة حثّتها على العبودية المطلقة للّه وبعد أن امتثلت تلك الأوامر وتحقّقت تلك العبودية المطلوبة بُشّرت بكلمةٍ منه.

والآن لنقارن هذه الحصيلة بالآيات الأُولى من سورة المزّمل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَو زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾[١].

ففي هذه الآيات أُمر النبيّ ﷺ بالالتزام بعبادة خاصّة من أجل أن يتلقّى قولاً ثقيلاً. يقول الراغب في مفرداته: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ إشارة إلى ما سيتحمّله من أعباء النبوّة والوحي الإلـهي[٢].

ويقول العلّامه الطباطبائي في آخر الآية نفسها: هو في مقام التعليل الحكمي، وجملة ﴿قُمِ اللَّيْلَ ﴾ تدلّ على ذلك، ونستنتج من سياق الآية، وبما أنّ المخاطب هو الرسول الأكرم ﷺ بالذات، فهذا يدلّ على أنّ قول اللّه وأمره للنبي ﷺ بقيام الليل وترتيل القرآن في صلاة الليل والإنابة والخضوع للّه هو من أجل الاستعداد للحصول على كرامة القرب من اللّه، ومفخرة المناجاة مع الخالق، ومن ثمّ تلقي القول الثقيل من اللّه وهو الوحي[٣].

ولو أضفنا إلى هذه المقدّمات مقدّمة أُخرى وهي أنّ الذهنية السطحية التي تنظر إلى ظاهر الأُمور ولاتعي إلّا القليل لايمكنها أن تلمس ثقل هذا القول ووزنه وخطورته، ولكن الذي يجب أن نسلّم به وهو حقيقة أنّ عبء الرسالة ثقيل على النبي ﷺ؛ لأنّ استيعاب الحقائق وتحقيقها، وتحمّل المصاعب والمصائب التي تتخلل طريق الرسالة وتعترض طريق إبلاغها للناس، وبذل كل الوسع وسلب الراحة والتضحية بالنفس والنفيس في هذا السبيل، والجهاد مع النفس،

---

(١) المزمل ٧٣/١ ـ ٥.
(٢) مفردات ألفاظ القرآن / ٤٧٤.
(٣) تفسير الميزان ٢/ ٢٣١.

والانقطاع إلىٰ اللّه، والجهد الذي يستلزم تلقي الوحي، كـل ذلك ثِـقل عـظيم لايتحمّله إلّا نبي عظيم، ولا يمكن لأعرابي جاهل معاند أن يعي هذا الكلام وأن يشعر بثقله.

لنعود ثانية إلىٰ صلب الموضوع وهو أنّ مريمعليها السلام تلقّت أوامـر كـما يـتلقّى الأنبياء، وبعد تنفيذها والخلوص والعبادة للّه أُلقيت إليها كلمة[١] كما يُلقى على النبيصلى الله عليه وآله القول الثقيل[٢].

وقد قلنا إنّ عيسى عليه السلام كلمة من اللّه أُلقيت مع نبوّته ورسالته عـلىٰ مـريم وتحمّلت كلّ ذلك الثقل إضافة إلىٰ ثقله المادي، فإن مريم لابدّ ان يكون لها مقام شامخ ودرجة رفيعة تتطلب منها استعداداً روحياً واستيعاباً عالياً يضاهي درجة الأنبياء العظام، والفرق بينها وبينهم هـو عـدم تـحمّلها أعـباء إبـلاغ الرسـالة للمجتمع[٣].

كما أنّ مرافقة مريمعليها السلام لعيسىٰ تظهر من خلال الإمعان في بعض الآيات منها: ﴿أأنْتَ قُلْتَ لِلْنَاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمّي إِلـٰهَيْنِ﴾[٤]، و﴿جَعَلْنَا ابْنَ مَـرْيَمَ وَأُمَّـهُ آيَـةً﴾[٥]، و﴿جَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٦]، وكلّ هذا يدلّ بوضوح علىٰ ما قلناه كما جاء في رواية عن الإمام الرضا عليه السلام حيث قال: أما علمت أن اللّه أوحىٰ إلىٰ عمران أنّي واهب لك ذكراً فوهب له مريم ووهب لمريم عيسى؟ فعيسىٰ من مريم ومريم من

---

(١) ألقى إليه القول وبالقول: ابلغه إياه. وألقى عليه القول: أملاه وهو وكالتعليم، وأبلغه إياه. و«ألقـى عـلى» في ﴿سَنُلْقِي عَلَيْكَ﴾ و«ألقى إلىٰ» في ﴿أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ لهما معنىٰ متقارب أو مساو.

(٢) هناك أقوال أُخرى في القول الثقيل منها: ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٣) لابد من دفع شبهة هنا وهي: لعلّ المراد من إلقاء الكـلمة إلى مـريم هـو كـلمة «كـن» التـي أوجـدت عيسىٰ عليه السلام؛ ومن أجل ذلك أطلق عليه لفظ «كلمة». وتجدر الإشارة إلىٰ أنّ كلمة «كن» هي التـي كـانت السبب في خلق آدم عليه السلام كما جاء في الآية ٥٩ من سورة آل عمران: ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ في الوقت الذي لم يطلق على آدم لفظ «كلمة» قاموس القرآن ٦/ ١٤١ ـ ١٤٢.

(٤) المائدة ٥/١١٦.

(٥) المؤمنون ٢٣/٥٠.

(٦) الأنبياء ٢١/٩٢.

عيسى، ومريم وعيسى واحد، وأنا من أبي وأبي منّي، وأنا وأبي شيء واحد[١].

شبهة أُلوهيّة مريم

تقوىٰ هذه الشبهة إلىٰ جانب آية: ﴿**إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونَ طَيْراً بِإِذْنِي و...**﴾[٢].

هذه الآية الكريمة تستعرض النعم التي أنعم اللّه بها على مريم وعيسىٰ عليهما السلام من تعليمه الكتب والمعجزات الخاصّة التي كان عليه أن يعرضها علىٰ مجتمعه ويذكّره بها. ولو أنعمنا النظر في سياق هذه الآية لوجدنا أنّها علىٰ الرغم من اختصاصها بعيسىٰ عليه السلام في الظاهر إلّا أنّها تشرك عيسى وأُمّه في النعم التي مَنّ اللّه بها عليهما، وهذا يشير بوضوح إلىٰ أنّ هذه المعجزات والمواهب التي اختصّ بها عيسىٰ عليه السلام تعتبر كلّها كرامات لمريم عليها السلام أيضاً.

إذن فالمسيح وأُمّه كلاهما متنعّمان بهذه النعم، والدليل علىٰ ذلك هو أنّنا لو أعدنا النظر ثانية في هذه الآية لوجدنا أنّ النعم المذكورة في أربع مراحل كلّها تتصدّرها كلمة ﴿**إِذْ**﴾ وكلّها تتعلّق بكلمة ﴿**اذْكُرْ**﴾ في جملة: ﴿**يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ**﴾؛ ممّا يدلّ بوضوح على أنّ النعم التي تنعّمت بها مريم عليها السلام ليست منفصلة عن نِعم عيسىٰ عليه السلام، بل تعتبر تلك المعجزات والقدرات التي تمتّع بها عيسىٰ بمنزلة تأييد وكرامة لمريم أيضاً، ولعلّ هذا هو السبب في تقديس القوم لمريم إلىٰ جانب عيسى وإنزالهما منزلة الأُلوهيّة.

كما أنّ الآيتين اللتين سيأتي ذكرهما تشيران إلىٰ هذه الحقيقة بوضوح حيث يقول: ﴿**مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا**

---

(١) بحار الأنوار ١٤/ ١٩٩.

(٢) المائدة ٥/ ١١٠.

يَأكُلانِ الطَّعَامَ﴾[١]، **﴿وَإِذْ قَالَ اللّه يَا عِيسىَ ابْنَ مَرْيَمَ أأنتَ قُلْتَ لِلناسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّي إِلـٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّهِ﴾**[٢].

ففي الآية الأُولىٰ يشير القرآن الكريم إلىٰ صفة من الصفات البشريّة فيهما للردّ على هذه الشبهة ويقول: إنّهما كانا يأكلان الطعام وكانا بحاجة الى الغذاء. وبما أنّ هذا الدليل يشير إليهما معاً، فإنّ ذلك يدل علىٰ أنّ الناس كانوا يعطون مريم عليها السلام أيضاً منزلة الأُلوهيّة وكانوا يعتقدون ذلك، كما أنّ الآية الثانية تشير بصراحة أكثر إلىٰ هذا الموضوع وأنّ كليهما كانا قد أُنزلا منزلة الاله والمعبود عند قومهما؛ ولذلك أشار القرآن الكريم بصراحة إلىٰ هذا الموضوع، ونفىٰ ذلك عنهما نفياً قاطعاً.

حوار مريم مع جبرئيل

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أكُ بَغِيّاً﴾[٣].

عندما أتت البشارة لمريم بالولد أخذتها الدهشة؛ لأنّها لم تتصوّر ولم تعهد طريقاً غير الطريق المألوف لإنجاب الأولاد؛ ممّا يدعوها لكي تستفسر عن كيفية ذلك بنحو يختلف عن الاستبعاد والاستنكار.

فمن الطبيعي أنّ اي إنسان إذا تلقّىٰ بشارة لم يتوقّعها أو لم يقدر علىٰ تصوّر كيفية وقوعها بسبب وجود موانع أو عدم توفّر الأسباب اللازمة لذلك، فإنّه يبدأ بالسؤال والاستفسار عن كيفية تحقّق تلك البشارة؛ من أجل إماطة اللثام عن ذلك المجهول والحصول علىٰ جواب مقنع لذلك التساؤل وتسكين قلبه المضطرب، كل ذلك يحدث وان كان يعلم علم اليقين بتحقّق الأمر وصدقه.

كما أنّ هذا التساؤل والاستفسار أطلقه النبي زكريا عليه السلام أيضاً علىٰ الرغم من

---

(١) المائدة ٥/٧٥.

(٢) المائدة ٥/١١٦.

(٣) مريم ١٩/٢٠.

أنّه نبي من أنبياء اللّه وواثق من قدرة الخالق وإرادته، ولكنّه عندما بُشّر بيحيىٰ قال وهو متعجّب ومندهش: ﴿أَنّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ﴾[1]. وكـذلك الحـال بـالنسبة لإبراهيم ﷺ في آية ﴿وَإِذْ قَالَ إبراهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحيي المَوْتىٰ قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[2]. وهذا يشير إلىٰ أنّ الاطمئنان القلبي أعلىٰ مرتبة من مرتبة العلم والإيمان.

قلنا فيما مضىٰ بأنّ الانسان تارة يعلم ويعتقد باللّه وبصفاته وفي هذه الحالة فإنّ إيمانه يكون بمستوىٰ علمه، وتارةً يذهب إلىٰ أبعد مـن ذلك حـينما يـرىٰ صفات اللّه ويطمئنّ قلبه بذلك أكثر من ذي قبل، عـندها يـقوىٰ إيـمانه أكـثر ويرتفع إلىٰ مستوى أعلى. وهناك مرتبة أسمى من هاتين وهي أنّ الإنسان تارة يصل إلىٰ درجة من الإيمان ويكتسب تلك الصفات الإلـهية أو بعضاً منها، وهذه أعلىٰ درجات الإيمان، فإبراهيم وزكريا ومريم ﷺ أيضاً كان استفسارهم من أجل الوصول إلىٰ يقين أسمىٰ من الاعتقاد ولم يكن ناشئاً من عدم الإيمان بقدرة اللّه أو ضعف في إيمانهم، بل إنّهم كانوا يريدون بذلك الوصول إلىٰ مرحلة أسمى من مرحلة علم اليقين.

وهكذا الحال بالنسبة لمريم التي آمنت بقدرة اللّه اللامتناهية حـيث كـانت تقول لزكريا: ﴿إِنّ اللّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3]. كيف يمكنها أن تنكر قدرة اللّه لصنع أي شيء كان؟ ولكن بما أنّ اللّه شاء أن يكون الإنجاب الى ذلك الحين عن طريق الأسباب العادية المألوفة فقد أثار هذا الأمر غـير المألوف دهشـتها، وراحت تطلب إيضاحاً عنه وتقول: كيف يمكن أن أنجب مولوداً وأنا لم أُمـارس ذنباً ولم أمسّ إنساناً وليس هذا فطرياً؟

وكان جوابها ما جاء في سورة آل عمران كاشفاً عن طريقة خلق عـيسى ﷺ

(١) مريم ١٩/٨.

(٢) البقرة ٢/٢٦٠.

(٣) آل عمران ٣/٣٧.

حيث يقول: ﴿**قَالَ كَذلِكَ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرَاً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾[١] فلو تعلّقت مشيئة اللّه بخلق أي شيء شاء فإن قوله ﴿**كُنْ**﴾ يكفي أن يكون ذلك بأمره، والأمر هنا كذلك.

والجدير بالذكر أنّ الجواب الذي تلقّته مريمعليها السلام في استفسارها كان علىٰ نفس النسق الذي أجاب اللّه به زكرياعليه السلام بصفته نبيّاً، ولكن مع فارق واحد وهو أنّ زكريا عندما سأل: كيف يكون له غلام وهو شيخ وامرأته عاقر وعجوز؟ جاء الجواب ﴿**قَالَ كَذَلِكَ اللّهُ يَفْعَلُ مَا يَشاءُ**﴾[٢] في الوقت الذي تجيب السورة نفسها عن سؤال مريم بـ﴿**كَذَلِكَ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ**﴾[٣]. وهذا الاختلاف في التعبير يعود إلىٰ الاختلاف في طبيعة خلق أو نشوء هذين المولودين، فبالنسبة لزكريا كان لابدّ أن يحدث تغيير في الأسباب المادّية ويعود لهما سنّ الشباب، ولكن بالنسبة لمريم فإن أحد الأسباب ـ وهو وجود الأب ـ كان مفقوداً؛ ولذلك فإنّ عيسىٰ كان لابدّ أن يخلق من دون أب.

وكذلك في آية: ﴿**قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيّ هَيّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلناسِ وَرَحْمةً مِنّا وَكَانَ أمْراً مَقْضِيّاً**﴾[٤] نجد أنّ الجواب مختلف ولكن التعبير شبيه بالآيات السابقة ومكمّل لها ويشير إلىٰ العلّة في ذلك، ففي هذه الآية إشارة في بدايتها إلىٰ الكيف: ﴿**قَالَ كَذَلِكَ**﴾، هكذا أجاب جبرئيل بأنّ اللّه ربّك قال: هو علي هيّن وسهل.

ولكن ما هو سبب هذه الإرادة الإلهية؟ يتّضح ذلك بعد واو العطف بأنّ هناك مصالح وأغراضاً عديدة في تقدير اللّه، وقد حذفت ولم يُشر إليها، ولكن الذي يجب بيانه والإشارة إليه هنا أمران يتّصف بهما عيسىعليه السلام:

الأوّل: خلقه بنحو يجعله آيه للناس؛ لكي يلمس الجميع قدرة اللّه في

---

(١) آل عمران ٣/٤٧.
(٢) آل عمران ٣/٤٠.
(٣) آل عمران ٣/٤٧.
(٤) مريم ١٩/٢١.

الخلق.

الثاني: إن رسالته رحمة للناس من قبل اللّه لهداية البشريّة؛ لأنّه يكون السبب في إطاعة الناس للّه وترسيخ عقيدتهم به وفي العمل الصالح؛ ولذلك كان لابدّ أن يُخلق لكي تتمّ الحجّة على الناس وتكثر البراهين على ذات اللّه.

﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾[١]؛ لأنّ قضاء اللّه وأمره يتحقّق بإرادته وقوله: **﴿كُنْ﴾** فيكون، ولا يحتاج إلى سبب ومقدّمة وزمن، وهكذا تتحقّق إرادة اللّه بنفخ روحه في مريم: **﴿وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾**[٢]، و **﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾**[٣] ويتحقّق خلق عيسى في بطن مريم بنفخة دون أي سبب مادّي وبشري[٤].

حمل مريم

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾[٥].

وبدأت مرحلة الحمل في مريم مباشرة بعد نفخ الروح فيها، وهاجرت إلى مكانٍ بعيد، وأدّى بها المخاض إلى أن تلجأ إلى جذع نخلة في ذلك المكان

(١) مريم ١٩/٢١.

(٢) التحريم ٦٦/١٢.

(٣) الأنبياء ٢١/٩١.

(٤) تشير كلا الآيتين بوضوح إلى حصانة مريم لفرجها حتى من الطرق الشرعية والمباحة، ومن ثم نفخ الروح فيه، في الوقت الذي نشهد نفخ الروح الإلهية يتم لكلّ إنسان دون أي قيد أو شرط كما قال تعالى: **﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾** السجدة ٣٢/٧ ـ ٩.

ولعلّ هذه الحصانة أُحكمت من أجل أن يتمّ نفخ الروح بشكل مباشر وملموس لمريم وذلك يستدعي استعداداً خاصّاً وطهارة جسمية عالية، لكي تكون آية للناس.

والأمر الآخر هو تشابه اللفظ في **﴿رُوحِنَا﴾** في الآيتين: **﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾** و **﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾** ولعلّ كليهما واحد، ويقوّي هذا الاحتمال هو أنّ المقصود منهما هو عيسى عليه السلام وهو الذي أرسله اللّه وتمثّل لمريم برجل وحاور مريم، وهو الذي نفخ في جوفها أيضاً.

(٥) مريم ١٩/٢٢ ـ ٢٣.

القصصي.

وتصدّر حرف «الفاء» في جُمل هذه الآية يدلّ علىٰ توالي وتعاقب هذه الأحداث دون توقّف وانقطاع بينها، ولولا هذا لكان قد تخللها حرف العطف «ثم».

وعلى أية حال فإنّ مريم مرّت بظروف عصيبة في هذه المرحلة منها: وحدتها وألم المخاض والحياء والعفّة والقلق من المستقبل الغامض الذي يتنظرها، كل ذلك جرّها إلىٰ اللجوء إلىٰ جذع نخلة يابسة في الصحراء، ممّا اضطرّها إلىٰ تمنّي الموت بقولها: ﴿**يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيَاً مَنْسِيّاً**﴾؛ لئلا يذكرها الناس بسوء ويتهمونها بما ليس حقاً.

وهذا التمنّي جاء بسبب أنّها لم تكن رسولة من اللّه كي تبلّغ الناس رسالتها وتدافع عن نفسها؛ بل لأنّها كانت تحمل كلمة من اللّه فقط لتقدمها لمجتمعها، وبإمكانها أن تقول فقط: إنّ هذه أمانة من اللّه حملتها إليكم، دون أن يكون لها شاهد على ادّعائها أو ناصر ينصرها ومدافع يدافع عنها. كل هذا قبالة مجتمع بائس معروف بعناده ولجاجته ومواقفه المخزية مع النبي موسىٰ ﷺ من قبل كما تحدث عنها القرآن الكريم. وقد سُئل الإمام الصادق عن السبب الذي أدّىٰ بمريم إلىٰ أن تتمنّىٰ الموت فأجاب بما معناه: لأنّها لم تعهد رجلاً رشيداً ذا فراسة في قومها يدرأ عنها التهمة، ويدافع عن نزاهتها وطهرها[1].

وبناءً على هذا فإنّ الذي حدا بها لأن تنطق بهذه الجملة هو المسؤولية الخطيرة التي كانت تشعر بها وجهل اليهود وعنادهم؛ وذلك خوفاً من أن يؤدّي بهم جهلهم بهذا الأمر إلىٰ معصية اللّه وعدم الاكتراث بمريم وابنها اللذين كانا مصباح هداية لذلك المجتمع، بل أكثر من ذلك: كانت تخشىٰ أن يتّهمها اليهود بما يمسّ طهرها ونزاهتها؛ ولذلك نجد القرآن الكريم في سورة النساء يندّد باليهود ويتشمّت بهم لالقتلهم الأنبياء وانحرافهم عن طريق الحقّ وكفرهم فحسب، بل لقولهم على مريم وبهتانهم حيث قال: ﴿**وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ**

(١) مجمع البيان، المجلد ٣، الجزء ٦/ ٥١١.

بُهْتَاناً عَظِيماً ﴾[١].

ولادة عيسىٰ عليه السلام

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً * فَكُلِي واشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ اليَوْمَ إِنْسِيّاً ﴾[٢].

تشعر الأُم بالطمأنينة والراحة عندما تضع مولودها[٣]. وعند ذلك يُلفَتُ نظرها إلىٰ الرحمة الإلهية ويقال لها: لا تحزني، ويبشّرها بالأكل والشرب من نعم اللّه وأن تقرّ عينها بولدها ليطمئنّ قلبها[٤].

وهذا لا يعني أنّ حزنها كان لفقدانها الماء والغذاء، بل من أجل تبرئة ساحتها وإثبات نزاهتها وعصمتها؛ ولأنّ النخلة أينعت وأثمرت في الحال وأسرّها ولدها بأن هذه المعجزات سوف تثبت ذلك، وستكون دليلاً مبرهناً وحقاً بأنّ إنجاب مولود من غير أب هو أمر خارق للعادة يمكن أن يصدر عن أُناس رفيعي الشأن؛ ولذلك فلا داعي للقلق، فهو يملك أدلّة قاطعة يثبت قداسته ونزاهته، وبما أنّ مريم في موضع الاتّهام ولا يأخذ بقولها السفهاء والجهّال والمعاندون؛ لذلك فإن عيسىٰ أمرها بألّا تتكلّم مع أحد، وهذا العمل يجب أن يتم بإرادتها ومن خلال النذر الذي كان متعارفاً في ذلك المجتمع، ويؤكّد ذلك علىٰ أنّها لن تخرج عن طريق الحقّ، وتتقبّل مريم كلّ هذه الأوامر عن طريق ولدها من ربّها وتصدّق بها وتطمئن إليها.

وهكذا يتكلّم عيسىٰ مع أُمّه ويُثبت معجزة إيجاده ونشوئه، وتكون مريم أول من آمنت بنبي اللّه؛ لأنها هي أوّل من آمنت بعيسىٰ عليه السلام كنبي وصدّقته وامتثلت

---

(١) النساء ٤/١٥٦.

(٢) مريم ١٩ / ٢٤ ـ ٢٦.

(٣) ينسب بعض المفسرين هذا القول لجبرئيل. انظر مجمع البيان، المجلد ٣، الجزء ٦/٥١١.

(٤) ﴿وَقَرِّي عَيْناً﴾ يعني واطمئنّي قلباً. انظر في ظلال القرآن، المجلد ٥، الجزء ١٦/٣٥.

أوامره.

مريم وعيسىٰ عليهما السلام في الوسط اليهودي

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴾(١).

بهذه الآية الكريمة تبدأ مريم حياتها الاجتماعية بين قومها، فهي لم تعد عابدة زاهدة منزوية في ركن المعبد، بل منذ أن أخذت مولودها في حجرها راحت تحضر في الأوساط العامّة بين الناس؛ إذ لم يُطلب منها أن تعتزل المجتمع وتربّي طفلها في معزل من القوم، أو أن تظهر هي دون طفلها، بل كان المطلوب منها في هذه الفترة أن تحمل طفلها بكلّ شجاعة، وأن تحضر بين الناس، وأن يحمي كلّ منهما الآخر.

وعندما شوهدت مريم بهذه الحالة تحضر المجالس دون أي وجل بدأت شماتة الشامتين، وبدؤوا يقولون لها: يا مريم لقد جئت شيئاً فَرِياً ـ أي بديعاً منكراًـ يا أُخت هارون(٢)، لم يكن أبوك رجل سوءٍ ولم تكن أُمّك ممّن يمارسن البغاء. فهم بنفيهم السوء والبغي عن أبيها وأُمّها كانوا يريدون أن يتهموها بذلك، فبالرغم من أنّ اليهود عايشوا موسىٰ عليه السلام ورأوا المعجزات الكثيرة منه ومن سائر الانبياء، لم يروا بدأ من اتّهام مريم وكيل كلمات السوء لها.

---

(١) مريم ١٩/٢٧ ـ ٢٨.

(٢) هناك أراء أربعة ذهب إليها المفسّرون في سبب نعت مريم بأُخت هارون، قيل: يعنون هارون النبي عليه السلام وكانت من أعقاب مَن كان معه في طبقة الإخوّة. وقيل: كانت من نسله وكان بينهما ألف سنة. وفي مجمع البيان عن المغيرة بن شعبة مرفوعاً إلىٰ النبي صلى الله عليه وآله أنّ هارون هذا كان رجلاً صالحاً في بني إسرائيل ينسب إليه كلّ من عرف بالصلاح. وفي تفسير علي بن إبراهيم: أن هارون كان رجلاً فاسقاً زانياً فشبهوها به. وفي كتاب سعد السعود لابن طاووس رحمه الله من كتاب عبد الرحمن بن محمد الأزدي: وحدثني سماك بن حرب عن المغيرة بن شعبه أنّ النبي صلى الله عليه وآله بعثه إلىٰ نجران فقالوا: الستم تقرؤون ﴿يَا أُختَ هَارُونَ﴾ وبينهما كذا وكذا، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وآله فقال: الا قلت لهم: إنّهم كانوا يسمّون بأنبيائهم والصالحين منهم. أنظر تفسير الميزان ١٤/٧٥، وتفسير كنز الدقائق ٨/٢١٧.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً * وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً﴾[1].

والتزمت مريم بنذرها ولم تتكلّم، بل أشارت إلىٰ عيسىٰ ﷺ معلنةً أنّها صامتة، فأخذهم العجب وقالوا: كيف نكلّم من كان صبياً في المهد. ولكن عيسىٰ ﷺ بعد أن أشارت إليه مريم بدأ يتكلّم ليبلّغ رسالته إلىٰ الناس، فكما أنّ العصا كانت تسعىٰ وتصبح حيّة بإشارة من موسىٰ ﷺ، وكما أنّ الموتىٰ كانوا يعودون إلىٰ الحياة بإشارة من عيسىٰ ﷺ، وكما أنّ الناقة كانت تخرج من الجبل بإشارة من صالح ﷺ، فهكذا الحال بالنسبة لمريم ﷺ إذ كان عيسىٰ يبدأ الكلام بإشارة منها. ولكن مريم في هذا الظرف كانت سبباً في إنجاز معجزة وهي ليست بصدد إبلاغ الرسالة بل بصدد تبرئة ساحتها من التهم التي كيلت إليها؛ ولذلك فقد نطق عيسىٰ ﷺ لمرة واحدة بهذه الجملة ودافع عن أُمّه وبرّأ ساحتها من التهم.

وكلام عيسىٰ ﷺ لم يكن فيه إجابة صريحة عن التهم التي كالوها لأُمّه، بل بدأ بتعريف نفسه وإبلاغ رسالته؛ إذ إنّ كلامهم كان في غاية السخافة ولا يستحقّ أن يردّ عليه، فكان في كلامه كناية أبلغ من التصريح. ويبدأ بعدَ وظائفه التي جاء من أجلها وسيره السلوكي من الحقّ إلىٰ الخلق[2] ويقول: إني عبداللّه، وأتيت من اللّه إليكم بكتاب، وجعلني اللّه نبياً لكم، وجعلني مباركاً أينما كنت، وأوصاني بالصلاة والزكاة، وأن أكون بَرّاً بوالدتي، ولا أكون شقياً عاقاً لها.

ويضع بعض المفسّرين العقوق والشقاء مقابل البر بالوالدين حيث جاء في عيون الأخبار باسناده عن الصادق ﷺ في حديث لتعداد الكبائر يقول: ومنها: عقوق الوالدين؛ لأنّ اللّه عزّ وجل جعل العاق جباراً شقياً في قوله تعالى حكاية

(١) مريم ١٩/٢٨ ـ ٣١.

(٢) وضع العرفاء عدّة مراحل في سلوكهم إلىٰ اللّه آخرها مرحلة السير من الحق إلىٰ الخلق.

عن عيسىٰ ﷺ: ﴿**وَبَراً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبّاراً شَقِيّاً**﴾[١]. ونستنتج من ذلك أنّ الصادق ﷺ يرىٰ أنّ جملة ﴿**لَمْ يَجْعَلْنِي جَبّاراً شَقِيّاً**﴾ جاءت توضيحاً لجملة ﴿**بَراً بِوَالِدَتِي**﴾.

هجرة مريم وعيسىٰ ﷺ

وهاجرت مريم وابنها من البلد الذي كانا فيه بسبب تهديدهم ومن أجل ان تعود إليهم الطمأنينة والأمان، وبذلك تطوي مريم مرحله أُخرى من حياتها في المهجر.

ولم يُشر القرآن الكريم إلىٰ الفاصل الزمني بين تَكلُّم عيسىٰ وهذه الهجرة، ولكن المُسلّم به هو أنّهما اضطرّا إلىٰ الهجرة حيث يقول عزّ من قائل: ﴿**وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ**﴾[٢].

ومن الجدير بالذكر أنّ القرآن الكريم اعتبر عيسىٰ وأُمه آية واحدة ولم يعتبرهما آيتين، ولعلّه يقصد بذلك أن أحدهما يكمّل الآخر، وكليهما يشكلّان آية واحدة، فكما قلنا سابقاً واستناداً إلىٰ حديث عن الإمام الرضا ﷺ أنّ هذه الآية تدلّ علىٰ اندماجهما ووحدتهما، ولو قارنّا هذه الآية بآية ﴿**وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلعَالَمِينَ**﴾[٣]، لوجدنا أنّ هذا التقديم والتأخير لفظي لا مقامي[٤]، وفي آخر الآية إشارة إلىٰ أنّ اللّه آواهما إلى ربوة ليستقرّا فيها وهي تزهو بالعيون والأنهار: ﴿**ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ**﴾.

وفي هذه الآية إشارة تلويحية إلىٰ أنّ اليهود بعد أن رأوا ظهور عيسىٰ ﷺ في المجتمع وهداية البعض بعد تكلّمه في المهد، انبروا لمحاربة عيسىٰ وأمّه

(١) تفسير كنز الدقايق ٨/ ٢٢٠، عن العيون ١/ ٢٢٣، الحديث ٣٣، وتفسير الميزان ١٤/ ٧٧.

(٢) المؤمنون ٢٣/ ٥٠.

(٣) الأنبياء ٢١/ ٩١.

(٤) ففي الآية الأُولىٰ جاء اسم عيسىٰ متقدّماً على مريم، وفي الآية الثانية جاء العكس، ممّا يدل علىٰ عدم وجود تقديم حقيقي.

واتّهامهما بحيث اضطرّا إلىٰ الهجرة من تلك البلدة لمدة من الزمن، وكلمة ﴿آوَيْنَاهُمَا﴾ أيضاً لها دلالاتها في هذا المجال.

رفع مريم عليها السلام أو موتها

يشير اللّه سبحانه وتعالىٰ إلىٰ نفي الألوهية عن عيسىٰ وأُمّه وتثبيت الأُلوهية والمالكية لنفسه بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللّهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ المَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ واللّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾[1] هذه الآية تشير بصراحة إلىٰ أنّ الملك المطلق للّه وحده. وفيها أُمور منها:

الأوّل: تحتوي علىٰ شرط وجوابه، والجواب أيضاً فيه استفهام استنكاري.

الثاني: إنّ حرفي «لو» و «لمّا» الشرطيان يحوّلان زمن الجملة الشرطية وجوابها الىٰ المستقبل[2]. ولا فرق في مثل هذه لجمل بأن يكون الفعل ماضياً أو مضارعاً[3].

الثالث: الاستفهام الانكاري يفيد معنى النفي؛ لأن أداة الاستفهام فيه بمنزلة أداة النفي[4].

الرابع: كلمة «هلك» لها عدّة معانٍ منها:

١ ـ الموت: في قول اللّه تعالى: ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ﴾[5]

٢ ـ بطلان الشيء من العالم وعدمه رأساً ولذلك يسمّىٰ فناء[6] كقوله تعالىٰ:

---

(١) المائدة ٥/١٧.

(٢) نحو المنتظرية /١٣، ٨٣.

(٣) النحو الوافي ٤/٣٩٦.

(٤) النحو الوافي ٢/٢٩٣، الهامش ٣.

(٥) النساء ٤/١٧٦، وانظر مفردات الفاظ القرآن /٥٤٤.

(٦) مفردات الفاظ القرآن /٥٤٤.

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[١].

وبناءً على هذا، وبما أنّ الموت في عالم الطبيعة لا يحدث إلّا مرّة واحدة لكلّ شيء إلّا ما استثني من ذلك، ولو أخذنا الإهلاك بمعنى الموت[٢] فإنّ معنى الآية يكون بالشكل الآتي: «إن أراد اللّه أن يهلك المسيح ابن مريم وأُمّه ومن في الأرض جميعاً ليس لأحَدٍ أن يملك من اللّه شيئاً ولكن اللّه لم يرد أن يهلك المسيح ابن مريم وأُمّه ومن في الأرض جميعاً». و«إن» تحيل إرادة اللّه علىٰ المستقبل فقط؛ ولذلك يثبت المعنىٰ المذكور.

ولكن لعلّ قائل يقول: إذن ﴿مَن فِي الأَرْضِ﴾ ما زالوا على قيد الحياة؟

والجواب هو: أنّ قيد ﴿جَمِيعاً﴾ في الجملة يستوجب أن يموت الناس جميعاً في وقت واحد، وهذا مالم يحدث، والموت بشكل منفرد وعلى طول السنين لا يتنافىٰ مع هذا الكلام.

ولكن لو أخذنا «هلك» بالمعنىٰ الثاني أي الفناء، يصبح معنى الآية كما يلي: «لو أنّ اللّه أراد فناءهم من الوجود لم يقدر أحد علىٰ منعه». وفي هذه الحالة فإنّ الآية بمدلولها اللفظي تدلّ علىٰ عدم وفاة مريم عليها السلام؛ لأنّ الموت والهلاك يختلفان في المعنى كما هو معلوم.

إذن في الحالة الأُولىٰ يدلّ مفهوم الآية على أنّ مريم لم تمُت، وفي الحالة الثانية سكتت الآية عن الموضوع. وعلى أية حال لم نجد أحداً ذهب إلىٰ المعنى الثاني للهلاك.

ولكن تبقىٰ معضلة واحدة هنا وهي تضارب الروايتين الآتيتين:

١ ـ يقول الراوي سألت الإمام جعفر الصادق من الذي غَسّل فاطمه عليها السلام؟ قال بما معناه: أمير المؤمنين علي عليه السلام. قال: وكأني شعرت بجواب الإمام فيه مبالغة، فقال لي: لعلّ الذي أخبرتك به لم يروق لك؟ قلت: فديتك نفسي، هو كما قلت.

---

(١) القصص ٢٨/٨٨.

(٢) قاموس القرآن ٧/١٦٠.

قال: لا، لأنّها صدّيقة ولم يغسّلها إلّا صدّيق، ألم تعلم أنّ مريم لم يغسّلها إلّا عيسىٰ عليه السلام[١]؟

٢ ـ روىٰ القطب الراوندي أنّ عيسىٰ عليه السلام نادى أُمه مريم بعد وفاتها وقال لها: يا أُمّي كلّميني هل تريدين أن ترجعي إلىٰ الدنيا؟ فقالت: نعم، من أجل أن أُصلّي للّه في الليالي الباردة، وأصوم في الأيام الحارّة، يا ولدي العزيز، إن هذا طريق محفوف بالمكاره[٢].

ونترك تضارب هذين الحديثين أو عدمه للمختصين في هذا المجال.

تفضيل مريم على زكريا عليهما السلام في بعض مراتب الوحي

أفضلية مريم على زكريا في مراتب من الوحي هو موضوع مستلهم من الآيات القرآنية مباشرة وليس للمؤلفة فيه دخل أو تصرّف.

١ ـ لو تمعّنا في الآيات ٣٨ إلى ٤٢ من سورة آل عمران، والآيات ٢ إلى ٢١ من سورة مريم بدقّة أكثر، لوجدنا أنّ الحوار الذي جرىٰ بين زكريا وربّه أو الملائكة جاءت فيه ألفاظ مثل: دعا، نداء، قال، نادته، نادىٰ، نحو: ﴿**إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً**﴾[٣]. والجواب أيضاً جاء بنفس الألفاظ، مثل: ﴿**فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ**﴾[٤].

وكما نعلم أنّ النداء هو الكلام بصوت عالٍ ومرتفع[٥]، ويتكلّم الإنسان بهذه الطريقة إذا وجد نفسه بعيداً عن مخاطبه[٦]، فبالنسبة لزكريا إذا قلنا: إنّه كان يتصوّر نفسه بعيداً عن ربّه أو لقلّة اعتماده على نفسه أو لذنوبه، فهذا التصوّر

---

(١) بحار الأنوار ١٤/١٩٧، الحديث ٣.
(٢) منازل الآخرة / ٢١ ونقلنا مضمون الحديث لا نصّه.
(٣) مريم ١٩/٢.
(٤) آل عمران ٣/٣٩.
(٥) قاموس القرآن ٧/٣٩.
(٦) قاموس القرآن ٧/٤٠.

لايمكن أن نطبّقه على الملائكة في آية: ﴿**فَنَادَتْهُ المَـلَائِكَةُ**﴾. ونستنتج من ذلك وجود بعد حقيقي لا بعد ظنّي ومتصوّر، في الوقت الذي لا نجد هذا البعد فـي حوار مريم مع ربّها، حيث إنّ كل الألفاظ التي وردت في القرآن نقلاً عن مريم وربّها أو الملائكة جاءت بلفظ «قال» إلّا في آية ﴿**فَنَادَاهَا مَنْ تَحْتِهَا**﴾(١) ويـنسب هـذا القول لعيسىٰ عليه السلام. إذن حوار مريم مع الملائكة وربّها كان بشكل مباشر دون أي بُعد.

٢ ـ لو قارنا بين الآيتين ٣٩ من سورة آل عمران، و٤٥ من السورة نـفسها، وتمعّنا في البشارتين المذكورتين بدقّة لوجدنا أنّ الملائكة قالت لمريم: ﴿**إنّ اللّهَ يُبَشّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسمُهُ المَسِيحُ**﴾، في حين أنّها قالت لزكريا: ﴿**إنّ اللّـهَ يُـبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللّهِ**﴾، فقد أعطىٰ اللّه لمريم ﴿**كَلِمة مِنْهُ**﴾ وأعطى لزكريا ﴿**مُصَدِقاً بِكَلِمَة**﴾، ومن الواضح أنّ هناك فرقاً شاسعاً بين هذين العطاءين، أي إن اللّه أعطىٰ لمريم ﴿**كَلِمَة مِنه**﴾ ألا وهي المسيح روح اللّه، وهو واحد من أعـظم أنبياء اللّه وأحد الرسل الخمسة من أولي العزم، في الوقت الذي أعـطى اللّـه لزكريا يحيىٰ، وهو مصدِّق لكلمة اللّه عيسىٰ ابن مريم.

نختم الكلام بهذا القدر عن مريم عليها السلام وروحها التي تتّسع كالبحر، وروحانيتها السامية العظيمة، ونعترف بقصورنا عن فهم هذه الشخصية العظيمة وواقعها وما جرىٰ به القلم في هذه السطور القليلة، ونرجـو مـنها أن تـعفو عـن هـذا القصور.

---

(١) مريم ١٩/٢٤.

الفصل الثامن

المرأة الكفوءة

المرأة الكفوءة

الأنبياء هداة البشر من الضلالة، وهم معصومون من الزلل في القول والعمل، وأسوة لمن سواهم، وحجّة علىٰ الناس في جميع تصرّفاتهم وأعمالهم.

وطريقة كلامهم وتصرّفهم مع قومهم كلّ بحسبه تدعو إلىٰ الدقّة وإمعان النظر لأخذ العبر والحكم منها، فطريقة يوسف عليه السلام تدلّ على حكمته ومنطقه القوي وحزمه في أخذ الإقرار والاعتراف بالذنب من زليخا، وإثبات نزاهته وطهره علىٰ لسانها وطلب التوبة، ومن ثم عفوه عن النسوة في ذلك المجلس واحترامه لهن مع تلك الصلابة والقوّة في وقوفه أمام امرأة العزيز التي كانت هي السبب في كل تلك المصاعب التي حلت به، وفي رفع أُمّه وأبيه علىٰ العرش.

كما أنّ تصرّف سليمان عليه السلام مع بلقيس واعطاءها ذلك الدرس البليغ ينمّ عن سمو مقام هذا النبي ورفعة درجته.

وهكذا الحال بالنسبه لزكريا عليه السلام فبعد أن يأس من نيله لذرية ترثه، وما أن شاهد مريم عليها السلام وهي ترقىٰ سُلّم الكمال والعبودية للّه، حتى نادىٰ ربّه مكسور الخاطر وبقلب خاشع في هدأة الليل أن يهب له ذرّية طيبة. ولم ينسَ في مناجاته أن يذكر زوجته العليلة: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي**

مِن لَدُنْكَ وَلِيّاً ﴾[١].

يبدأ زكريا بتوصيف حاله للّه في مناجاته معه، ويشكو له كِبر سنّه وضعف بدنه، ثم يلجأ إلىٰ اللّه ورحمته التي شملته طول حياته، ويبيّن أن دعاءه لم يكن من شقاء أو لذّه أو حبّ الدنيا والبنين، ويذكر السبب لطلبه هذا؛ لأنّه يعلم أنّ الدعاء الذي يكون بعيداً عن المنطق والعقل لايقترن بالإجابة.

ويذكر أيضاً عقر زوجته ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً ﴾. ولعلّ استخدام صيغة الماضي في هذه الجملة يدلّ علىٰ أنّ زوجته كانت عاقراً منذ شبابها لكنّه صبر على ذلك ولم يحتقرها لهذه العلة ولم يتزوّج غيرها احتراماً لها، بل يشكو لربّه في غيابها ما عاناه من هذا النقص. ولم يقدّم العقر ويجعله السبب الأول والأخير، ولم يلقِ اللوم على زوجته، بل ذكر في البدء حاله وكبر سنّه وضعفه، وبعدها ذكر عقم زوجته من أجل ان يكون قد ذكرها في دعائه، وألا يكون قد أهملها أو تجاسر عليها.

فهذا الدعاء بهذا المستوىٰ الرفيع وبهذا الأدب الراقي لم يصدر إلّا عن إنسان يعلم كلّ العلم أنّ مسبب الأسباب هو اللّه وحده لا غيره، ويعلم أنّه هو القادر علىٰ أن يزيل العقم عمّن يشاء، فهو لم يشمت بزوجته أو يعاتبها ويلقي عليها اللوم ويؤذيها للعيب الذي فيها.

وزكريا لم يتعرّض طول حياته إلىٰ هذا الموضوع في دعائه ومناجاته مع اللّه ولم يشكو له عدم إنجابه، ولكن عندما رأىٰ كرامة مريم وسموّ مرتبتها وشأنها عند اللّه، دفعته فطرته السليمة المودعة في أعماقه، وهي حبّ الأولاد وتنشئتهم بالطريقة الصحيحة ليكونوا له عزّاً وخلفاً صالحين، دفعته لأن يرفع يده بالدعاء ويطلب من اللّه أن يهب له ولداً من زوجته الصالحة هذه[٢]؛ لتكون

---

(١) مريم ١٩/٤ ـ ٥.

(٢) لو كان غير ذلك لما ذكر عقم زوجته، ولاكتفى بذكر كبر سنه وضعفه.

له ذرية طيّبة: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَدُنْكَ ذُرِّيَةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[١].

استجابة دعاء زكريا

لمّا سمع اللّه دعاء زكريا وتضرّعه ومناجاته وطلبه هذا لنفسه ولزوجته الصالحة أتته البشارة من السميع للدعاء الذي لا يرد طلباً لعبد أخلص له في العبادة والمناجاة: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً﴾[٢].

فعندما سمع زكريا بهذه البشارة، ولما كان يعلم سنّة اللّه في الإنجاب وأنّه لا تجري الأُمور إلّا بأسبابها، تعجب وأخذته الدهشة من هذه البشارة العظيمة التي لم تكن سوىٰ معجزة اختصّه اللّه بها، وقال في معرض الشكر إلىٰ الخالق والاستئناس بالحديث والمناجاة معه:[٣] ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِياً﴾[٤].

كان زكريا يعلم كلّ العلم بقدرة اللّه المطلقة، ولولا ذلك لما لجأ إليه ولما طلب منه هذا الطلب المستعصي، ولكن بما أن هذا الطلب في إعطائه ولداً وذرّية صالحة من هذه الزوجة العقيمة وهو علىٰ هذا الحال من العجز والشيب والضعف البدني كان أمراً مستحيلاً، أراد أن يعرف كيف يحقّقه اللّه؟ أيتحقّق وهما علىٰ هذا الحال من كِبر السن والعُقم؟ أم سيطرأ تغيير جذري فيهما وفي وجسميهما؟

ويأتي الجواب من جانب الربّ الجليل: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ

---

(١) آل عمران ٣/٣٨.

(٢) مريم ١٩/٧.

(٣) قال سيد قطب في تفسيره: إن زكريا عندما سمع هذه البشارة ولمس هذا الواقع، وبما أنه صدّق بهذا الوعد الإلهي وتقبّله، أراد أن يعرف كيف يحقّق هذا الأمر المعجز لكي يطمئن قلبه. انظر في ظلال القرآن، المجلد ٥، الجزء ١٠/٢٩.

(٤) مريم ١٩/٨.

خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾[١] ففي هذه الإجابة يشير اللّه سبحانه الىٰ قدرته المطلقة لإنجاز أي شيء كان، فهو الذي خلق زكريا من العدم، وهو القادر على كلّ شيء. ولم يذكر اللّه لزكريا في هذا الموضع توضيحاً أكثر عن هذا الأمر.

استعداد الزوجة الروحي والجِسمي

تشير الآية الكريمة الىٰ هذه الواقعة بما يلي: **﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَيَدعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾**[٢].

كان دعاء زكرياً طلباً لذرية صالحة من أجل أن ترثه، وقد استجاب اللّه دعاءه ووهب له ما طلب بقوله: **﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ ﴾** إلاّ أنّ إصلاح زوجه كان تمهيداً لاستجابة ذلك الطلب بالذات حيث قال: **﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾** أي إنّنا رفعنا عنها العقم وأعطيناها استعداد الحمل والإنجاب.

وفي جانب آخر من الآية يشير اللّه سبحانه الىٰ ثلاث صفات سامية يمكن أن يتحلّى بها أي إنسان يريد أن يرتقي درجات الكمال، وقد وجدت تلك الصفات في هذه الأُسرة[٣]، ألا وهي:

الأُولى: إنّ زكريا وابنه وزوجه كانوا يسارعون في الخيرات أولاً ويشتاقون إلىٰ عمل الخير ويتجنّبون الشر والسوء: **﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ ﴾**.

الثانية: كانوا علىٰ معرفة تامّة باللّه ويحبّونه حباً جمّاً؛ ولذلك كان دعاؤهم ومناجاتهم مع اللّه يتخللّه الحبّ والاندفاع والرغبة إليه، كما أنّهم كانوا يخشونه

---

(١) مريم ١٩/٩.

(٢) الأنبياء ٢١/٩٠.

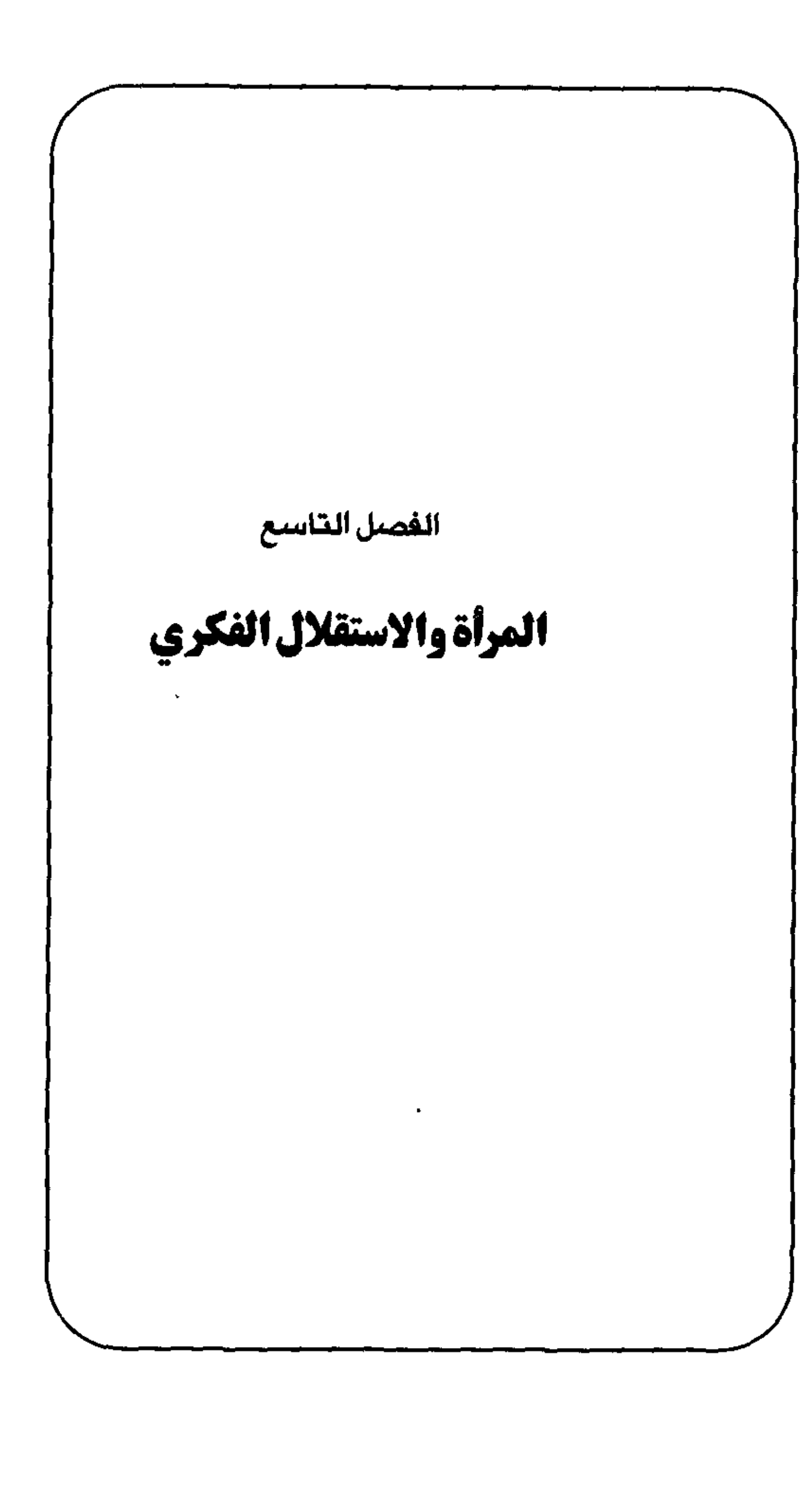
(٣) سعى بعض المفسّرين لأن يرجع الضمير في **﴿إِنَّهُمْ﴾** إلىٰ زكريا ويحيىٰ فقط، لكنهم كانوا في غفلة من أنّه لو كان كذلك لاستخدم القرآن صيغة التثنية ولما استخدم الجمع ولقال: أنهما كانا.
وأرجع بعض آخر الضمير إلىٰ الأنبياء السابقين إضافة إلىٰ زكريا ويحيىٰ لرفع هذا الإشكال، إلاّ أن سياق الآية لا يدلّ علىٰ ذلك. انظر مجمع البيان، المجلد ٤، الجزء ٧/٦١، والكشاف ٢/٥٨٢.

ويخافونه كلّ الخوف ويظهر ذلك في دعائهم وصلواتهم؛ ولذلك قال: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾.

الثالثة: لم يعتبروا لأنفسهم وزناً أمام اللّه، وكانوا معترفين بعجزهم وحيرتهم أمام عظمته وسلطانه وجلاله وشوكته؛ ولذلك كانوا خاشعين ذليلين له حيث قال في حقهم: ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

وهذه الأُسرة بهذه الصفات السامية أراد اللّه أن تشملهم رحمته ويحظون بعنايته.

هذا ما كان من شأن زوجة زكريا ومقامها الشامخ، عرضناه لكم مع شيء من الاختصار؛ ممّا يجعل الإنسان في غبطة منها.



الفصل التاسع

المرأة والاستقلال الفكري

المرأة والاستقلال الفكري

تعرّفنا لحد الآن عدّة نماذج من النساء: نساء سائرات علىٰ طريق الحقّ وفي بيئة صالحة، وأُخريات سائرات علىٰ طريق الباطل مع سكنهن في مركز الوحي وبيئة إلـٰهية، وامرأة في أعلىٰ مراتب الإيمان وهي تسكن بيت فرعون و... وكل أولئك النساء كان لهن استقلال كامل في الرأي واتّخاذ القرار وحرية العمل بما يروق لهن.

والآن نتعرّف نموذجاً آخر حيث كانت تسير جنباً إلىٰ جنب مع زوجها في طريق الباطل وقلباهما مملوءان بالحقد. هذه المرأة التي تتّخذ القرار بنفسها وتنفّذه بنفسها وتتلقّىٰ العقاب على تصرّفاتها الخبيثة بشكل يليق بها!

وما يهمّنا في هذا المقال ليس هذه المرأة بالذات؛ لأنّها شيطان بعينه ولا تستحقّ البحث والدراسة، بل هو هذا النموذج المعين الذي يشير إلىٰ استقلالية الإنسان الحرّ، فدراسته تدلّنا على أن اللّه تبارك وتعالىٰ لم يخلق أي إنسان ومصيره مرتبط بمصير غيره في عمله وتصرّفاته، ولم يحثّهم علىٰ اقتفاء الآخرين دون علم ودراية، بل جعل الإنسان مكلفاً ومسؤولاً عن عمله وتصرّفاته، وله الاستقلال التام في اتّخاذ القرار.

وأم جميل[١] زوجة أبي لهب هي موضوع حديثنا هذا، ونظراً لرفضها نداء الحقّ ومحاربتها له بكلّ ما أُوتيت من قوّة صارت في زمرة الذين لعنهم اللّه و سيصليهم العذاب الأليم إلىٰ أبد الآبدين. وسجّل التاريخ اسمها في زمرة الذين سيُنزّل عليهم العذاب ومن المستحقّين النار؛ لأنّها اتّبعت الشيطان وجعلت قلبها مسرحاً له، فقبحاً لها، ونقول كما قال القرآن في ذمها: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَد ﴾[٢].

ففي هذه السورة[٣] بعد اللعن لأبي لهب الذي كان من أعدىٰ أعداء رسول اللّهﷺ يعده اللّه ناراً ذات لهب، ووعده سوف يتحقّق لا محالة، وامرأته الحاقدة أيضاً شريكته في هذا الوعيد وستدخل النار التي وعد اللّه بها زوجها، لا لأنّها زوجته بل لعملها الشنيع الذي ارتكبته في حق الرسولﷺ، ولأنّها كانت حمّالة للحطب.

لو أخذنا الآية الكريمة بمعناها الظاهري وما للظاهر من معنىً حقيقي فإن زوجة أبي لهب كانت تحتطب وتحمل علىٰ ظهرها حزماً من الشوك والحسك[٤] فتنثرها بالليل في طريق الرسولﷺ؛ من أجل أن تؤذيه، وهو عمل قبيح يكرهه المنطق والعقل السليم.

ولو أخذنا المعنىٰ المجازي للآية فهي كانت تحمل أوزاراً لمعادة الرسولﷺ وتحمل زوجها علىٰ إيذائه، كما أنّها كانت توقد نار الخصومة بين الناس بالنميمة علىٰ الرسول الاكرمﷺ، وكأنّها تحمل الحقد وزراً علىٰ ظهرها لتنثره بين الناس؛

---

(١) أم جميل بنت حرب زوجة أبي لهب وأخت أبي سفيان. انظر الكشاف ٤/٢٩٧.

(٢) المسد ١١١/ ١ ـ ٥.

(٣) يقول صاحب مجمع البيان: يقول الفرّاء: الجملة الأُولىٰ دعائيّة والجملة الثانية خبرية، كأنّه يقول اللّه تعالىٰ: أهلكه اللّه وقد هلك. مجمع البيان، المجلد ٥، الجزء ١٠/٥٥٩.

(٤) الحسك: نبات له ثمار خشنة تتعلّق بأصواف الغنم وأدبار الإبل ومنه: حسك السوران. انظر كنز الدقائق ١٤/٤٩٣.

لإطفاء نور الحقّ، أو لعلّه بيان لحالها في نار جهنم حيث يكـون عـلىٰ ظـهرها حزمة من حطب جهنم كالزقّوم والضريع، وفي جيدها سلسلة من النار[١].

وعلىٰ أية حال فإنّ هذه الآية نزلت تحقيراً لها هي التي كانت تفتخر بنسبها، فصوّرها القرآن الكريم علىٰ حقيقتها بأنّها مجرّد حمالة للـحطب تـنثر النـار والشوك.

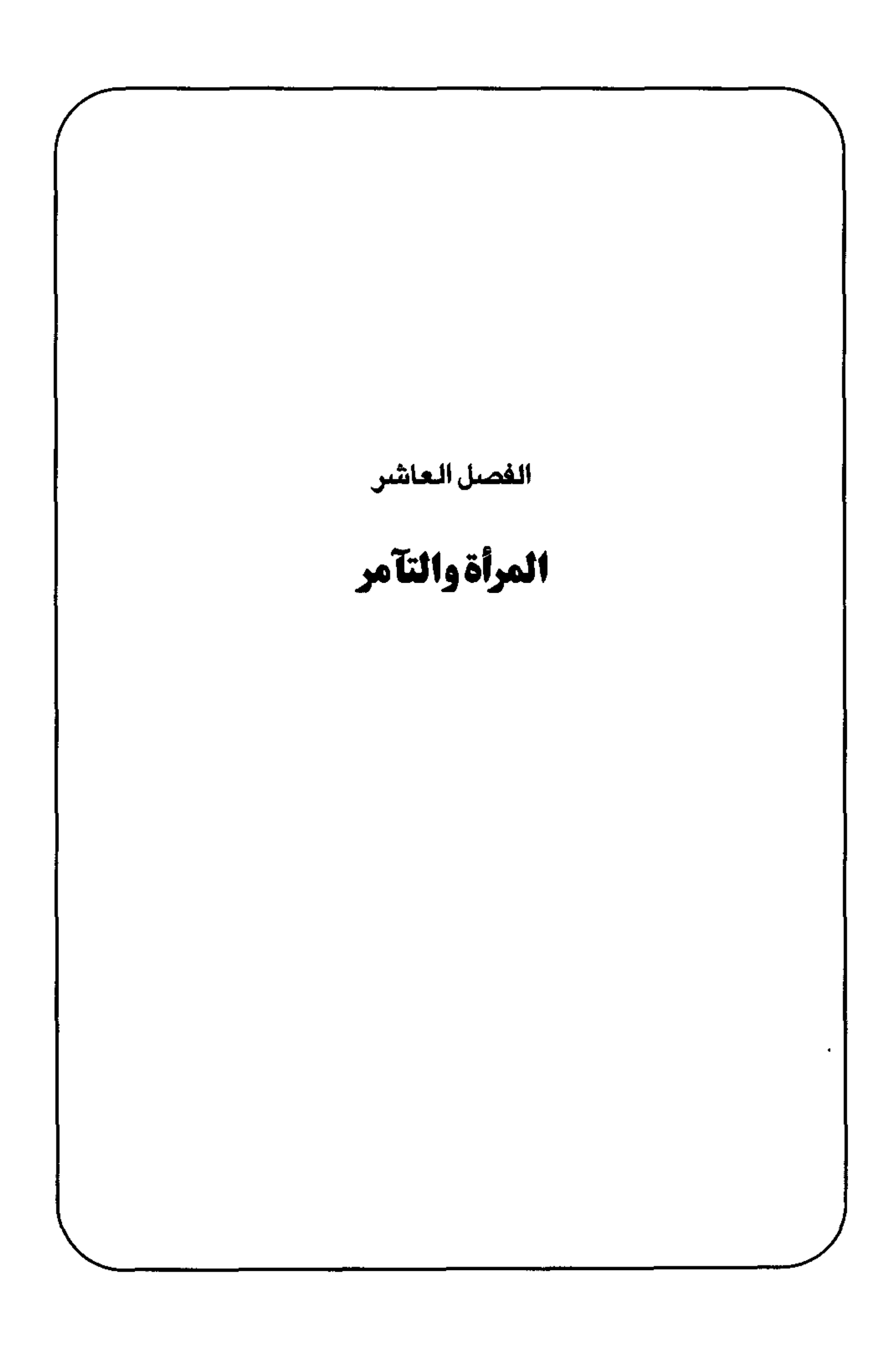
ولكن ياللأسف فإنّ هذا الكلام أيضاً لم يوقظ قلبها الميّت ولم يحثّها عـلىٰ التوبة والندامة، بل ازدادت حقداً وغيضاً للرسولﷺ حتىٰ حملت ذات يوم حجراً فهراً[٢] وجاءت لترميه به وهو جالس في المجلس، إلاّ أنّها لم تره وقد ستره اللّه عنها[٣].

---

(١) كنز الدقائق ١٤/٤٩٤.

(٢) الفهر: حجر يملأ الكف المصدر نفسه.

(٣) حديث منقول عن أسماء بنت أبي بكر. انظر مجمع البيان، المجلد ٥، الجزء ١٠/٥٦٠.



الفصل العاشر

المرأة والتآمر

المرأة والتآمر

بعد أن تناول آدم ﷺ أبو البشر وزوجته حواء ثمرة تلك الشجرة الممنوعة وأزلّهما الشيطان عمّا نهاهما اللّه عنه، بدت لهما سوءاتهما وهبطا من جنّة النعيم إلىٰ الأرض لتكون لهما مستقرّاً ومتاعاً.

فبدأت حياة هذا الكائن البشري علىٰ الأرض ليكابد فيها الألم والعذاب والمشقّة إلىٰ جانب اللذّة والمتاع المادي والمعنوي، وهكذا ظهرت حاجة الإنسان للأُمور المادية والمعنوية، ومنها: الحاجة الىٰ الزواج وتشكيل الأُسرة والدعة والسكينة والاستقرار في كنفها.

وأرسل اللّه أنبياءه ورسله لهداية البشر وتوجيههم لنيل السعادة الأبدية، وليبيّنوا للناس الطريق السوي لصعود سلّم الرقي إلىٰ الكمال المعنوي والاستقرار الروحيّ إلىٰ جانب تلبية الحاجة المادية لدى الإنسان.

ولا يتمّ هذا الأمر المهم إلّا أن يكون المبلّغ للرسالة الإلـهية والنبي المرسل من قبل اللّه إلىٰ البشر هو بشراً أيضاً؛ لكيلا يُعترض علىٰ اللّه بالقول: لولا أرسلت إلينا رسولاً من بين البشر؛ لأنّ الملائكة لايدركون حاجات البشر الماديّة؛ لكونهم من جنس آخر، والإنسان بجمسه المادي وتركيبته البشرية له خصائصه ومستلزماته التي يعجز الملائكة عن استيعابها ودركها.

واستمرّت سلسلة الأنبياء تترىٰ حتىٰ ظهر خاتمهم وأفضلهم محمدﷺ وكان بشراً كسائر الأنبياء: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَـيَّ**﴾[١]. وعاش بين الناس كواحد منهم وعانى معاناتهم والتذّ بلذائذهم وكابد ما كابدوا؛ ليعلّمهم درساً عملياً فيعيش بينهم ويقول لهم بأنّ الدنيا مزرعة الآخرة والإنسان يحصد ما يزرع إن كان خيراً فخير وإن كان شراً فشر.

وامتثل الرسول أمر ربّه في تلبية الحاجات المادية والجسدية عن طريقها الصحيح؛ ولذلك تزوّج كما يتزوّج الآخرون بالرغم من أنّه كان قادراً علىٰ أن يبقىٰ عزباً كما كان المسيح عليه السلام، ولكن أراده اللّه أن يكون أُسوة حسنةً في كلّ شيء للعالمين.

وأوّل زوجة له هي خديجة الكبرىٰ التي رافقته وكانت خير رفيق وسند له في بداية رسالته، وتحمّلت الكثير وبذلت الغالي والنفيس لإنجاح مهمّة الرسولﷺ، وبعد ما ودّعت دار الدنيا الفانية وهي مؤمنة بربّها وبرسالة زوجها اعتصر قلب النبي غمّ عليها وبدا عليه الحزن بحيث لم يجرؤ أحد علىٰ الكلام معه لاختيار زوج آخر له[٢].

ولمّا كانت الأُسرة نواة المجتمع والجزء الذي لا يتجزأ عنه، والنبي الأكرمﷺ هو الأُسوة التي يقتدي بها الناس، كان لابدّ له أن يُلبّي هذه الحاجة وينجز هذه الفريضة؛ ولذلك عزم علىٰ اختيار زوجة أُخرىٰ بعد خديجة عليها السلام فوقع الاختيار علىٰ سودة بنت زمعة.وهي امرأة كبيرة السنّ مطلّقة لم يبقَ فيها مسحة من الجمال. وبعد ذلك اختار الرسولﷺ زوجات أُخر منهن من وهبن أنفسهن له، ومنهنّ ـ كزينب بنت جحش ـ تزوجّها الرسول امتثالاً لأمرٍ إلهي للقضاء على سُنّة جاهلية، وتزوّج بعضهن الآخر لأهداف سياسية وغيرها[٣].

---

(١) الكهف ١٨/١١٠.

(٢) تراجم سيدات بيت النبوّة / ٢٤٠.

(٣) تقول المرحومة المجتهدة السيدة أمين الإصفهاني بهذا الخصوص: لم يكن زواج الرسولﷺ بهذا ←

وكان لنساء النبي أحكام وشؤون خاصة، ولم يُشر القرآن الكريم إلّا إلىٰ اثنتين منهن فقط، لمصلحة عامّة ولبيان بعض الحقائق.

سرّ الخفي

﴿وإذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَت بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي العَلِيمُ الخَبِيرُ﴾[1].

أسرّ النبيﷺ سراً لإحدىٰ زوجاته وقال لها: احتفظي بهذا السرّ ولا تبديه لأيّ أحد مهما كان وأياً كان مؤكداً ذلك عليها. ولكن على الرغم من ذلك أفشت تلك المرأة السرّ لامرأة أُخرىٰ، وعندئذٍ أُخبر الرسولﷺ عن طريق الوحي بهذا الأمر، ولامها النبيﷺ لعدم امتثالها لأمره وإفشائها للسرّ.

فلو فحصنا هذه الآية بدقّة لوجدنا أنّ الملفت للنظر هو طريقة تصرّف النبيﷺ وموقفه من هذه القضية، فإنّ إيداع سرّ معين عند زوجته هو تجسيد للآية الكريمة: **﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾**[2] وتطبيق لها في أسرته لكي يرسم النبيﷺ لكلّ الأُسر علىٰ طول التاريخ مثالاً عملياً لتعامل الزوج والزوجة والاعتماد المتقابل بينهما وحفظ أسرار الأُسرة داخلها وعدم إفشائها للآخرين.

كما أراد النبيﷺ بذلك أن يبطل قول من يدّعي لزوم كتمان أسرار الزوج عن زوجته وعدم الاعتماد عليها، علىٰ الرغم من أنّ زوجة النبيﷺ في هذا المورد الخاصّ لم تكن علىٰ مستوىٰ المسؤولية ولم تحفظ السرّ وأفشت به للآخرين، إلّا أنّ هذه الآية تشير إلىٰ حقيقة ثابتة وهي أنّ الرسولﷺ كان يتّبع طريقة

← العدد من النساء من باب تلبية الغرائز الجنسية؛ حيث إنّه لم يتزوّج بأكثر من واحدة في عنفوان شبابه واكتفىٰ بخديجةعليها السلام، ويرفض العقل أن يكون الرسولﷺ تزوّج هذه النساء وهنّ بأعمار مختلفة ومن قبائل مختلفة ويتمتّعن بأخلاق وعادات متفاوتة دون أن يتمّ ذلك إلّا عن مصلحة أكبر وتحقيقاً لأهداف أسمىٰ. انظر تفسير مخزن العرفان ١٣/ ٣١١.

(١) التحريم ٦٦/ ٣.

(٢) البقرة ٢/ ١٨٧.

الاعتماد على زوجاته، وكانت خديجة الكبرىٰ عليها السلام مستودع أسرار الرسول صلى الله عليه وآله وخير حافظ لها.

أمّا الدرس الآخر الذي نأخذه من هذه الآية فهو أنّ صدور الذنب من زوجات النبي وإخباره بذلك عن طريق الوحي يسوقنا إلىٰ التصديق بحقيقة أنّ القرب من الرسول صلى الله عليه وآله والسُكنىٰ في داره والبقاء في جواره لايُعد في حدّ ذاته قيمة حقيقية لأيّ فرد كان حتىٰ وإن كان زوجاً للنبي بل يصحّ العكس، فهذا القرب يُعد أمراً اعتبارياً ويفرض على الشخص مسؤولية إضافية لكونه منسوباً إلىٰ النبي صلى الله عليه وآله وعليه أن يحتاط في تصرّفاته وأعماله وممارساته، ويكون علىٰ مستوىٰ المسؤولية؛ لأنّ صدور أي ذنب ـ وإن كان يبدو صغيراً قياساً مع سائر الناس ـ يأخذ طابعاً آخر ويقع تحت مجهر عيون الناس و يتضاعف الذنب.

كما أنّ الامتثال لأوامر النبي صلى الله عليه وآله وآيات الوحي والعمل بطاعة اللّه يُحسب له حساب آخر ويستحقّ أجراً مضاعفاً اذا كان الشخص ذا علاقة بالنبي وينتسب إليه بشكل وآخر؛ لأنّ المسؤولية الملقاة على عاتق الرسول ثقيلة تستوجب تحمّل مشقّة مضاعفة تُظلل في كثير من الأحيان أُسرة النبي وزوجاته أيضاً.

مكانة زوجات الرسول صلى الله عليه وآله

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَىٰ اللّهِ يَسِيراً * وَمَن يَقْنُتْ مِنْكُنَّ للّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً﴾[1].

أشرنا في بحثنا السابق إلىٰ نقطتين هامّتين عن زوجات النبي صلى الله عليه وآله وهذه الآية تدلّنا على أُمور أُخرىٰ منها: عدم قُدسية بعض زوجات الرسول صلى الله عليه وآله اللاتي أثرن الفتن بعد وفاته أو كشفن السّر الذي أمر النبي بعدم إفشائه، وهما كما جاء في

(١) الأحزاب ٣٣/ ٣٠ ـ ٣١.

الروايات المنقولة عن الفريقين السنّة[1] والشيعة: حفصة وعائشة. وعلىٰ المسلمين جميعاً أن يقفوا عند تاريخهما ويطّلعوا علىٰ ما جرى؛ لأنّ بعض المسلمين يعتقد بقدسية زوجات الرسول كُلهنّ ويعتبر مجرّد كونهنّ أُمهّات المؤمنين وزوجات للرسول يعطيهن قدسيّة وقيمة ذاتية، ولكن الواقع هو خلاف ذلك.

الأمر الآخر الذي تدلّنا عليه هذه الآية هو موقف الرسولﷺ من زوجته التي ارتكبت هذا الذنب، فالنبي الأكرم الذي قال اللّه في حقّه ﴿**إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[2] كان قد مزج الوقار والحكمة مع الأخلاق السامية، فهو لم يفصح عن كلّ ما دار بين تلك الزوجتين من نجوى وكشفٍ للسر، بل اكتفىٰ بذكر جانب منه: ﴿**عَرَّفَ بَعْضَهُ وأعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ**﴾[3]؛ لكي يتغافل عن ذنبهما ولايكون سبباً في فضحهما. والقرآن الكريم في ذكره لهذه القصّة يُعطي للأُسرة درساً بليغاً في كيفية التعامل مع الخاطئ في الأُسرة المحافظة.

كما تجدر الإشارة هنا إلىٰ موقف تلك المرأة الخاطئة من رسول اللّه بعد أن أنبأها بخطئها، فبدلاً من الخجل وإعلان التوبة والندامة، تقف لتسأل النبيﷺ ﴿**مَنْ أنبَأك هَذَا**﴾ ممّا يكشف عن أمرين يدلان علىٰ بُعد المتسائل وغربته عن الرسول الأكرمﷺ الذي هو علىٰ اتّصال دائم بالوحي، وهما:

الأول: تجاهل أو جهل المتسائل بموقع الرسولﷺ ومقامه وشأنه وعلوّ مرتبته.

الثاني: عدم الاكتراث بالذنب والبحث عن مفرّ لتوجيه الخطأ من خلال السؤال عن مصدر الخبر، وهي في غفلة عن أنّ زوجها علىٰ ارتباط وعلاقة مستمرّة باللّه الخبير بالسرّ والعلن.

من هو المحامي لرسول اللّه ﷺ؟

(١) في ظلال القرآن، المجلد ٨، الجزء ٢٨/ ١٦١، والكشاف ٤/ ١٢٦ ـ ١٢٧.

(٢) القلم ٦٨/ ٤.

(٣) التحريم ٦٦/ ٣.

﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَىٰ اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾[1].

تبين الآية الكريمة حقيقة أنّ باب التوبة مفتوح علىٰ مصراعيه للجميع، ولافرق في ذلك بين المسلمين بل البشر جميعاً، فأيّ إنسان خاطئ إذا وقف علىٰ خطئه ثم ندم عليه فإن باب التوبة مفتوح له، واللّه يقبل التوبة من عباده: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَىٰ اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[2]، فإن تتوبا كلاكما إلىٰ اللّه وتصغيان بقلوبكما إلىٰ الحقّ وتنصاعان إليه فهو المطلوب، وإن لم تتوبا وتصرّا علىٰ الخطأ وتتكلان علىٰ مظاهرة ودعم إحداكما للأُخرىٰ فاعلما أنّ النبيﷺ ليس وحيداً وهناك من يحميه ويدافع عنه، ألا وهو اللّه القوي العزيز وجبرئيل وصالح المؤمنين إضافة إلىٰ الملائكة.

ما هو السرّ؟

لقد أشارت الآية الكريمة إلىٰ عدّة أُمور منها: مظاهرة زوجتي الرسول لبعضهما ضدّ النبيﷺ، والأمر بلزوم التوبة وعدم الإصرار علىٰ الذنب، والإعلان عن حماة الرسول وأنصاره، كل هذه الأُمور تدلّ علىٰ أنّ هذا السرّ كانت له أهمّية تفوق حدود الأُسرة وما يتعلّق بها، فقد أشارت بعض الروايات الواردة إلىٰ ترك النبيﷺ الفراش مع إحدىٰ زوجاته، وهذه الرواية مستبعدة؛ لأنّ هذا الأمر ليس مهماً ولا تتّسع رقعته خارج حدود الأُسرة ولا يستحقّ ذكره بهذا الشكل في القرآن الكريم والإشارة إلىٰ حماة الرسول ومدافعيه من الملائكة والباري تعالىٰ، كما أنّ إفشاء هذا السرّ لا يعتبر مؤامرة في حدّ ذاته يجب إفشالها وكشف النقاب عن المتآمرين. ومن جانب آخر فالأمر بالتوبة يدلّ علىٰ أنّ إفشاء ذلك السرّ كان يُعتبر ذنباً يستحقّ العقاب ويستوجب التوبة.

---

(١) التحريم ٦٦/٤.

(٢) أعطى المفسرون معنيين لعبارة ﴿صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، الأول: هو الميل إلىٰ الباطل والخروج عن الصراط المستقيم، والثاني: هو الذي أشرنا إليه، و هو الأصحّ نظراً إلىٰ سياق الآية ومعناها.

ولو كان السرّ هو خلافة أبوي تلكما الزوجتين بعد رسول اللّهﷺ كما أشارت بعض الروايات فهذا لا يتّفق مع ظاهر الآية، كما أنّ هذا السر كان بمنزلة بشارة لتلكما الزوجتين، وافشاءه لم يكن بمنزلة التآمر على رسول اللّه لكي يستوجب مظاهرة الواحدة للأُخرىٰ؛ لأنّ إفشاءه يعتبر افصاحاً عن أمرٍ يتّفق مع تطلّعاتهما وجاء وفقاً لمرادهما.

ونستنتج من ذلك أنّ السرّ كان لايتّفق مع أهوائهما ورغبتهما ممّا أثار قلقهما وحثّهما علىٰ الاتّفاق والتظاهر لبعضهما للحيلولة دون وقوع ذلك الأمر[1].

وبما أنّ في الآية تصريحاً بوجود محامٍ للرسول عبّر عنه القرآن الكريم بـ﴿**صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ في الوقت الذي قالت الآية بأنّ اللّه وجبرئيل والملائكة هم حماة الرسول والمدافعون عنه، وهذا الأمر يدلّ علىٰ أنّ ذلك السرّ كان له علاقة بشخص معيّن من صالح المؤمنين لم يتّفق مع ميول تلكما الزوجتين الباطنية وكانتا تريدان اتّخاذ موقف مخالف له.

فلو مررنا علىٰ الأحدث المهمّة التي وقعت بعد وفاة رسول اللّهﷺ مروراً سريعاً، ونظرنا إلىٰ دور هاتين المرأتين فيها، وأمعنا النظر في سياق الآية وطريقة بيان الحقائق، فإنّنا نصل إلىٰ النتيجة الواضحة الآتية: أنّ ذلك السرّ لم يكن سوىٰ إمامة علي بن أبي طالب عليه السلام وقد واجهت مخالفة بعض الصحابة لها، ولم يكن العهد الذي عقدته تلكما المرأتان على نفسهما سوىٰ المخالفة والوقوف أمام تحقّق ذلك الأمر.

ونزول هذه الآية كشف بوضوح عن ذلك، وصرّح بأن النبيﷺ لن يكون بلا حامٍ ونصير إذا تخلتا عنه وسيكون اللّه في عونه، و﴿**يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَىٰ اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾[2].

كما عقّب اللّه في آية أُخرىٰ على الموضوع بالقول: ﴿**عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن**

---

(١) أمر اللّه بلزوم توبتهما علىٰ الرغم من أنّ إحداهما هي التي أفشت السر، يدلّ على أنّهما اتّفقتا وتعاهدتا علىٰ شيء جعلهما مقصّرتين ومذنبتين.

(٢) التوبة ٩/٣٢.

يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنّ مُسْلِمَاتٍ مُؤمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَـائِبَاتٍ عَـابِدَاتٍ سَـائِحَاتٍ ثَـيِّبَاتٍ وأبكَاراً ﴾[١].

تحذّر هذه الآية الكريمة زوجات النبيﷺ من معصية اللّه والرسول كـي لا يظننّ أنّ حضورهن في بيت الوحي يجعل لهنّ قيمة إضافية ثابتة، بـل تـقول الآية اذا لم تكُنَّ بالمستوىٰ المطلوب سيضطر الرسول إلىٰ طلاقكنّ فتصبحن كسائر النساء، ويستبدله اللّه خيراً منكن يتمتّعن بصفات عالية لا يزيد وجودهن في بيت النبوة إلّا إيماناً وتقوىً، هنّ قانتات للّه، ومؤمنات بالرسول مطيعات له وتائبات، وعابدات كما أراد اللّه، ومهاجرات إليه من الذنوب أو صائمات له، وثيبات وابكار؛ لأنّ قيمة المرأة ليست لكونها بكراً أو ثيباً بل المرأة بشخصيتها وتقواها تكسب مكانةً واحتراماً؛ إذ إنّ مرافقة رسول اللّهﷺ والسكنىٰ في بيته وجـواره تُعدّ قيمة وامتيازاً للمرأة إذا كانت مؤمنة باللّه مطيعة لرسوله ولم ترتكب فـي بيته ذنباً ولا تحيك مؤامرة.

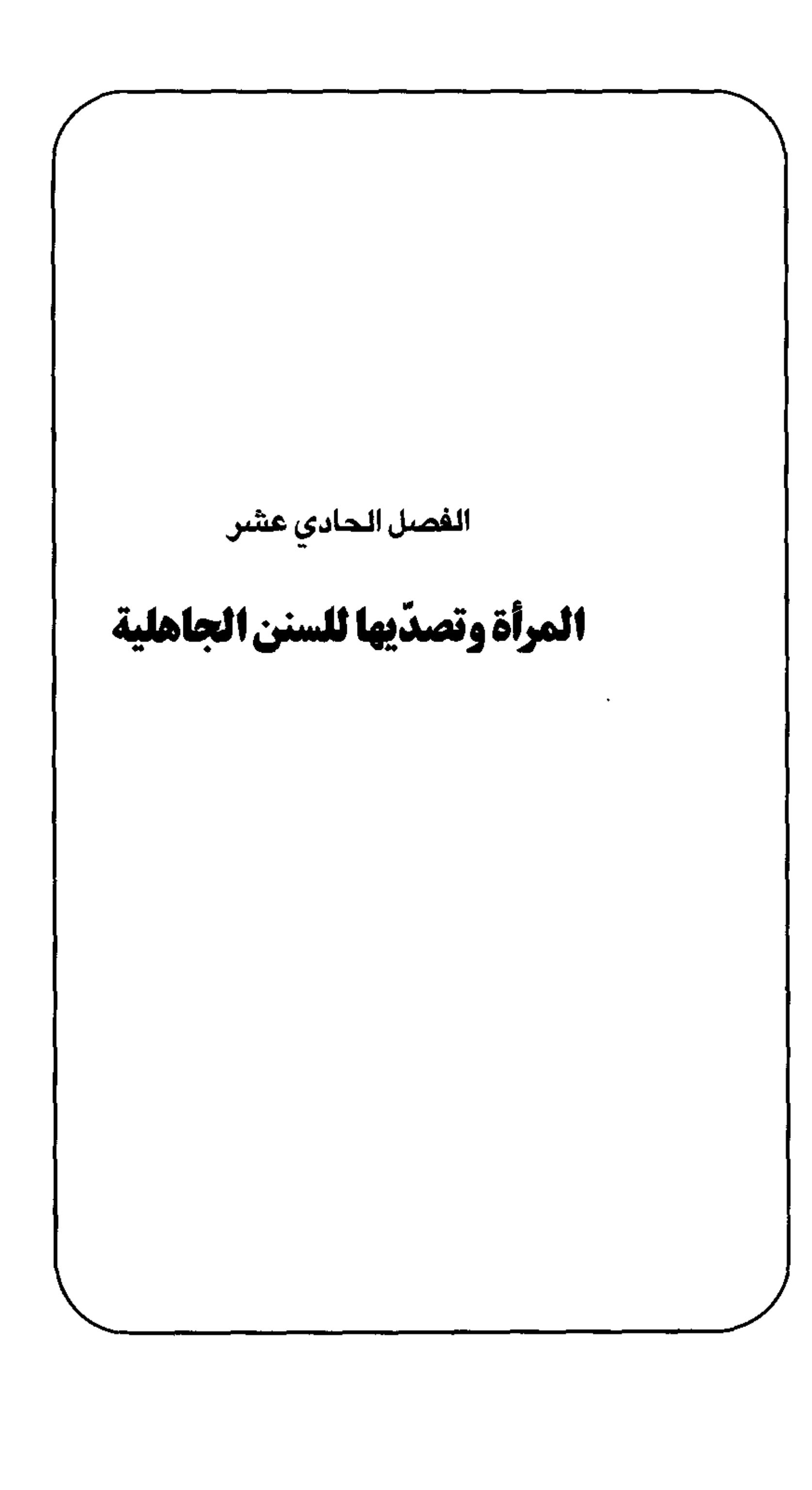
ويشير القرآن الكريم في آخر السورة نفسها إلىٰ امرأتي لوط ونوح كمثالين للخيانة والخبث، فهما كانتا في بيت النبوّة ولكن **﴿لَم يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللّهِ شَـيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النّارَ مَعَ الدّاخِلِينَ ﴾**، كما أشار القرآن الكريم إلىٰ آسية زوجة فـرعون التي كانت مثالاً للإيمان والتصدّي لطغيان زوجها وهي تسكن في معقل الكفر. كل هذه الأمثلة جاء بها القرآن الكريم لكي تكون عبرة لزوجـات النـبي اللاتـي تآمرن وتظاهرن في بيت النبوّة، وتكون درساً لهن ولغيرهن من النساء[٢] **﴿وَاللّهُ يَقُولُ الحَقَّ ﴾**[٣].

---

(١) التحريم ٦٦/٥.

(٢) يقول صاحب تفسير الكشاف: إنّ المثالين اللذين جاء بهما القرآن الكريم كناية عن زوجتي الرسولﷺ الذي تعرّضت لهما السورة في أولها. انظر تفسير الكشاف ٤/١٣١.

(٣) الأحزاب ٣٣/٤.



الفصل الحادي عشر

المرأة وتصدّيها للسنن الجاهلية

المرأة وتصدّيها للسنن الجاهلية

منذ أن ظهر الإنسان إلىٰ الوجود ووطئ برجليه هذه الأرض، لم يُترك للحظة واحدة في تية وعبث من حياته، بل قبل أن يعرف معنىٰ الوجود خُلق له كلّ شيء ليعينه علىٰ أن يصبح كائناً حياً، كما أُودعت فيه قوىً تُسخّر له كلّ شيء يرقىٰ به إلى الكمال الإنساني المنشود.

كما تمّ اختيار نماذج بشرية سامية قبل أن يُخلق الانسان لكي تمنحه قوّة التصدّي لكلّ شرّ يعترض طريقة، ولتتذوق هذه النماذج الحقّ والحقيقة بنفسها وتُذيقها للآخرين، ثم تفدي نفسها من أجل هداية البشرية.

والأنبياء والأئمة والأوصياء الربانيّون هم بشر من هذا النوع، سَمَت بالعمل أرواحهم لتصل الىٰ معدن الوجود، وتتخلّق بأخلاق اللّه لتصبح مشعلاً في طريق هداية الانسان وحُجةً عليه، وقد ذابوا في اللّه وبلّغوا كلّ واجب أُمرُوا به وتلّقوهُ منه دون امتناع ووجل من أيّ قوّة كانت سوىٰ اللّه ﴿**الّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللّـهِ ويَخْشَوْنَهُ وَلاَيَخْشَوْنَ أحَداً إلّا اللّهَ**﴾[1].

وكان هؤلاء العظماء أشفق علىٰ الإنسان من نفسه في سبيل هدايته، وكانوا يعلمون سمو الروح الإنسانية بعد أن لامسوا الحقيقة؛ لذلك انتابهم الحزن كُلّما

(١) الأحزاب ٣٣/٣٩.

رأوا الضلالة تنهش هذا الكائن البشري: ﴿لَعَلَّك بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[١].

كما أسكر هؤلاء القدّيسين شغفُهم بالجمال الإلـهي وهم غرقىٰ في بحر هداية البشر، و(ليس للهوىٰ نهي عليهم ولا أمر)، وما للنفس الأمّارة فيهم طريق ولا وكر، و ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَىٰ * إن هُوَ إلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[٢].

وتحمّل هؤلاء الأدلّاء الأزكياء المعصومون مسؤولية هداية البشر دون أن تخطر ببالهم شائبة الذنب، وقطعوا هذا الطريق المحفوف بالمخاطر بأقدام ثابتة رصينة لا تأخذهم في اللّه لومة لائم ولا تُهمة ناقم وظالم، لم يعيروا للدنيا وما فيها وزناً، وهم طاعة محض للّه وأوامره، ﴿وَلَو تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِاليَمِينِ * ثُمّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِينَ﴾[٣].

وليس لأيّ إنسان أن يشكر نعمة وجود هؤلاء الأصفياء إلّا بعد أن يعرف منزلتهم وشأنهم وقدر كلامهم وكلماتهم الصادرة عن الوحي، ويلمس حقيقتهم الوجودية؛ لكي ينال ما قَدّر اللّه له.

لقد أوردنا هذه المقدمة المختصرة لكي نستلهم طرق الهداية من كلمات هؤلاء الأنبياء والأولياء ومواقفهم التي سنستعرضها في هذا الفصل، ولكي نتعرّف مقامَهم الشامخ، ونَدرأ عنهم ما قاله المتخرّصون في حقهِم، ولتكون ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إلَىٰ الّذِينَ عَاهَدتُم مِنَ المُشْرِكِينَ﴾[٤].

تصدّي الرسول الأكرمﷺ للسنن الجاهلية

إنّ قصة زينب بنت جحش زوجة زيد بن حارثة دعي رسول اللّه تعدّ نموذجاً

(١) الشعراء ٣/٤٦.
(٢) النجم ٢/٥٣ ـ ٤.
(٣) الحاقة ٤٤/٦٩ ـ ٤٦.
(٤) التوبة ١/٩.

لتصدّي الرسالات للسنن الجاهلية، وهي واضحة وضوح الشمس في كبد السماء، ولكن قادة النفاق والكفر حرّفوا التاريخ وشوهوا الحقائق الىٰ درجة لم يصدق أحد بالحقيقة لولا نصّ القرآن الكريم وبيانه الواضح لها.

والخوض في جزئيات هذه القصّة وتدقيق النظر في دور الأنبياء ورسالتهم وتخرّصات المنافقين والكفّار والظانين باللّه ظنّ السوء، يكشف لنا بشكل ملموس ما عاناه النبيﷺ والمؤمنون من هذه الأقاويل والتخرّصات منذ صدر الإسلام وإلىٰ الآن.

طُرحت هذه القصّة في سورة الأحزاب بطريقة تجرّنا لامحالة إلىٰ التدبّر والتدقيق في البحوث التي تناولتها، ففي الآيات الثلاث الأُولىٰ يأمر اللّه نبيّه باتّباع ما يُوحىٰ إليه من ربّه وعدم الاكتراث بأقوال المنافقين والكافرين وعدم الالتفات إليهم والاعتماد على اللّه والتوكل عليه: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللّهَ وَلَا تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ إنّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً * واتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إلَيكَ مِن رَبِّكَ إنّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً * وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللّهِ وَكَفَىٰ بِاللّهِ وَكِيلاً﴾**(١).

إنّ بيان هذه الأُمور في الآيات الثلاث خطاباً للنبي يؤكّد أهمية الموضوعات التي تريد هذه السورة أن تتناولها، فالقوانين والسنن الخاطئة التي كانت سائدة ومتغلغلة في أعماق المجتمع العربي حينذاك لقرون طويلة، هي ممّا لابدّ للنبيﷺ أن يتصدّى له ويقضي عليه ويفصله عن صميم ذلك المجتمع.

ولم يكن هذا بالأمر الهيّن والسهل، خاصّة وإنّ سياق الآيات يشير إلىٰ أنّ المنافقين والكفار بعد اندحارهم أمام المسلمين وضعوا السلاح جانباً ولجؤوا إلىٰ الاحتيال وإلقاء الشائعات بين الناس في تصدّيهم للحقّ والوقوف بوجه رسول اللّهﷺ ورسالته.

وبناء عليه فإنّ محق هذه السنن القديمة والخاطئة والقضاء عليها يستوجب تمهيدات كثيرة لتأخذ مكانها في قلوب المؤمنين، ومن ثم ترسيخها في

---

(١) الأحزاب ٣٣/١ ـ ٣.

المجتمع الإسلامي؛ ولذلك فإلىٰ جانب بيان هذه الأهداف تذكّر آيات السورة كراراً بدور الأنبياء ورسالتهم وما أخذ اللّه منهم من مواثيق، كما تؤكد علىٰ عدم الخوف من أي شخص سوى اللّه، وعلىٰ مكانة المؤمنين عنده بـالرغم مـن تـعرّضهم للامتحان والفتنة باستمرار. أجل تذكّر السورة بهذه الأُمور لكي تطهّر الإذهان من كلّ إيهام.

سنة التبنّي الجاهلية

سنة التبنّي كانت إحدى القوانين الرائجة والراسخة منذ القدم بين العرب في العهد الجاهلي، وبموجبها كان الابن المتبنّىٰ يتمتّع بالحقوق والمزايا التي يتمتّع بها الابن الحقيقي والنسبي من حـيث الإرث والنسب وغـير ذلك. ولم يـتمكن العرب من التخلّص منها.

وكان لا بدّ من استبدالها بقانون حقيقي وواقـعي؛ إذ إنّ بـقاء هـذه السُـنّة الخاطئة كان يسبب مشاكل وعراقيل ليس في عهد الرسولﷺ فحسب بل علىٰ مستوىٰ الاجيال القادمة لو لم يتمّ اقتلاعها وتـغييرها؛ ولذلك اتّـخذ الإسـلام الحنيف موقفاً صريحاً منها، واعتبر السكوت والركون إليها أمراً محالاً، فلابدّ من نسخها والقضاء عليها.

ولم يكن سوىٰ الرسول الأكـرمﷺ مـن يـتملك الشـجاعة والعـزم والإرادة والتوكّل علىٰ اللّه للقيام بهذه التضحية، وقد أعطىٰﷺ موثقاً وعهداً للّه بإبلاغ ما يؤمر به، فأُمر في هذه السورة بإبلاغ الناس بكلام الوحي والإعلان عن نسخ هذه السنّة الجاهلية **﴿ومَا جَعَلَ أدْعِيَاءَكُمْ أبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأفواهِكُمْ وَاللّهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ * ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أقْسَـطُ عِـنْدَ اللّـهِ فَـإن لَـمْ تَـعْلَمُوا آبَـاءَهُم فَإخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوالِيكُم وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أخْطَأتُمْ بِهِ وَلَكِـنْ مَـا تَـعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾**[1]. ففي هاتين الآيتين مايلي:

---

(١) الأحزاب ٣٣/٤ ـ ٥.

أولاً: نقض صريح لقانون اعتباري كان رائجاً وسائداً في ذلك المجتمع.

ثانياً: إعلان للجميع بأن يسمّوا كل ابن باسم أبيه، وإذا كان أبوه مجهولاً لا يعلمه أحد فعليهم بموآخاته في الدين والمودّة إليه.

ثالثاً: أمر بالالتزام بهذا القانون الحقيقي وعدم اتّخاذ موقف سلبي منه عمداً، ومن كان علىٰ خطأ فعليه أن يتوب واللّه غفور رحيم.

ومن جهة أُخرىٰ، وبما أنّ هذا القانون ـ كما يبدو ـ لم يأخذ مكانه في قلوب الكثيرين، نجد أنّ آية أُخرى من السورة نفسها تتعرّض إلىٰ هذا الموضوع من زاوية ثانية فتقول: **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللّهُ ورَسُولُهُ أمْراً أن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً﴾**[1]. فبيان عدم الخيار لأيّ مؤمن ومؤمنة مقابل القرار الذي يتّخذه اللّه والرسول من أجل مصلحة البشرية والأمر بالالتزام بذلك، يدلّ علىٰ أنّ هذه السنة الخاطئة كانت متشرّبة في أوساط ذلك المجتمع، ولابدّ من التصدّي والوقوف أمامها.

والنّبي الأكرمﷺ هو النموذج الأمثل والأُسوة الحسنة للعالمين، وكان قد تبنّىٰ زيداً من قبل، فيحب عليه أن يكون أوّل من يرفض السنّة الجاهلية القديمة ويعمل بالقانون الجديد؛ ليثبت للجميع أنّ الابن المتبنىٰ ليس كالابن الحقيقي ولا تنطبق عليه القوانين ذاتها.

ولكن كيف يتمّ هذا الامر؟ الآيات الآتية تبين ذلك.

زواج زيد وزينب وطلاقهما

﴿إذْ تَقُولُ للّذِي أنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِ وَأنْعَمْتَ عَلَيْهِ أمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتّقِ اللّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللّهُ مُبدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ واللّهُ أحَقُّ أن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَي لَا يَكُونَ عَلَىٰ المُؤمِنِينَ حَرَجٌ فِي أزْوَاجِ أدْعِيَائِهِمْ اذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً

---

(١) الأحزاب ٣٣/٣٦.

وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾[١].

كان زيد قد تزوج من ابنة عمّة الرسول الأكرمﷺ خلافاً للشؤونات الاجتماعية السائدة في الزواج وقتئذ؛ لكي يعلم الجميع أنّه ليس هناك فرق بين أبناء البشر عبيدهم وأحرارهم إلّا بالتقوىٰ وجهاد النفس، ولكنّ زيداً كان يعاني من بعض المتاعب، ولوّح صدر الآية ضمنياً إلى أنّه شكا لرسول اللّه من زوجته في مرّات عديدة[٢].

والرسول كان يعلم بعدم وجود توافق بين هذين الزوجين وسوف يؤول أمرهما إلىٰ الطلاق، كما كان يعلم[٣] أيضاً بأنّ اللّه سيأمره بالزواج من زينب من أجل القضاء علىٰ سنّة التبنّي ونسخ هذا القانون الجاهلي، غير أنّه يكشف عن هذا السرّ؛ لأنّه كان يعلم أنّ مجتمعه يتّسع صدره لتقبّلهِ، وسوف يكون الأمر مداراً للحديث بين الناس وموضعاً للشك والاجتراء علىٰ النبي دون أن يردعهم منصب النبوّة عن هذه الأقاويل، وهوﷺ كان يرفّ قلبه حبّاً لقومه بل أكثر حبّاً لهم من أنفسهم؛ لذلك خاف أن يسبّب هذا الأمر ضعفاً في إيمانهم، فقال لزيد **﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾**[٤] أي لا تطلّقها واصبر علىٰ ما تعانيه من مشاكل.

موقع الروايات

إنّ سياق الآيات الواردة يتطابق مع هذا الرأي الذي ذكرناه، كما أنّ بعض الروايات يتّفق في المضمون مع الرأي المذكور، حيث يُروىٰ عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «ثمّ أنّهما تشاجرا في شيء إلىٰ رسول اللّهﷺ فنظر إليها النبي

---

(١) الأحزاب ٣٣/٣٧.

(٢) يقول صاحب تفسير الميزان: إن ﴿أمسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ كناية عن جملة: لا تطلقها؛ لأن زيداً كان يريد طلاقها باصرار. انظر تفسير الميزان ١٦/٥٠٣.

(٣) الرأي المشهور والصحيح في كيفية نزول القرآن وفقاً للآيات الواردة في هذا المجال: أنّ القرآن نزل مرّتين علىٰ قلب الرسول: مرّة بشكل دفعي: ﴿إنّا أنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ ﴾ القدر ٩٧/١، ومرّة أُخرىٰ بشكل تدريجي: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ الإسراء ١٧/١٠٦.

(٤) أمسك الشيء على نفسه أي حبسه من التصرّف فيه.

فاعجبته، فقال زيد: يا رسول اللّه تأذن لي في طلاقها، فـإن فـيها كـبراً وإنّـها لتؤذيني بلسانها، فقال رسول اللّهﷺ: اتّق اللّه وأمسك عليك زوجك، وأحسـن إليها. ثم إنّ زيداً طلّقها وانقضت عدّتها، فأنزل اللّه نكاحها علىٰ رسول اللّه»(١).

يشير نصّ الرواية إلىٰ أن سبب طلاق زيد لزينب هو وجود الخلاف بـينهما، وقد شكا زيد لرسول اللّه من كبر زينب ولسانها الجارح وخلافها معه. إذن لم نجد في نصّ الآية والرواية المؤيدة له دليلاً آخر علىٰ الطلاق غير الذي ذكرناه.

ولابد من الإشارة إلىٰ أنّ هناك روايات في كـتب الحـديث والتـفسير نـقلت قصصاً لاتليق بالنبي وشأنه ـ مع الاسف ـ ولأنها تتعارض مع الآيـة المـذكورة فعلينا ضربها عرض الحائط وعدم الاعتناء عملاً بما نقل عن الأئمة الأطهار عليهم السلام حيث جاء عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام القول: «لا يصدّق عـلينا إلّا مـا يوافق كتاب اللّه وسنّة نبيّه»(٢).

كما رويعن الرسول ﷺ أنّه قال: «ما جاءكم عنّي ما لايوافـق القـرآن فـلم أقله»(٣) فالحديث يشير بصراحة إلىٰ أن سنة النبيﷺ لن تخالف القرآن قط.

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال لمحمد بن مسلم: «يامحمد ما جاءك في رواية ـ من برّ أو فاجر ـ يوافق القرآن فخذ به، وما جاءك في رواية ـ من بـرّ أو فاجر ـ يخالف القرآن فلا تأخذ به»(٤).

تؤكد كل هذه الروايات ويظهر من مضمونها أنّه كلّ ما يصل إلينا من أحاديث وروايات عن النبي الأكرمﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام لايمكن التمسّك بها إلا ما وافق نصّ القرآن الكريم، وتلك الروايات التي وردت عن زيد وزينب تخالف نصّ القرآن الكريم خلافاً بيّناً بنحو لا يليق الوقوف عندها وبحثها؛ ومن اجل ذلك غضضنا الطرف عنها ولم نوردها في هذا الكتاب.

---

(١) بحار الأنوار ٢٢/٢١٨، الحديث ٥٢.

(٢) فوائد الأصول /٦٨، وبحار الأنوار ٢/٢٤٤.

(٣) فوائد الأصول /٦٨.

(٤) بحار الأنوار ٢/٢٢٤.

ويكشف اللّه سبحانه وتعالىٰ عن السرّ الذي أخفاه رسولهﷺ في صدره ولم يُظهره، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿**وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَىٰ النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَي لَا يَكُونَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً**﴾[1].

زواج النبيﷺ بزينب

تصرّح الآية الكريمة بألفاظ واضحة دون أي إبهام بأنّ الدافع لزواج النبيﷺ بزينب علىٰ الرغم من خلافها مع زيد لم يكن سوىٰ سلامة المجتمع الاسلامي ونسخ السنن الجاهلية الخاطئة غير الإلـهية، ولم يكن زواجه منها بدافع شخصي ولا ـ العياذ باللّه ـ بدافع من هوىٰ النفس، فقرار الزواج لم يكن متّخذاً ولا صادراً من جانب الرسولﷺ بل اللّه هو الذي أمرَ بذلك حيث قال: ﴿**زَوَّجْنَاكَهَا**﴾[2] و﴿**كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً**﴾؛ لأن مصلحة المجتمع البشري مقدّمة علىٰ المصالح الفردية، والأصح: المصلحة الفردية يُضحّىٰ بها من أجل مصلحة المجتمع.

ثم يقول عزّ من قائل: ﴿**مَا كَانَ عَلَىٰ النَّبِيِّ مِن حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً**﴾[3] فسنّة اللّه يجب أن تُجرىٰ في المجتمع لكي لا تقع البشرية في حرج، ولكي تصل إلىٰ العدالة وعبودية اللّه

---

(١) الأحزاب ٣٣/٣٧.

(٢) قال الإمام الرضا في هذا الخصوص: إنّ اللّه عرّف نبيّه أسماء أزواجه في دار الدنيا، وأسماء أزواجه في الآخرة، وأنّهن أمّهات المُؤمنين، وإحداهن سمّىٰ له زينب بنت جحش وهي يومئذٍ تحت زيد بن حارثة فأخفىﷺ اسمها في نفسه ولم يبده؛ لكي لايقول أحد من المنافقين: إنّه قال في امرأة في بيت رجل: إنها إحدى أزواجه من أمّهات المؤمنين، وخشىٰ قول المنافقين، فقال اللّه تعالىٰ: ﴿**وتَخْشَىٰ النَّاسَ واللَّهُ أحقُّ أنْ تَخْشَاهُ**﴾ يعني في نفسك، فإنّ اللّه ما تولّىٰ تزويج أحد من خلقه إلّا تزويج حواء من آدم وزينب من رسول اللّهﷺ بقوله: ﴿**فَلَمّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطراً زَوّجْنَاكَهَا**﴾ وفاطمةعليها السلام من عليعليه السلام. انظر بحار الأنوار ١١/٧٤.

(٣) الأحزاب ٣٣/٣٨.

الذي خلق الخلق من أجل أن يعبدوه، وليس على الرسول من حرج في تـنفيذ أوامر الوحي، بل يجب عليه تطبيق ما يؤمر به ولا تأخذه في اللّه لومـة لائـم، وعلىٰ هذا الأساس تزوّج الرسول بزينب ونقض بهذا الزواج سنّة الجـاهلية فـي الأدعياء.

أمّا زينب التي أخفقت في زواجها الأول فلم يطقها أحدٌ إلّا رسول اللّه حيث قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: قالت زينب بنت جحش لرسول اللّـه صلى الله عليه وآله: لا تـعدل وأنت نبي؟! فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: تربت يداك إذا لم أعدل فـمن يـعدل؟ فـقالت زينب: دعوت اللّه يارسول اللّه ليقطع يدي؟ فقال: لا ولكن لتتربان، فقالت: إنّك إن طلقتنا وجدنا في قومنا أكفاءنا يتزوجوننا. فاحتبس الوحي عـن النـبي ٢٩ ليلة[١].

ويستأنف الإمام الباقر عليه السلام قوله: لقد أنف اللّه لرسوله من قول زينب وأنـزل هذه الآية: **﴿يَا أَيّها النَّبِيّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنيَا وَزِينَتَهَا فَـتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً * وإن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإنَّ اللّهَ أعدّ للمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أجراً عَظِيماً﴾**[٢] وبعد نزول هذه الآية اخترن نساء النبي صلى الله عليه وآله اللّه ورسوله، ولو أنهنّ اخترن أنفسهن لطلّقهن الرسول صلى الله عليه وآله[٣].

ونستنتج من هذا الحديث أنّ زينب لم تكن زوجة محبوبة عند رسول اللّه صلى الله عليه وآله، فكيف يتّهمه الأعداء والمنافقون بهذه التّهم ويتخرّصون عليه حتىٰ نزلت آيـة: **﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أبا أحدٍ مِن رِجَالِكُمْ وَلَكِن رَسُولَ اللّهِ وَخَاتَمَ النّبِيينَ وَكَانَ اللّهُ بِكلّ شَيءٍ عَلِيماً﴾**[٤].

وفي هذه السورة يذكر اللّه سبحانه وتعالىٰ المـنافقين والكـفار الذيـن آذوا

---

(١) كان انقطاع الوحي بسبب الغضب الإلهي، فبعد تنزيه ساحة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عاد الوحي ثـانية وجـاء النداء: إن هذا الانقطاع كان لسبب كلام تلك المرأة. انظر كنز الدقائق ١٠/٣٦٤.

(٢) الأحزاب ٣٣/٢٨ ـ ٢٩.

(٣) بحار الأنوار ٢٢/٢١٩.

(٤) الأحزاب ٣٣/٤٠.

رسول اللّه في خمسة مواضع، ويلعنهم ويعدهم ناراً وجحيماً، كما ينهىٰ اللّه المؤمنين من مغبّة ايذاء رسول اللّهﷺ كالمنافقين والكفّار واليهود الذين آذوا موسىٰ عليه السلام من قبل.

كما تشير آيات هذه السورة إلىٰ أنّ رسول اللّهﷺ ثَقُل عليه هذا الأمر، أي الزواج من زينب، ولكن اللّه ألهمه الصبر والعزم وسدّده ونصره.

الفصل الثاني عشر

المرأة مرآة الحق

المرأة مرآة الحق

منذ أن نفخ اللّه من روحه في جوف هذا الكائن البشري، ويسّر له الحـركة والتفتّح والسعي والظهور والإبداع إلىٰ أبعد الحدود بحيث يكـون مـظهراً مـن مظاهر اللّه علىٰ هذه الكرة الأرضية وتكون له قوّة تفوق قوّة الطبيعة ورقيّاً أبعد من ان يُتصوّر، وصار التاريخ مسرحاً لظهور القيم الإنسانية، ظـهر أنـاس لهـم طلعة كالشمس يمثّل كل واحد منهم جانباً مـن حـقيقة الانسـان الوجـودية؛ ليكونوا قدوة ونبراساً للأجيال القادمة بهم يقتدون وعلىٰ دربهم يسيرون.

والقرآن الكريم الذي حثّ علىٰ السير في الآثار والنظر في أحوال الذين خلو من قبل[1]، قدم نماذج بشرية سامية مثّل كلّ واحد منها جانباً خاصّاً كان بـارزاً فيه. وقد حاولنا في هذا الكتاب دراسة بعض الشخصيات النسوية فـي القـرآن الكريم وقدّمنا في كل جانب نـموذجاً: مـن هـذه النـماذج: كـالسمو الروحـي والمعنوي لمريمعليها السلام و علم ودراية بـلقيس، وحـضور النسـاء اللاتـي عـاصرن موسىٰ عليه السلام في المواقف الحاسمة، والحبّ المادي غـير المـهذّب عـند زليـخا، وشجاعة سارة ومرافقتها لزوجها إبراهيم عليه السلام، وصبر هاجر وصـمودها، فـتمييز ومعرفة هذه الصفات يتطلب تدبّراً ودقّة خاصّة، وبما أنّ كل كان لها بـروز فـي

(١) آل عمران٣/١٣٧، والأنعام٦/١١، والنحل ١٦/٣٦، والنمل ٢٧/٦٩.

جانب معين فإنّ الحديث عنها لم يكن أمراً صعباً.

ولكن كيف يمكن تعريف شخصية متشعّبة الجوانب، لها عظمتها الخاصّة بها، وتربّت تربية مثالية، ولها ظهور في كلّ الأبعاد الإنسانية، وحضور في كل المجالات؟

عندما نتحدّث عن مثل هذه الشخصية فإنّ الاعجاب والحبّ يمتزجان مع الشوق والعجز، وتستبق الحيرة التعجب وبالعكس؛ لأنّ الحديث هذه المرّة سيكون عن عذراء بطهارة القدّيسة مريم: «أنّا سميت فاطمة بنت محمد (طاهرة) لطهارتها من كلّ دنس وطهارتها من كل رفث»[١].

وكبلقيس في علمها ودرايتها «وأنّا من بحر علمي يغترفون»[٢].

وكان لها حضور في المواقف الحاسمة كيوم المباهلة: **﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مَن بَعدِ مَاجَاءَكَ مِنْ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوا نَدْعُ أبنَاءَنا وَأبنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأنفُسَنَا وَأنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَةَ اللّهِ عَلَىٰ الكَاذِبِينَ﴾**[٣].

وهي في حبّها وعواطفها نموذج لا يقاس حيث قالت في حقّ والدها:

لا خير بعدك في الحياة وإنّما   أبكي مَخافة أن تطول حياتي[٤]

وهي كسارة وقفت بشجاعة إلىٰ جانب زوجها في كثير من المواقف: خرج علي كرم اللّه وجهه بعد بيعة أبي بكر يحمل فاطمة بنت رسول اللّهﷺ علىٰ دابّة ليلاً في مجالس الأنصار تسألهم النصرة...[٥].

وكانت كهاجر في صبرها واستقامتها «... ولقد لصق بطنها بظهرها وغارت عيناها من شدّة الجوع»[٦].

---

(١) فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفىٰ/١١.

(٢) المصدر نفسه/٢٨٧.

(٣) آل عمران ٣/٦١.

(٤) فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفىٰ/٣١٢.

(٥) المصدر نفسه/٣١٧.

(٦) حديث طويل عن ابن عباس في قصة وشأن نزول آية ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ...﴾ الإنسان ٧/٧٦. انظر المصدر السابق/٢٥٧.

وأنّى لنا أن نستطيع أداء حقها؟ فكُلّها حسن، بل كانت حقيقته وعينه حيث قال أبوها في حقها: «ولو كان الحسن شخصاً لكان فاطمة، بل هي أعظم»[١].

بل أكثر من ذلك: فهي خير أهل الأرض قاطبة نسباً وشرفاً وكرامةً: «إن فاطمة ابنتي خير أهل الأرض عنصراً وشرفاً وكرماً»[٢].

بل هي من نفس النور الذي خُلق منه محمدﷺ الذي هو مظهر الجمال الإلهي: «يامحمد، إنّي خلقتك وخلقت علياً وفاطمة والحسن والحسين من نوري»[٣] والحديث القدسي يذهب إلىٰ أقصى من ذلك: فهي غاية الوجود والهدف من خلق العالم وما فيه من سماء وأرض وإنس وجن: «يا أحمد لولاك لما خلقت الأفلاك، ولولا علي لما خلقتك، ولولا فاطمة لما خلقتكما»[٤].

وكل هذا يدلّ علىٰ أنّ الحديث عن مثل هذه العذراء يتطلّب ذهناً أوسع من دائرة البشر، حيث إنّ اسمها وذكرها وسيرتها أثارت الإعجاب والتحسين في نفوس كلّ من سمع عنها من مُحبّ أو مبغض وعامّ وخاصّ، فكيف لنا أن نحدّدها في هذه السطور؟! بل يجب أن نعرّفها بما عرّفها اللّه ورسوله به، ونستلهم منهم طريقاً لمعرفتها!

وبالرغم من ذلك فإن تبديل تلك المعاني السامية إلىٰ ألفاظ يعتبر وهناً وتضعيفاً للحقائق التي لا تطال؛ ولذلك فلا نسمح لأنفسنا أن نلوّث ساحتها القدسية بأكثر من هذا، ونبدأ باستعراض الآيات التي نزلت في حقّها.

فاطمة عليها السلام مصداق الآيات القرآنية

كثيرة هي الآيات التي نزلت في فاطمة الزهراء عليها السلام كما أشارت الروايات إلىٰ ذلك، نذكر هنا مجموعة منها: الآية٦ من سورة الفاتحة، و٣٧ من سورة البقرة،

---

(١) المصدر السابق/١٠.
(٢) المصدر السابق/١٠.
(٣) فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفىٰ/٤٠.
(٤) المصدر نفسه/٩.

و٦١ من سورة آل عمران، و٢٤ من سورة إبراهيم، و٥٧ من سورة الإسراء، و١١١ من سورة المؤمنون، و٣٥ من سورة النور، و١٣٢ من سورة طه، ٥٤و٧٤ سورة الفرقان، و٣٣ من سورة الاحزاب،٢٣ من سورة الشورىٰ، و١١ من سورة محمد، و١٧ من سورة الذاريات، و٢١ من سورة الطور، و١٩ ـ ٢٢ من سورة الرحمن، و٨ من سورة الحشر، و٨ من سورة الدهر، و٣ـ ٤ من سورة القدر[١]، و٢٩ و٣٨ من سورة المدثر، و١٣٧ و١٩٥ من سورة آل عمران، و٥٧ من سورة الاحزاب، و٣ ـ ٧ من سورة الليل، و١١٥ من سورة طه، و٩ من سورة المزمل، و١٠٢ من سورة الانبياء، و١ من سورة القدر[٢].

وسنختار من هذه الآيات ما لها دلالة أوضح من غيرها بحيث لا تحتاج إلىٰ تأويل وتفسير لإدراك دلالتها وظاهر ألفاظها يغني عن ذلك، أو ما صرّحت الأحاديث والروايات المتّفق عليها من كلا الفريقين للشيعة والسنة بشأن نزولها في حقّ هذه السيدة الجليلة.

قال تعالىٰ في سورة آل عمران: **﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعدِ مَاجَاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوا نَدْعُ أَبْنَاءَنا وَأَبناءكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وأنفُسَكُمْ ثُمّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَةَ اللّهِ عَلَىٰ الكَاذِبِينَ﴾**[٣].

كما تعلم عزيزي القارئ أنّ هذه الآية هي آية المباهلة[٤] نزلت في مباهلة بين فريق من نصارى نجران والنبي الأكرمﷺ، فالنصارىٰ كانوا يحتجّون علىٰ النبي بكيفية خلق المسيح عليه السلام علىٰ أنه إله، وبالرغم من نزول ردهم باستدلال منطقي قويم في آية: **﴿إِنّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ**

---

(١) فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفىٰ/٣٦ - ٢٩.

(٢) بحار الانوار ٢٣/٤٣ ـ ٦٥.

(٣) آل عمران ٣/٦١.

(٤) البَهلة (بالضم والفتح): اللعنة وأصله الترك. وقولهم: بُهلت الناقة اذا تركتها بالاصرار. والابتهال أن تقدّم يدك وتبسطها عند الدمعة. انظر كنز الدقائق ١١٨/٣.

فَيَكُونُ ﴾[١] إلّا أنّهم رفضوا قبول ذلك وأصروا علىٰ كلامهم، وحينذاك نزلت هذه الآية التي أمر اللّه فيها النبيﷺ بدعوتهم إلىٰ المباهلة إذا لم يـذعنوا للـحقّ، وليحكم اللّه بين الفريقين ويجعل لعنته وسخطه علىٰ الكاذب منهم.

فقبلوا بذلك وقالوا أنصفت. فلمّا رجعوا إلىٰ منازلهم قال رؤساؤهم: إن باهلنا بقومه باهلناه فإنّه ليس نبياً، وإن باهلنا بأهل بيته خاصّة فلا نباهله، فإنّه لايقدم على أهل بيته إلّا وهو صادق. فلّما أصبحوا جاؤوا إلىٰ رسول اللّهﷺ ومعه أمير المؤمنين عليه السلام وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فقال النصارىٰ: من هؤلاء فـقيل لهم : إن هذا ابن عمه ووصيّه وختنه علي بن ابي طالب وهذه بنته فاطمة وهذان ابناه الحسن والحسين عليهما السلام. فعرف[٢] النصارىٰ وقالوا لرسول اللّهﷺ: نـعطيك الرضا فاعفنا عن المباهلة. فصالحهم رسول اللّه ﷺ علىٰ الجزية وانصرفوا[٣].

حضور أهل البيت عليهم السلام في المباهلة

تفيد الأحاديث المتواترة والمشهورة بين الشيعة والسنة بما يشبه الاجماع والاتّفاق أنّه جاء رسول اللّهﷺ في يوم المـباهلة ومـعه الحسـن والحسـين وفاطمة وعلي عليهم السلام إلىٰ المكان الموعود.

والجدير بالذكر والاهتمام هو ورود الروايات من الفريقين في شأن نزول هذه الآية، فصاحب تفسير الكشاف ـ وهو من علماء السنة ـ ينقل رواية في تفسير هذه الآية هذا مضمونها: ثم جاء النصارىٰ إلىٰ رسـول اللّـهﷺ وكـان يـحمل الحسين علىٰ صدره والحسن في يده وفاطمة خلفه وعلي خلف فاطمة، وهـو يقول: اذا دعوتُ فقولوا آمين[٤].

وينقل التفسير الأمثل من كتاب إحقاق الحق رواياتٍ كثيرة من مصادر أهـل

(١) آل عمران ٣/٥٩.
(٢) في المصدر: فعرفوا.
(٣) تفسير كنز الدقائق٣ / ١١٦ ـ ١١٧.
(٤) الكشاف ١/٤٣٤.

السنة كلّها تتّفق على أن الذين حضروا المباهلة في الآية المذكورة هم أهل البيت: أي الخمسة الطيّبون: رسول اللّه ﷺ والإمام الحسن والإمام الحسين وفاطمة الزهراء والإمام علي عليهم السلام.

كما أورد العلامة الطباطبائي في تفسيره أحاديث كثيرة عن الشيعة والسنة وكلّهم يتّفقون بالرأي على الذي نقلناه، مّما يفنّد كلّ الشبهات الواردة بهذا الخصوص ويجيب عليها بمنطق سديد[١].

وقال الشيخ الطبرسي في تفسيره: أجمع المفسّرون على أنّ المراد من ﴿أَبْنَاءَنَا﴾: الحسن والحسين عليهما السلام[٢].

وقال في مكان آخر: اتّفق المفسّرون على أنّ المراد من ﴿نِسَاءَنا﴾ هي فاطمة عليها السلام؛ لأن في المباهلة لم يحضر أحد سواها من النساء[٣].

فاطمة الزهراء عليها السلام هي المصداق الوحيد لـ﴿نِسَاءَنا﴾

نتابع البحث في آية المباهلة التي تبين شأن وعظمة هذه السيّدة الجليلة نظراً للإجماع على أنّ الرسول الأكرم ﷺ لم يصطحب معه للمباهلة سوى الصدّيقة فاطمة الزهراء عليها السلام.

والمباهلة كما تمّت الإشارة إليها تعتبر من اللحظات الحسّاسة في تاريخ الإسلام. ولا شك أنّ الحضور في ذلك الميدان وتلك اللحظات تتطلب إيماناً واعتقاداً خاصّاً، ومجرّد الشك ولو للحظة واحدة يؤثر سلباً على مصير المسلمين؛ لأن المباهلة كما قلنا هي دعاء وتضرّع وابتهال إلى اللّه سبحانه وتعالى بإظهار الحقّ ونصرة أهله وإدحاض الباطل وهلاك أهله.

وصاحب الحقّ يجب أن يكون راسخاً في اعتقاده، قوياً في إيمانه، واليقين

---

(١) تفسير الميزان ٣/ ٣٩٤-٤١٧.

(٢) مجمع البيان، المجلد١، الجزء٢/ ٤٥٢.

(٣) المصدر نفسه/ ٤٥٣.

يملأ وجوده ولا يزلزله شيء؛ لكي يستجاب دعاؤه، وإذا حجب الدعاء ولم تنزل البلية على الطرف المقابل ـ أي أنصار الباطل ـ يدلّ ذلك على وهن المبتهل، ومن ثمّ فضيحة أمره أمام الجميع؛ ولذلك فإن صاحب الحق يجب أن يتمتّع بسكينة واطمئنان عالٍ وتوكّل تامٍّ، وأن يكون في أعلى درجات اليقين.

ومن جهة أُخرى فإن الداعي والمبتهل يجب أن يكون محبوباً عند المدعو ـ اي اللّه سبحانه ـ لكي يظهر حقّه وينصره نصراً تاماً، فلو اصطحب الرسول ﷺ معه للمباهلة من لا يحبه اللّه ولا يستجيب دعاءه فإنّ ذلك يؤدي إلى فشله وهلاك نفسه ومن معه.

وعلى هذا الأساس فإنّ النبي ﷺ في هذا الظرف الحساس ـ الذي يُعدّ نقطة عطف في تاريخ الاسلام ورسالته ونجاحها مرهون به ـ لا يصطحب معه من النساء إلّا فاطمة الزهراء عليها السلام؛ وهل سبب هذا الاختيار يعود إلى أنّها هي لوحدها كانت بمنزلة أُمّة كما كان النبي إبراهيم عليه السلام[1]؟ أو أنها كانت أحبّ الناس اليه حيث قال في حقها: «فاطمة بضعة مني من آذاها فقد آذاني»[2]؟ أو لم يكن بين المسلمات من النساء امرأة كفاطمة تمثّل مصداقاً للإيمان وفي أعلى درجات اليقين بحيث تتمكّن أن تطأ قدماها ذلك الوادي المقدّس؟

والحقّ هو أنّ فاطمة عليها السلام كانت أُمّة لوحدها قانتة لله، وأحب الناس إلى رسول اللّه ﷺ، وهي الوحيدة من النساء التي بإمكانها أن تكمّل تلك المجموعة الطاهرة التي أعدّها نبي اللّه ﷺ للمباهلة والتي تعتقد كلّ الاعتقاد بحقانية الاسلام والمسلمين، وهي نقطة الوصل بين النبي ﷺ وأهل بيته وهم أولادها وبعلها.

وهذا الاختيار لفاطمة عليها السلام من جانب النبي ﷺ للحضور في هذه الحركة الاجتماعية العقائدية، وهذا الظرف الحاسم، يعتبر في حدّ ذاته درساً بليغاً للنساء المؤمنات العفيفات اللاتي يعتقدن بحقانية دينهن وطريقهن والسائرات

(١) ﴿إنّ إبراهيمَ كانَ أُمّةً قانِتاً للهِ...﴾ النحل ١٦/١٢٠.
(٢) فاطمة الزهراء عليها السلام من المهد إلى اللحد/ ٢٧٤.

علىٰ درب سيدة النساء فاطمة الزهراء عليها السلام للحضور بشجاعة في مثل هذه الميادين.

كما أنّ هذا الحضور للزهراء عليها السلام في المباهلة هو بمنزلة دليل قاطع وملموس علىٰ أنّ مكانتها وشأنها عند رسول اللّه صلى الله عليه وآله لا تصل اليه أي امرأة سواها بحيث أنّ المفسّرين يستدلون بآية المباهلة كدليل قاطع علىٰ أفضلية أهل بيت رسول اللّه صلى الله عليه وآله حيث يقول صاحب الكشاف: في هذه الآية أقوىٰ دليل علىٰ أفضلية أصحاب الكساء عليهم السلام[١].

عصمة الزهراء عليها السلام وطهارتها

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللّهَ وَرَسُولَهُ إنّما يُرِيدُ اللّهُ لِيُذهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[٢].

نبيّن في بادئ الأمر معنىٰ بعض الألفاظ ثم نبحث عن مصاديقها.

«الرجس»[٣]: الشيء القذر، وقد يصيب الإنسان من عدّة أوجه، فتارة تكون القذارة جسمية وظاهرية، كالنجاسات والأمراض والأسقام التي تصيب جسم الإنسان؛ وتارةً تكون معنوية وقلبية وعقلية كالخبائث الناتجة من الشرك كما قال سبحانه: **﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَىٰ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾**[٤]؛ وتارةً تكون شرعية أي أنّ الشرع قبّحها واعتبرها نجسة وخبيثة كقوله تعالى: **﴿إنّما الخَمْرُ وَالمَيْسَرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِن عَمَلِ الشَّيطَانِ﴾**[٥].

وبما أنّ الرجس له أنواع فإنّ الطهارة أيضاً لها جهات، كالطهارة من الاقذار الجسمية والطهارة من الأقذار العقلية والروحية، والطهارة من الأُمور التي

---

(١) الكشاف ١/٤٣٤.

(٢) الأحزاب ٣٣/٣٢.

(٣) مفردات الفاظ القرآن/١٨٨.

(٤) يونس ١٠/١٠٠.

(٥) المائدة ٥/٩٠.

يعتبرها الشرع قذرة. والطهارة من النوع الأول والثالث كما يريد اللّه سبحانه وتعالى لاتختصّ بجماعة دون أُخرىٰ بل تشمل المؤمنين كافّة كما قال تعالىٰ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنْتُمْ مَرضَى أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَو جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِن الْغَائِطِ أَو لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾**[١].

فلو أمعنا النظر في صدر الآية نجد أنّها ترتبط بالوضوء والغسل والتيمم، وأنّ الطهارة التي أشار إليها القرآن الكريم في آخر الآية ويريدها اللّه سبحانه هي الطهارة من الخبائث والقذارة والتلوّث الناشئ من أُمور توجب الغسل والوضوء والتيمم، وليست لها علاقة بالخبائث العقلية والروحية، وبما أنّ الخطاب في صدر الآية للمؤمنين كافّة **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** فإنّ هذه الطهارة لا تختصّ بفئة معيّنة من المؤمنين.

ثم يقول **﴿يُرِيدُ لِيَطَهِّرَكُمْ﴾** أي إنّ اللّه يريد أن يطهّر المؤمنين من خلال تشريع هذه القوانين والعمل بها، وعلىٰ هذا فإنّ كلّ من يطبقها تشمله هذه الإرادة الإلهية.

ولكن سياق الآية ٣٣ من سورة الأحزاب ـ التي سبقت الإشارة إليها ـ يدلّ على اختصاصها بجموعة معينّة (أهل البيت)، والمقصود بالطهارة فيها ليس التطهير من الأدران المادية والجسمية ولا الأقذار الشرعية، بل المراد هي الطهارة من التلوث والاقذار العقلية والروحية بإرادة اللّه عزّ وجل، وإرادة اللّه قرينة بالتحقق دائماً وليست مفصولة عنه: **﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾**[٢] وهنا تعلّقت إرادة اللّه بهذه المجموعة وهم أهل البيت عليهم السلام؛

---

(١) المائدة ٥/٦.

(٢) النحل ١٦/٤٠.

ليذهب عنهم كلّ رجس ويطهّرهم من كلّ دنس عقلي، وبـهذه الطـريقة وهـذه الدلالة الواضحة للآية تثبت العصمة لأهل بيت رسول اللّهﷺ.

من هم أهل البيت؟

يخاطب اللّه رسوله في الآية ٢٨ من سورة الأحزاب ليبلغ أمراً لزوجاته اللاتي عاتبنه لأُمور دنيوية، ففي مطلعها يذكّر اللّه سبحانه بموقعهن في المـجتمع، وبعد ذلك يخيّرهُن:

ـ بالبقاء مع رسول اللّهﷺ والحياة معه، وفي هذه الحالة يكون لهن أجرين: لاختيارهن هذا وعملهن الصالح، ولتحمّلهن القناعة والالتزام بـبيت النـبيﷺ ومتطلّباته.

ـ أو باختيار الحياة الدنيا ومتاعها وزينتها الماديّة، ومن ثم الطلاق من الرسول وتسريحهن سراحاً جميلاً.

كما حذّرهن سبحانه من إتيان الفاحشة أي الكبيرة الظاهر قـبحها، فـاللّه يضاعف لهن العذاب ضعفين؛ لأنّهن لسن كأحد النساء، فالعقاب الأوّل للكبيرة إن ارتكبتها، والثاني لأنّهن عاشرن رسول اللّه وسكنّ بيته ولم يستثمرن هذه الميزة وهذه الفرصة لإصلاح باطنهن والسمو بروحهن إلىٰ درجات الكـمال المـعنوي، وذلك هو الخسران المبين، ويبقى ذكرهن السيّيء عبرة للأجيال.

كما يذكرهن اللّه بأن لهن أحكاماً خاصّة يجب عليهن الالتزام بها، وبيّن لهن هذه الاحكام.

وكلّ ما أشرنا إليه يدلّ علىٰ أنّ الموضوعات التي وردت قبل وبعد جملة **﴿إنّما يُرِيدُ اللّهُ ...﴾** تختصّ بنساء النبي تماماً، دون ورود النبي أو شخص آخر في ذلك الخطاب، ثم تأتي هذه الجملة فجأة دون ربط بما قبلها وما بـعدها، فـلو كـان المخاطب في هذه الجملة نساء النبي أيضاً لاستخدمت الضمائر نفسها فـي الجمع للمؤنث وأصبحت الجملة هكذا: «إنما يريد اللّه ليذهب عـنكنّ الرجس

أهل البيت ويطهركنَّ تطهيراً» في الوقت الذي جاء الجمع بضمير «كم».

ولعلّ من قائل يقول: إنّ هذه ليست المرّة الأُولى التي يخاطب اللّه بها النساء بضمير الجمع المذكر، فقد ورد مثل هذا الخطاب لزوجة إبراهيم سارة حيث قال: ﴿**رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّه حَمِيدٌ مَجِيدٌ**﴾[١].

ولو تأمّلنا قليلاً لوجدنا أنّ الخطاب في اللغة العربية إذا كان لمجموعة من النساء والرجال يأتي بصيغة جمع المذكر، والقرآن نزل ﴿**بِلِسَانٍ عَرَبِيّ مُبِينٍ**﴾[٢]، فلو تدبّرنا فيه لوجدناه يخاطب النساء بجمع المذكر فيما إذا كان بينهن رجال؛ ولذلك فإن كلام الملائكة هذا عن سارة أُطلق في موقع لم يكن الخطاب لسارة وحدها بل كان يشمل زوجها إبراهيم عليه السلام أيضاً، وقد أُطلق الكلام عندما بُشّر كلاهما بالولد، كما يشمل الخطاب ذرّيتهما أيضاً.

إذن هناك فرق شاسع بين هذه الآية وآية ﴿**إنّما يُريدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ...**﴾ لأن الخطاب قبل هذه الآية الأخيرة لنساء النبي فقط: ﴿**يَا نِساءَ النَّبِيّ...**﴾.

والدليل الآخر علىٰ انفصال هذه الجملة عمّا قبلها وما بعدها هو أنّنا لو حذفنا هذه الجملة من الآية لايطرأ أي خلل عليها.

والدليل الثالث هو ورود أحاديث وروايات كثيرة عن الفريقين تؤيد أنّ هذه الجملة لم تخاطب نساء النبيﷺ وأنّ لفظ «أهل البيت» خطاب لمجوعة أُخرىٰ غير نساء النبي ولم تشمل قط نساءه أيضاً، وأنّها كجملة معترضة وكلام منفصل ليس له علاقة وربط بما قبله وما بعده، حيث نقل الزمخشري عن عائشة قولاً مضمونه: خرج رسول اللّه وعلى متنه عباءة صوف منسوجة من شعر أسود، ثم دخل الحسن فأدخله تحت العباءة. ثم جاء الحسين فأدخله أيضاً، ثم جاءت فاطمة وعلي، فقال رسول اللّهﷺ: ﴿**إنّما يُرِيدُ اللّهُ لِيُذهِبَ عَنْكُمُ**

---

(١) هود ٧٣/١١.

(٢) الشعراء ١٥٩/٢٦.

الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ ﴾[١].

وقد نقل الرواية نفسها السيد العلّامة الطباطبائي في تفسيره أيضاً[٢].

وبما أنّ المستشكلين علىٰ ما قلنا هم من أهل السُنّة فإنّ الذي نقلناه عن الزمخشري وهو منهم كافٍ لرد الشبهة، فمثل هذه الروايات كثيرة في كتب السنّة بحيث استشهد الزمخشري بواحدة منها، ولو كانت هذه الرواية شاذّة عندهم، فمن الواضح أنّ الزمخشري لايستدلّ بها ويوردها دون أي نقاش.

كما وردت أحاديث كثيرة عن أئمة الشيعة في هذا المجال تشير كلها إلىٰ أنّ هذه الجملة منفصلة تماماً عمّا قبلها وبعدها، وأنّ مصداق أهل البيت هم: فاطمة الزهراء وزوجها وولداها إلىٰ جنب رسول اللّهﷺ[٣].

وعلىٰ هذا الأساس فإنّ اللّه عزّ وجل نزههم وطهّرهم من كلّ رجس ودنس يضرّ بقواهم العقلية أو يمسّ روحهم الطاهرة، وذلك بعد ظهور القيم السامية فيهم، وجعلهم مطهّرين قديسين؛ لكي لايُلقي الشيطان ظن السوء في أذهان المؤمنين بما يمس ساحتهم المقدسة، ويريد اللّه أن يعطيهم عظمة وسداداً.

وأهل البيت تربطهم برسول اللّه امرأة واحدة، وأولادها ذريّة طاهرة لرسول اللّه؛ لأنّها هي ابنته وهؤلاء أبناؤها، وهم أبناء رسول اللّه. ولو انتبهنا إلىٰ حقيقة أنّ القائل لهذا الكلام هو اللّه سبحانه الجامع لكلّ الصفات الجمالية والجلالية، وهو اللّه ربّ العالمين، وأنّ ارادته تقترن بالتحقيق والوقوع لا محالة، فإنّنا ندرك هذا التكريم والتعظيم لهم أكثر فأكثر، ومن هنا ندرك السبب في نعت فاطمة الزهراءعليها السلام بأنّها غاية الوجود في خطاب اللّه تعالىٰ لرسولهﷺ: «لولاك لما خلقت الأفلاك، ولولا علي لما خلقتك، ولولا فاطمة لما خلقتكما»[٤] وهكذا يرسم لها اللّه شأناً وعظمة تفوق تصوّر البشر.

---

(١) الكشاف ١/ ٤٣٤.

(٢) تفسير الميزان ١٦/ ٤٩٧، وانظر مجمع البيان، المجلد ٤، الجزء ٨/ ٣٥٧.

(٣) تفسير الميزان ١٦/ ٤٩٠ ـ ٤٩٩، ومجمع البيان، المجلد ٤، الجزء ٨/ ٣٥٧.

(٤) فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفى/ ٩.

أجر الرسالة

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لاَ أَسأَلُكُمْ عليه أَجْراً إِلَّا المَوَدَّةَ فِي القُرْبَىٰ وَمَن يَقتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[١].

﴿ذَلِكَ﴾ جاءت في مستهل الآية إشارة إلىٰ وعدٍ أعطاه اللّه للمؤمنين من قبل، وسيكون لهم شأن ومقام في الجنّة لما قاموا به من أعمال صالحة، ويُعطون ما سألوا وهم في نعمة اللّه وفضله. وتؤكّد الآية أنّ هذه البشارة والمقام لمن آمن باللّه وعمل صالحاً.

وبعد هذه البشارة وبدون أي حرف عطف يفصلها، بل في هذا الموقع بالذات يأتي الخطاب للنبيﷺ ويأمره أن يقول: لا أسألكم علىٰ رسالتي وتبليغي أجراً إلّا المودّة في أقربائي، كما نشاهد ما يشبه هذا الكلام من أنبياء آخرين في مواضع كثيرة، حيث لا يسألون فيها أجراً علىٰ رسالتهم، وهذه هي طريقة كلّ الأنبياء الذين جاؤوا قبله، ولكن هناك فرق واحد وهو أنّ كلّ الانبياء نفوا الأجر مطلقاً دون أي قيد أو شرط إلّا خاتمهم فيه استثناء يلفت النظر، فرسول اللّهﷺ يطلب أجراً واحداً علىٰ رسالته، ويستثنيه بـ «إلّا» وهو المودّة والمحبّة لأهل بيته؛ ولذلك فإن المحبة (وهي الولاية) أصبحت عِدلاً للرسالة[٢].

من هم القربىٰ؟

هذا السؤال يطرح نفسه أمام الباحث، وللحصول علىٰ الجواب نبدأ أوّلاً بالنقل عمّن يُشتبه فيهم بأنّهم في الجبهة المخالفة.

يعتقد الزمخشري وكلّه يقين بأنّ المراد من القربىٰ هم أُولئك الجماعة الخاصّة، وهم أهل البيتعليهم السلام حيث يقول: يُروىٰ أنّه عندما نزلت هذه الآية سُئل

---

(١) الشورى ٤٢/٢٣.

(٢) ممّا يذكر أن مودّتهم تعادل الرسالة فما هي حقيقة مقامهم، وما هو شأنهم؟

رسول اللّه ﷺ: يا رسول اللّه منهم القربىٰ الذين وجبت علينا مودّتهم؟ فأجاب: علي وفاطمة وولداهما[١].

وهكذا نفهم بأنّ مودّة هذه النخبة تعادل الرسالة في قيمتها، حيث تقف الزهراء عليها السلام في وسطها، وهي من قال رسول اللّه ﷺ في حقّها: ياحسن وياحسين انتما كفّتا الميزان، وفاطمة لسانه، ولا تُعدل الكفّتان إلّا باللسان ولايقوم اللسان إلّا علىٰ الكفتين. فالزهراء عليها السلام هي مصدر التعادل والميزان.

الخير الكثير

﴿إنّا أعطَيناكَ الكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إنّ شَانِئَكَ هُو الأبْتَرُ﴾[٢].

من الآيات الشريفة التي فيها دلالة واضحة علىٰ الزهراء فاطمة عليها السلام هي آيات سورة الكوثر.

و«الكوثر» هو الخير العظيم[٣] أو الكثير[٤].

و«الإعطاء» بمعنى الإيهاب والفضل، وهو على نحوين: عطاء بمعنىٰ التمليك، وعطاء بلا تمليك.

والمراد بالعطاء في هذه الآية هو عطاء التمليك، والمُعطىٰ إليه هو متعلّق ذلك العطاء، فذلك الخير الكثير الذي حازه الرسول بعطاءٍ من اللّه لم يُصرّح به في الآية الأُولىٰ. ولعلّ هذا الإطلاق وعدم التقييد لإضفاء عظمة وشأن خاصّ عليه، ففي الآية الأُولىٰ تصريح بأنّ نعمة وخيراً كثيراً أُعطي لرسول اللّه ﷺ ومن أجلها أُمر الرسول بإطاعة اللّه والصلاة للّه ونحر قربان.

أمّا تغيير الضمير من «نا» المتكلّم الىٰ «كاف» المخاطب في **﴿لِرَبِّكَ﴾** واستعمال لفظ «ربّ» من بين أسماء اللّه وإضافته لضمير المخاطب «الكاف»

---

(١) الكشاف ٣/٤٦٧.

(٢) الكوثر ١٠٨/١ ـ ٣.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن/٤٢٦.

(٤) مجمع البيان، المجلد ٥، الجزء ١٠/٥٤٨، والكشاف ٤/٢٩٠.

فيعتبر نوعاً من التأكيد لإتيان الفرائض بشكلها الكامل، ففريضة الصلاة التي هي حقيقة العبودية، والنحر بمعنى تقديم القربان[١] جاء بمعنى الطاعة بالمال مقابل ذلك الخير الكثير، وهو ما يحثّ على التأمّل.

كما أنّ بعض المفسرين أخذ الأمر بالنحر بمعنى الأمر بالحجّ، والمراد بهما هو إقامة الصلاة وأداء الحج مقابل تلك النعمة التي أعطاه اللّه إيّاها. ولكن الآية لاتدلّ بوضوح على ذلك، إذ إنّ تقديم القربان هو طاعة أُمر بها في مواقع كثيرة منها مستحبّ ومنها واجب، ولو اتّضح المراد والمصداق الحقيقي للخير الكثير فإنّ تحديد معنى ﴿انْحَرْ﴾ يكون أكثر دقّةً وحثّاً، وعلى هذا فإنّ معنى الكوثر والنحر مازال في إبهام وإطلاق.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾. «الشانئ»: المبغض، و«ابتر»: من لا عقب له ولا نسل وذريّة[٢]، ويطلق عادة على من لا أولاد ذكور له.

والمراد من العدو المبغض في الآية كما جاء في شأن نزولها هو العاص بن وائل الذي أطلق على النبي كلمة «ابتر» وكان يريد أن يهجوه بعد وفاة أولاده الذكور، وأُضيف إليه عقبة بن أبي معيط، وأبو لهب وأبو جهل أيضاً؛ إذ كانا في الموقع نفسه، حيث قال أحدهم: اتركوه لأنّه سيموت من غير وارث وينتهي أمره[٣].

ويقول صاحب مجمع البيان: إنّها نزلت في العاص بن وائل[٤].

فلو تدبّرنا في هذه الآيات وشأن نزولها لوجدنا أنّ السورة تردّ على الإهانة التي وجّهت للرّسولﷺ، وفيها إشارة صريحة، وتقابل بين كلمتي «أبتر» و «كوثر».

---

(١) فسّرت عبارة ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ﴾ بأنّها بمعنى: ارفع يديك بمحاذاة وجهك. انظر مجمع البيان، المجلد ٥، الجزء ١٠/٥٤٨.

(٢) مجمع البيان، المجلد ٥، الجزء ١٠/٥٤٨.

(٣) في ظلال القرآن، المجلد ٨، الجزء ٣٠/٢٦٦.

(٤) مجمع البيان، المجلد ٥، الجزء ١٠/٥٤٩.

والمراد من «الكوثر» هو الذريّة لرسول اللّه علىٰ الرغم من شمولها لكثير من الخيرات، إلّا أنّ المصداق الرئيسي والواضح هو الذرية التي لم تتحقّق إلّا عن طريق الزهراء فاطمة عليها السلام[١].

ومع أخذ هذا المعنى بعين الاعتبار فأنّ المعنىٰ المراد من ﴿وانْحَرْ﴾ هو ذبح قربان من باب العقيقة[٢]. وبناءً عليه يصبح المعنى: «يا رسول اللّه، إنا أعطيناك مولوداً فيه ذرية كثيرة لك، فصَلّي للّه وانحر عقيقة شكراً لهذه النعمة، وإن عدوّك وشانئك هو الابتر الذي لا ذرية له».

وقال العلامة الطباطبائي نقلاً عن كتاب الدّر المنثور: قال ابن عباس: أكبر أولاد النبي صلى الله عليه وآله هو القاسم ثم زينب ثم عبد اللّه وأم كلثوم وبعدها فاطمة وآخرهم رقية، وقد توّفي القاسم في مكّة، ثم توّفي عبد اللّه ، فقال العاص بن وائل السهمي: قُطع نسله فهو أبتر ليس له عقب. ثم نزلت هذه الآيات علىٰ رسول اللّه صلى الله عليه وآله[٣].

وهكذا تظهر دلالة هذه الآيات التي نزلت في الردّ علىٰ الشانئين والمبغضين لرسول اللّه صلى الله عليه وآله، وقد بدأت بـ ﴿إنّا﴾ وماله من عظمة وقداسة، وتتحدث السورة كُلّها عن موضوع منسجم واحد كما قلنا، ومن ثم يظهر موقع فاطمة الزهراء عليها السلام من الرسول الأكرم ورسالته أكثر فأكثر من خلال هذه السورة ودلالتها.

لقد اعترفنا في مقدّمة هذا الفصل، بعجزنا عن أداء حقّ هذه القديسة الفاضلة، والآن نكرر هذا الكلام ونقول: اين الثرىٰ من الثرّيا، وأنّى لنا أن ننال الثريّا ونحن على الثرىٰ؟! ونكتفي بهذا القدر من الحديث عنها ونحن في حيرة من عظمة هذا البحر اللّجي.

---

(١) قال العلّامة الطباطبائي: إنّ الابتر يراد به: العقيم ومن لاعقب له من الأولاد، والمراد من من الكوثر: مقابل ذلك هو الذرية لا غير. انظر تفسير الميزان ٢/ ٨٥٠.

(٢) العقيقة: هي تقديم القربان في ولادة المولود، وهي سنة سنها رسول اللّه صلى الله عليه وآله. انظر مكارم الأخلاق/ ٢٢٦ ـ ٢٢٩.

(٣) تفسير الميزان ٢/ ٨٥٤.

وهكذا ينتهي حديثنا عن دور النساء اللاتي ذكرهن القـرآن الكـريم وكان لهن حضور تاريخي، في الوقت الذي يحتوي عـلىٰ قـصص وعبر كثيرة لم نتناول منها إلّا ما تيسّر، فهو بحر وكلامنا قطرة مـن بحر، ولاضير فقد عملنا بالقول المأثور: مالايدرك كُلّه لا يترك جُلّه.



المصادر

أولاً: المصادر العربية

١ ـ أُصول الفقه، محمد رضا المظفر، دار النعمان، النجف، ١٩٦٦م.

٢ ـ إملاء ما منّ به الرحمن، أبو البقاء عبد اللّه بن الحسين بن عبد اللّه العكبري، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٩٧٩ م.

٣ ـ بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م.

٤ ـ تراجم سيّدات بيت النبوة، عائشة عبد الرحمن بنت الشاطىء، دار الكتب العربية، بيروت.

٥ ـ تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب، الشيخ محمد بن محمد الرضا القمي المشهدي، مؤسسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة، والإرشاد الإسلامي، طهران، ١٩٩١ م.

٦ ـ تفسير الميزان، السيد محمد حسين الطباطبائي، بنياد علمي وفكري علامه طباطبائي، قم، ١٩٨٤ م.

٧ - التفسير الأمثال، مجموعة من المؤلفين، دار الكتب الإسلامية.

٨ ـ الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، محمود الصافي، دار الرشيد، دمشق، بيروت، ١٩٩١ م.

٩ ـ الحياة، محمد رضا، محمد علي الحكيمي، مكتب نشر الثقافة الاسلامية، ١٣٩٩ هـ.

١٠ ـ فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفى، أحمد الرحماني الهمداني، مؤسسة بدر للتحقيق والنشر، ١٤١٠ هـ.

١١ ـ الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، مكتبة بصيرتي، قم، ١٣٥٢ هـ. ش.

١٢ ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، الطبعة الخامسة، ١٩٦٧ م.

١٣ ـ الكشاف، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوازمي، انتشارات افتاب، طهران.

١٤ ـ مجمع البيان، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، صحّحه وعلّق عليه السيد هاشم الرسولي المحلاتي، المكتبة العلمية الاسلامية، طهران.

١٥ ـ مغني اللبيب، ابن هشام، المكتبة العلمية الاسلامية، طهران، ١٢٩١ هـ.

١٦ ـ مفردات ألفاظ القرآن، سيد قطب، الطبعة الخامسة ١٩٦٧م.

١٧ ـ مفردات ألفاظ القرآن في غريب القرآن، الراغب الاصفهاني، المكتبة المرتضوية، طهران، ١٣٦٢ هـ. ش.

١٨ ـ مكارم الأخلاق، رضي الدين الطبرسي، مؤسسة الأعلمي، للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٣٩٢ هـ، ١٩٧٢ م.

١٩ ـ المنجد، لويس معلوف، اسماعيليان، ١٣٦٩ هـ. ش.

٢٠ ـ النحو، المدرسة المنتظرية، قم.

٢١ ـ النحو الوافي، عباس حسن، انتشارات ناصر خسرو، طهران، ايران.

٢٢ ـ المعجم العربي الحديث لاروس، الدكتور خليل الجُر، مكتبة لاروس، باريس، ١٩٧٣ م.

٢٣ ـ المعجم الذهبي، الدكتور محمد التونجي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٩ م.

ثانياً: المصادر الفارسية

١ ـ تفسير مخزن العرفان، يک بانوي ايراني (بانو امين اصفهاني).

٢ ـ تفسير منهج الصادقين، مولا فتح اللّه كاشاني، انتشارات علميه اسلاميه.

٣ ـ تفسير الميزان، سيد محمد حسين طباطبائي، ترجمه سيد محمد باقر موسوي همداني، بنياد علمي وفكري علامه طباطبائي، ١٣٦٣ هـ. ش.

٤ ـ زن در آئينه جلال وجمال، عبد اللّه جوادي آملي، مركز نشر فرهنگي رجاء، ١٣٦٩ هـ. ش.

٥ ـ گناهان كبيره، عبد الحسين دستغيب، كانون انديشه‌هاى اسلامى، ١٣٦١ هـ. ش.

٦ ـ مثنوى معنوى، جلال الدين مولوي محمد بن محمد بن الحسن البلخي الرومي، سعي واهتمام وتصحيح رينولدالين نيكلسون، انتشارات امير كبير، ١٣٥٩ هـ. ش.

٧ ـ نقش مديريت در پيشرفت ملت‌ها، سيد محمد شيرازي، ترجمه على كاظمي، بنياد پژوهشهاي اسلامي آستان قدس رضوي، ١٣٦٧ هـ. ش.